

بنات الماء

(رواية)

أشرف غيث

أشرف غيث: بنات الماء (رواية)

الحضارة للنشر

٧ شارع أبو السعود - الدقي ١٢٣١١ - القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-12) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: فبراير ٢٠١١

رقم الإيداع بدار الكتب 2011/ 3348
ISBN 978-977-476-097-6

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بنات الماء

obeikandi.com

لا تغنى الأجنحة عن الطيران.. أجل، فما أغنت
الأجنحة عن الطيران، ولكن الطائر الذي يعيش الحرية
في نفسه ولا نراه في السماء فلماذا يطير؟! ليست
الشمس هي التي أسقطت إكاروس^(١)، وإنما سقط
والصعود يحوله إلى نقطة ساكنة ضئيلة في فضاء الحرية،
اخفض جناحيك حتى تراك بنات الماء فرما أسرعن إلى
الصخرة وحولنها موجة طافية!

(١) إكاروس فتى أسطورة إغريقية هرب مع أبيه ديدالوس من الملك مينوس
الذي غره الملك وسطوته، ولم يجد في علم ديدالوس ومهارته إلا ما يستدل
به شعبه؛ لذلك أمر ديدالوس أن يصنع متاهة يسوم فيها شعبه سوء الملك،
وسوء العذاب، ثم سام ديدالوس جريرة علمه، وتحداه أن يخرج من ضروب
المتاهة التي صنعتها مهارته، وحبس فيه؛ ليعجز عن الخروج منها حتى
أخرجته الملكة، وهرب هو وابنه إلى جزيرة الأسطورة الإغريقية، ولكن
الملك تبعهما وحاصر الجزيرة تأهباً لاقتحامهما؛ ففكر ديدالوس في إنقاذ ابنه،
وركب له جناحين، وحذره من الاقتراب من الماء، أو الشمس، ولكن
إيكاروس استخفه المطار حتى صعد إلى وهج الشمس، ولم يدري إلا
والجناحين يفك لحامهما، ويكون سقوطه على الصخرة مناحة بنات الماء؛
فخرجن منها يبكين سقوطه وحلمه، ولا يبكين غرارة الملك، وعذاب
الشعوب!

obeikandi.com

مدينة النقائص قريرة قرارة الحكمة في وهدهما^(١) الموصولة بالقبة
الزرقاء.

سحرها ما يعتم ينقلب عليها. لموتها حياة هي روح الأبد ولحياتها
موت هو ضمير الواقع.

تسبق العالم بأمال و يسبقها العالم بأمال؛ تحاكيه في قشوره،
والعالم يحاكيها في لبائها.

فريدة في قبحها وجمالها. سهلة حتى تكون لمن غلب، ومنيعه منعة
الأقدار.

تراثها مرآة لكل من عبروها، واستوطنوها، واحتلوها؛ كأنه سجل
الإنسان المنطوي على الصورة والمثال، والبدء والانتها؛

هكذا كان بلد العجائب يوم سير نيله "هيرودوت" قبل الميلاد،
وهكذا يكون من ذروة الجبل التي صعدتها أول أيام هروبه من المدرسة
حاملا حقيبتها أو تلك الصخرة، وما إن أهال ترايما المنطوي على
مُخلفات الأفران؛ ليدفن أشلاء ما انتهتبه الحدأة من كتاكيت السطح؛
صادفه ما احتضر من الحضارة: جُذذ لوحات، وفسيفساء، وجص،
وبلاطات خزف، وزهريات، وفخار، ومسا رج، وأوانٍ، وقماقم
عطور، وتماثم تعاويز!

آكام وراءها ما وراءها؟

تمتد في الخدارة من قرافة الغفير إلى قرافة الوزير، وهى بمثابة
صدادات كانت تمنع سيول المقطم عن سور القاهرة، ومن حيثما نظرت
طالعك بظهرها أشجار الكافور العملاقة، ويتأخم منحدرها ذلك البناء

(١) الوهدة: الأرض المنخفضة العميقة.

المقوض، ولا يزال يتشوفه^(١) من سطح البيت، وطامحا إليه "كقمقم"
للخيال حتى جاء من خلفه صوت جاره معلم الكتاب يقول:
- خيال حيران، أم رغبة جامحة في صعود ذروة أشجار الكافور
وأجواء الطيور؟

سأله محروس مشيرا إلى البناء المقوض:

- أهو شاهد قبر؟!

بسم قائلا:

- وشاهد على سكان القاهرة أيضاً!

بنهم الفضول قال:

- ولكن الشواهد لا تكون إلا على القبور!

استعرض طرفه سفح المرتفعات، وسور القاهرة وأبراجه التي فصلتها
مقابر الوزير عن صخور القلعة وأبراجها، وقال كأنما يحدث نفسه:

- وللتاريخ شواهد كالقبور!

ورجع إلى محروس يقول له:

- إنه ما بقى من برج مراقبة، كان له حراس يقومون على كل
خطر يهدد سكان السور من حيث قدم الغزاة، والخلفاء!
هلل في نفسه:

"سوف أجعل" أم وجيدة" تصدق أنني واحد من هؤلاء الحراس".

رفع ذراعه من فوق سور السطح إلى سور القاهرة يسأله:

- من الذي بنى السور؟

- الوزير قراقوش.

- يعني أيه كلمة قراقوش؟

(١) يتشوفه: بطمح إليه.

- تعني الطائر الأسود!

سرح محروس في خيال مُحبب أو في باكورة "القمقم" التي
ستجعل أم وجيدة تصدقه لما يُخبرها أن الطائر الأسود هو باني السور،
ولم تكذب خياله وهو يقول لها:
"وأنا الطائر الأسود!"

فتتواتر خواطر التبسم في ألق عينيها الضيقتين، وتجعله يصدق نبأة
البومة البيضاء، واقتران ظهورها في وهج المرتفعات ببشائر هي البلاء
وعبر هي العماء!

كانت المرتفعات وبرج مراقبتها، وأشجار الكافور وأجواء طيورها "قمقما للخيال" أما حجرة اليمام التي تعلو بيت أم وجيدة العتيق في نشوز وعزلة يوائمان جلال أسرارها فهي "قمقم الموت" الذي يهفو إليه خيال الطفولة، ويتصدر الأفق فيما بين طليبة المذاكرة، وذروة المرتفعات، وهي متبوعاً المرأة حيث تعاشر اليمام ويعاشرها، وحيث تلوح الحجرة من أية جهة كمالاذ لأرواح مودعة، وكمرصدة لنبأ الموت وعويله القصي. تستشعر نبأته كأنها كاتمة أسرارها، وعاطفته المتوحدة بمن سيموت من الأحبة والجيران والفنانين والساسة وضحايا الحروب والفتن، والأوبئة..

أو ينقبض شعور الموت في قلبها ويخاطرها بنبأ طائرة كنعش مغلق على مذيعة شهيرة مُحبة إليها. حتى الققط والكلاب التي تآلفتها إيلاف الذكرى، أو مرت عليها مرور الكرام كانت لها نبات وهمس خفي ملهم يُرهِف في روعها شعور الموت.

وكذلك خاطر روعها نبأ عابر سبيل تحرسه روحه أربعين يوماً؛ فبدا لها كمسافر شغلته جلبة القضبان وعجلات القطار عن بهجة السفر.

هو شاب فنان مصور، كان يتحول بين دهور الألوان والأزقة، فهش وجهه ببشاشة الإلهام وأم وجيدة تستقبله بنظرة "يمامة" فيها من الحنكة مداها ووجدها وسكينتها.

كانت جالسة تشمس على الحجر الصوان. مصطبة بيتها المعقود مدخله على باب ذي ضلفة واحدة ضخمة، هي مسند لظهر "حيلة" وغفق^(١) نومه الخفيف المتصل أرقه بثقل النوم؛ اتصال الموجة بالموجة في

(١) الغفق النوم مع سماع كلام الناس.

محيط من سمر الدنيا وثرثرة الناس، فحيثما كان السمر كان غفق حيلة سواء في القرافة، أو سهر "السُّطَل" والأفراح والمقاهي وممر بوابة المتوالي، ودروس التوحيد والتصوف في حوش "الشاهد" جد أم وجيدة..

وكأنما تعتة^(١) كلامه المحبوس في صدره وعقدة لسانه؛ جيشان نوم ينوخ به في وخمة السبات؛ لكي يتصل بسمر السمار بلسان الأحلام. ألقى عليها الفنان تحية العابر فحيته بأحسن منها، واحتفى بدعوتها الموجزة وصدقها الصراح:

- تفضل!

ونفض للتحية "حيلة" كأنها مُفتتح حلم، ومشى متثاقلاً بعبال^(٢) جسمه داخل الحوش. احضر كرسيًا من خوص النخيل، ثم تلقى شكر الضيف، ورجع كما كان إلى متكأ الباب.

استرسل حديثهما كمسافرين في عربة قطار. الفنان لا يريد للجلبة أن تنفض، وهي تستشعر نبأهما، يلتحد^(٣) بنفسه يُحدثها في مُلتحد من حنان عيني ضيقتين كَوْصَوْص^(٤) الإلهام وثقب ضوءه:

"أي جلبة للسفر بيننا؟ وأي حنان شق صدفة نفسك؟ وأي أمواج للدهر في عينها تعبر بك أطلالا هي وجد الحياة الباكي من فرحة الدوام؟".

أكل معهما الدوم، والنعناع الأخضر، وغزل البنات، والخرشوف.. وما أن نادى بائع الجزر الأحمر حتى خرج من الحوش حمار؛ فقه حيلة

(١) التعتة: التردد في الكلام من حصر أو عي.

(٢) العبال: الكثير من كل شيء.

(٣) يلتحد: يلجأ.

(٤) الوصوص: ثقب الضوء

واحتجزه جانبه.

قالت أم وجيدة باسمّة:

- هذا هو "الأرمد"^(١) حمار حيلة يريد أن يشاركنا الجزر الأحمر!

فتبسم الفنان قائلاً:

- قد سمحت لي أن أكون واحدا منكم؛ فهل تسمحين لي أن أشعر

"الأرمد" بذلك واشترى له الجزر؟

وكان تبسمها سماحاً، وأرسل له حيلة "الأرمد"، ثم قفل إليه راضياً بما أطلع من الجزر وخضرته، فيما دخن الفنان سيجارة أم وجيدة، وحسا قهقهة، ولما تنشق بنشوقها؛ تربص قه حيلة المكتوم بعطاسه تربص الرذاذ بالاستئثار^(٢)، ثم كان همل دموعهما إذ الاثنان هامدان إلا من بعكوك^(٣) لهاث تنم على ماجهداه في العطاس والقه المكتوم. أخفى حيلة وجهه في وجه الأرمد مكتفياً بلحظ خبيث يتربص بالضيف، فيما تعمق هذا ناصيته العريضة وسائر وجهه الضيق وخفي أذنيه ومشفره الغليظ الرعاش، وطراً في عيني حيلة تهلل لرجل لا يُستهان بقصره، موفور الحماسة وإن تقاصرت دونها طاقته، وفي نظره معين طرب يصفو كالدواء، ويؤبه له كعطره الرفراف.

إنه "عم نحمده" تاجر الجمال، ومتعهد الأموات بمكرمة الدفن حيثما ماتوا. قام الشاب يصفحه؛ فأمسك بيده ريثما يفسر له ما تعمقه في سحنة حيلة. قال عم نحمده:

- إذا ارتعش مشفر حيلة من ضحك، أو غضب وطأطأ خفي أذنيه

(١) الأرمد: معناها المصروع.

(٢) الاستئثار: الاستئثار.

(٣) البعكوك: أثر الشيء.

فهو وحمارة نطفة مهجنة!

وضغط يده يستمهل الدهشة الباسمة؛ ليقول:

- حيلة يخفى عنا عام مولده، والعام الذى بلغ فيه حمار "دُئش"
أبيه الحلم؟

التحد الفنان بنفسه:

"أرأيت كيف يكون لون الوجد والضحك والدهاء؟ قدر عليك أن
يمتد عمرك في الماضي، وتعبير بك دهور الأزقة دهشة الألوان!".
أجلسه عم نحمده صامدا لدعابة أم وجيدة، أو قصاصها قالت
مخاطبة ضيفها:

- نحمده رجل من عاشره كإنسان أحب الحياة، ومن عاشره
كحانوتي أحب الموت، ومن عاشره كتاجر جمال صبر على الموت
والحياة، ومن عاشره قصيرا داهية فهي زوجه!
أهجمهم ابتهاج حيلة وفواصل فقهقاته؛ حتى أعلن عم نحمده عن
سبب مجيئه قال لحيلة:

- "عشم" النجار فرغ من النعشين هيا جهز لنا الكارو لنجلبهما.
فلفظت حنجرته عبارة متأكلة مطلسمة، أو هُباشة من ذبذبات
غليظة قد ضمرت أحبالها الصوتية؛ مما أضحك الفنان وحيره إن كان
حيلة يتكلم لأول مرة في حياته، أم لآخر مرة؟ فقال له عم نحمده بجدية
خادعة:

- كلام حيلة اليومي همسات حمار تخرج من حنجرة إنسان!

تساءل ضاحكا:

- وماذا قال؟

أجابه ناظرا إلى الأرمد:

- كان يوبخ حمارة لأنه لم يُشاركه الضحك من رأى أم وجيدة

في نحمده!

سبر الضحك رواح قلوبهم، ولم يُعكر صفو عفويته، والرضا به إلا فُجأاً^(١) صيحة الفرار، أو صيحة "الكبسة" وهتافها المدوي "حكومة يا ولد!" هكذا هي صيحة الفرار مألوفة داهمة. يُدوي هتافها من إحدى ثغرات الحي العتيق؛ وتتلوه هتافات تتردد كنفيّر غارة يشمل المساقط والأجواء ومظانّ الهروب..

طلب عم نحمده من الشاب حمل الكرسي والدخول فوراً إلى الحوش؛ فنهض مُخلياً جانب الشارع ومرسلاً طرفه إلى ملتقى منفذيه: منفذ المرتفعات ومنفذ ساحة الباطنية، أو ساحة المقدم بُهادر ورتبته المملوكية، حيث يتدهور طلاب لذة التعاطي من هولّة الجري، وتكبكبوا^(٢) منجرفين في اتجاه الفنان، ككتلة بشرية تفر من زبانية الفرار..

كتلة ينجرف بها الفرع إلى هاويته.

زلتها زلة القدم الواحدة، وفزعها تلاحم هو مقتلها الوشيك؛ إذا ما ارتطم كتف بكتف، أو ارتطمت الأكتاف بجدار، أو التفت بالأقدام حصباء الأرض أو يأس النجاة؛ فحينئذ تنقوض كتلة البشر، وتنهار أعصابها إلى حضيض اليأس والتشردم، ولا ترى من أنقاضها إلا منكبا، أو نازفاً، أو لاجئاً إلى بيت، أو قاعداً إلى حائط يطلب العون والإسعاف، ومن فر بفزعه كان أول العائدين إلى ساحة الحي الجامع لنقائض البلدان، أو هو صراطها المحفوف به من كل صوب طرائق جهنم! انحصر مد الفرار عن الحوش والفنان بعتبته يستمع إلى عم نحمده

(١) الفجأ: الهجوم المفاجأ.

(٢) تكبكبوا: تجمعوا مندفعين بشدة.

وهو يسأله:

- هل شاهدت فرارا مثل هذا؟

افتر تبسمه، وقال:

- أجل، شاهدته مرات.. ويا ليتني استطعت الفرار بشعور الفارين!

وأصغى لَعْنَةُ أم وجيدة الرحيمة:

- الناس كما رأيتم يأتون ليفروا. كلهم يفر، والشقي من فر إلى

غير نفسه. الحياة لا تقبل علينا إقبال المنية. ألقوا السلام على القرير؛ فإن السعي وتيرة الحياة، وشأو^(١) لا يبلغه من وقف للسلامة. إنها اللاهية والشقي من ألهى عن نفسه!

التحد الفنان بنفسه:

"من عرفك قبطيا عمذك "بكهيص" القرآن، ومن عرفك فنانا عمذك بأديم هذه الأزقة. قدر عليك أن تتنشق بنشوقها، وتجري بصدفة نفسك أمواج دهورها".

لاحظ عم نحمده التحاده بوجه المرأة؛ فقال يستفيقه:

- أم وجيدة سوف تلهيك عن أم وجيدة!

تغاضت الأم عن الدعابة وشغلها أن يكون الضيف الغريب عرضة لمخبري "الكبسة" حال مرورهم، فطلبت منه الجلوس على الكرسي الذي بيده، أو الجلوس بإحدى أرائك الحوش، فقال يطيب خواطرها:

- حنانيك! أنا وجهي انكشف عليهم.

فقال عم نحمده:

- العبرة بالقفا في عُرف هؤلاء!

(١) الشأو: الغاية والهدف.

قه حيلة في وجه الأرمذ، وتبعب^(١) الكلام في حنجرته بما أضحك
أم وجيدة، وبما فسرّه عم نحمده للشاب قائلاً:

- حيلة شاف "خلف" المُخبر وهو ماشٍ خلفك؟
فاقسم الفنان:

- والله! لقد رسمت خلفاً كظل إنسان ينحدر على ظهور أناس
ملتصقة بحيث لا تظهر وجوههم!

وكان عم نحمده يعرف "خلفاً" معرفة الجليس المقيم بدكانه قرب
بوابة المتولي، وذلك منذ تلقاه وهو طالب بالأزهر يبحث عن سكن
فدله على شقة بدرب العنبة. قطنها سنوات بعد التحاقه بالمباحث،
وخلال هذين العهدين لم ينقطع عن الدكان.
سأله عم نحمده:

- أو حقاً وقعت في سكة خلف؟

قال بنبرات تحتفي بذكرى الوقوع:

- هي سكة المقريزي التي أوقعتني في سكة خلف!

وحدثهم عن صيحة الفرار وهتافها الخاطف المتوالي الذي أخوى
ساحة المقريزي العامرة، ولم يدر إلا ومُخبران يستوقفانه، ويتحسسان،
ويفركان، ويضغطان، ويستكشfan، ويتدلان ما ظهر منه وما بطن، ثم
أجبره خلف على فغر فمه، وفحصه مُقسماً بأَم الفنان الغريب أن رائحة
فمه توشى بأنه حامل في "توعم" أي قرشي حشيش.

قرقر حيلة، وصبروا علي هياج ضحكه باسمين حتى تبعب كلامه بما
ترجمه عم نحمده قائلاً:

- حيلة يُخبرك أن خلف فعل بالأرمذ مثل ما فعل بك؟

(١) تبعب: تتابع الكلام في عجلة.

ثم بلهجة تشير فضوله:

- إن بقيت معنا حتى طلعة رجب القادم إلى القرافة؛ سوف أحرك
بما حدث للأرمد في طلعة رجب الفائت؟

يقصد يوم دس الكردي "حبة" أفيون في جيب الصدر من جلباب
حيلة، وقال له:

- اليوم أريدك حصانا يا حيلة وليس أرمدًا، إن نمت نم واقفًا..
العيال وعماتهم معك ترجع بهم كما أخذتهم.

ثم مشى حيلة لصق الأرمد ناسيا "حبة" الأفيون، كما ينسأها في
سهرات الأفراح، ورحلات السفر إلى الأموات بصحبة عم نحمده،
وطوارئ الاعتكاف بالقرافة بصحبة أم وجيدة؛ حين تعثرها غير النبات
وبلبلة الأرواح..

تراص الأطفال بمقدمة الكارو وسائر إطارها، وقد توالى صخبهم
على حيلة كريح تُوْباء تنعسه فينة، وفينة تجيش به إلى هو الاصطخاب
وخفته الوثابة، فلا يزال يتلفت إليهم وهو بين الصحو والنعاس، ولدى
ثغرة الجبل احتجزه خلف بإشارة من "فخري" بك الضابط، وكان هذا
قد حتاً^(١) بظهر الكارو امرأة لا يعيها الامتلاء. امرأة لا يعيها الامتلاء.
امتلاء غير جائر جوارحه واضحة معلنة، هو نضارتها، وحمرة وجهها
وجيدها المصبوب بصدر مكتنز بإغراء شهى خاطف للأبصار. سألها
الضابط:

- ألسنت امرأة الكردي؟

فقال وكحل عينها يُبدى العبوس ملاماً:

- وهؤلاء أولاده في زيارة إلى قبر جدتهم وجدتهم!

(١) حتاً: النظر بحدة.

فراغت عيناه عن جارحة كحلها صوب حيلة؛ مما عمد بخلف الذى
فغمت أنفه رائحة "حبة" الأفيون، أن يُعرض عن الحمار الآدمي
المعروف لديه، ويرتاب في الحمار الطبيعي؛ فدار حوله يفتش برذعته
والخيش والأحزمة والعريش، ويتعد عنه فتضيع رائحة الأفيون..
يتفقددها في عب أسفل الكارو، وفيما بين الأطفال وما شذ من عطور
النساء، ثم ارتد إلى حيله يقول له مرجحا ظنا لا تظنه الحمير:

- قل للأرمد يفتح حنكه!

ظن خلف أن النسوة ورطن حيلة، وحملنه على إخفاء الأفيون، أو
إهداره في جوف الأرمد لما فجئن بكمين المباحث والكارو ينحدر
نحوهم، ولكن البك لم يظن ظن خلف، ولم يخطر بظنه أن يُدعن الحمار
لصاحبه ويفغر حنكه!
سأل الضابط المخبرين:

- ماذا يشم خلف في حنك الحمار؟!

فأهلَسوا^(١) بالضحك الفاتر وحبسوه قدر المستطاع إكراما لخلف،
الذي أجاب البك بما يُبرئ حيلة من التواطؤ مع الحمار، أو درايته بمكان
رائحة الأفيون. قال:

- حيلة ده، حمار يا فخري بك!

فقال كمن أخذ بحجته:

- وماذا تنتظر يا خلف؟ مُر الحمار أن يطلب من صاحبه فتح فمه؛

وإن امتنع الحمار استأذنه في تفتيش حيله!

فضرب بكفه عبال حيلة "المرطوط" وقال:

- حيلة، عار في قافلة الحريم والأحياء يا فخري بك!

(١) أهلس: أخفى ضحكه. والإهلاس ضحك فيه فتور.

ثم سُمح للكارو أن تسير بسلام والنسوة بظهرها ينتهزن
الضحكات فمز المخالبة^(١) والانشراح..

ولما عاتب عم نحمده خلفاً بالدكان قال له:
- فخرى بك، ارتاب في امرأة الكردي، بل إنه ارتاب في أيضاً،
ولم يصدقني وأنا أخبره بوجهة الكارو إلى القرافة!
وارتبك خلف قائلاً:

- لقد أعمتني رائحة الأفيون عن الحمار الآدمي الذي أعرفه؟
يقصد حيلة، وتضاحك قائلاً:
- لم ينقذ حيلة إلا "سنة الأفيون" التي اصطبحت بها. تركته يفلت
وأنا أقول لنفسي: الرائحة رائحة فمك يا خلف!
احتشدت "الكبسة" في مضيق الشارع ولا يكاد يُسمع لها
هسيس^(٢)؛ وإنما هي نظرات مخبريها وضبطها تحتاح كل شيء، ولا شيء
يصمد لسطوتها..

كان خلف في مؤخرتها يدفع أمامه فتيين، قد عقد طرفي قميصهما
بعقدتين "ككلبش" حديد. واستطاع لباع فضوله وهو جاء طول له أن
يفرز بباب الحوش، وجه عم نحمده، ووجه الفنان الذي تبسم من نظرتة
"الهوائية كغاز سام يغتالك وأنت تحلم!" لم يغض خلف بصره عنه حتى
حازاه ومال على عم نحمده يومئ برأسه ويقول:

- الزبون ده، خذ حقك منه مُقدماً لأنه سيبتخر قبل أن تدخله
النعش!

(١) المخالبة: المخادعة.

(٢) الهسيس: كلام النفس أو الخفي.

يشير إلى هُزال الفنان وانضواء^(١) بدنه. وأوقف خلف الفتيان ضارباً بكفه ظهر أحدهما، وقال لأم وجيدة:

- ضيفك رسام ضاقت به البلد وجاءك لتأخذي "أتره" يمكن ترقيته من حرف الرسم، وخرافة صحته!

ثم ضرب ظهر الفتى الآخر ليلحق ثلاثتهم بحشد "الكبسة". أوشك الفنان على التبخر من الضحك، فأمهله عم نحمده وقال:

- خلف يذكر ك كما يذكر الأرمدا!

قال:

- لما تحقق من أنني رسام، وأن حملي في قرشي الحشيش كاذب؛ طالبني أن أرسمه بوجه لا يستطيع أن يراه خاصة في القسم! فقلت له:

- إذن، لا حيلة لي إلا برسمك في الظلام؟ فحرك زميله المخبر لمغادرة ساحة المقريري وهو يقول:

- ارسمي أنت في الظلام وأنا سأتفرج على نفسي في الشمس! سألته طامعا في "قفشته":

- شمس القسم؟

فقال:

- القسم، شمس ليلية مثل نجوم النهار!

كركر حيلة من كلمة "الحيلة"، وتعمق الفنان وجهه وتضاعفه المدرعة الطفولية، والتحد بنفسه يحدثه:

"لو يتكلم لسانك يا حيلة كما يضحك وجهك، وتفرس عينك؟". سمع عم نحمده يقول:

(١) انضواء: شدة النحول.

- محنة حيلة في فوران قلبه. حيلة أخف وزنا من جلبابه يا بني!
سأله:

- هل رأيت أبا الهول يا عم نحمده؟
أذهله قائلاً:

- رأيته، ولم أُخدع بصمته، لو كان صامتاً ما بقى إلى الآن!
التحد بنفسه:

"من يمسك الأزميل؟ عم نحمده أم الفنان القديم؟ قدر عليك أن
تُبقى في لوحة من لوحاتك مساحة لأزميل هذا الرجل؟".
والتقت عيناه بعيني أم وجيدة؛ فعبر أطلال الوجد الباكي إلى فرحة
الدوام! وقشعرته غنة النبأة إذ تقول له:

- الأحزان نصيبك من نفسك. يبسم لها من فر إليها، وتبسم منك
الأحزان وأنت تفر منها.. لو فر الظالم إلى نفسه ما تجدد ظلمه. الموت
نفسه يفر إلينا ساعياً إلى وتيرة الحياة. لولا غمرة الفرار ما أتى أحد!
أجابها عم نحمده:

- ولا مات أحد يا أم وجيدة!

ثم استأذنها ضاحكاً في أن يفر بحيلة والأرمد، وخير الرسام قائلاً:

- إن جئت معي سأريك ما لم يره رسام من قبل؟

فقال يذكره بنصيحة خلف بأدراجه في النعش قبل أن يتبخر:

- لعلهما النعشان؟!

فقال أم وجيدة باسمه تشوقه ولا تفسد على نحمده دواعي
الضيافة:

- نحمده سوف يُخلبك. عمر الفسيفساء والفسقية أسفل بيته!

كان محروس يرايض لندوة السطح مساء كل جمعة. يجلس إلى
الطبلية يذاكر ولا يذاكر، بينما يجلس معلم الكتاب على دكة
المطالعات، وقد يطرح سؤالاً على الندوة:

- هل يستطيع الخيال أن يحول عقول علمائنا النظرية الهاضمة

لنظريات الغرب إلى عقول معملية تطبق نظريات العلم؟

فقال مدرس جامعي يُدرس الكيمياء بلهجة تتعجب ولا تستفسر:

- وما للخيال والمعمل؟!

فأجابه:

- الخيال وحده هو الذى سيقول لنا ما الشمس؟

قال يماريه:

- وماذا سيقول لنا العلم؟

- العلم قد يصف عناصرها وانفجاراتها، ولكنه لا يقول لنا لماذا

تدفئنا وتحرس على حياتنا؟ الخيال يحول انفجارات الشمس إلى عاطفة
بيننا وبينها، وإلا فلم تصل إلينا وتعرفنا بنفسها؟ ولماذا تخرق من أجلنا؟
هكذا يفكر الخيال.

ثم ضرب مثل التفاحة قائلاً:

- العلم يقول لنا لماذا التفاحة مفيدة؟ والخيال يقول لنا لماذا هي

لذيذة ولذتها المميزة عن سواها تريدنا؟

وشاركه آخر:

- قد يُشبه لنا رجلين، أما طعم الموز وطعم التفاح فلا شبهة بينهما!

- الحواس تنبهنا إلى لذة التفاحة المنسية!

- أو لذة الخيال الذى يحول عناصر التفاحة إلى معنى من بدائه

الكون مستحيل اختلاطه بغيره!

- أو لذة الكائن الناقص المتجرد للكمال!

ويدهشهم محروس من وراء الطبلية قائلاً:

- والعناصر تتحول في المعمل لا أشعر بقيود المدرسة، هناك دائماً معنى من تحول الكبريت إلى نار، والنار إلى دخان، والدخان إلى شيء آخر ننتظر حدوثه؟

وكأنما فتح لهم شعوره باباً ظاهره فيه الرحمة، وفي باطنه لذة الكشف؛ فكافأه معلمه بنظرة الإعجاب وإيماءة التسليم، وقال:

- إرادة التحول هذه هي "جذبة الخيال" إلى صورة النار وصورة الدخان ومن ثم إلى غير المحدود؟

- أو إلى ما كانت حدوده وحدة، كوحدة الكون وجوهر الروح!

- الكمال كل يوم هو في شأن؟

وتبدل الإعجاب في نظره سؤالاً:

- أليس الدخان أذى للحواس في حين أنه معنى وإرادة في الخيال والبدية؟!؟

ويتبدل السؤال في نظره عطفة ويقول له:

- لا يكفي القعود للمذاكرة ولا بد من خيال يجذبك إلى طموح النجاح واستقلاله، وإلى بديهة تجمع شتات المعرفة، أو تحد من غلواء العلم!

جذب الخيال محروساً إلى استقلال النجاح وطموحه، واستأنف معالجة تعسره في حل مسائل الحساب. انحنى على الكراسية وفروض المسألة الرياضية تسبح مع نقرات القلم في مجرة من النقاط المنضغطة، والمطوقة بالسنة من غبار خياله الكوني.. وما درى إلا والأعداد تصفو خطواتها، وتنظم نتائجها، فطفق يقيدوها بين السطور أو خيوط جاذبيتها غير مصدق أن للأعداد خيال كخيال الطائر الأسود، والبومة البيضاء، والمرتفعات، وبرج المراقبة، وأيضاً خيال الشمس.

فرغ من حل المسألة وقد أدهشه استتار العدد (واحد) بنتيجتها، وتكراره ثلاثا كأنه شبح فشله، أو قرينه الثالث الذي "خواه" طوال العام الدراسي، فيما كان ينحدر بدرجات التقييم من خمس، إلى أربع، إلى ثلاث، إلى اثنتين، ويتجمده عند قمة الواحد؛ واساه معلمه مواساة كالتهنئة أو كعشرة الفضيلة التي لا ينقطع رجاؤها. قال له:

- لا تحزن الواحد أكمل الأعداد، وما عاداه يفتقر إلى غيره فنحن نقول: واحد وواحد يساويان اثنين، ولا نقول: نصف ونصف يساويان واحدًا، إلا تجاوزا!

وفيما كان هلال رمضان يحتفى به ما لا يحصى من نجوم تومض في سماء السطح ومضات فيوضَة تونس الوليد المنتظر اكتماله باكتمال إرادة الصائمين؛ فتح كراسي الحساب للهلال المعقوف كراهب يؤم فيوضات الروح في صلاة يريد بها الواحد القهار؛ وإذا بصك الواحد المستغنى عن الغفران وتقييم المدرسة قد صكه المدرس، وذيله بتحذير إلى ولى الأمر بسرعة الحضور. طوي الكراسي على الطبلية ورفع رأسه للهلال يسأله: "كم هلال في السماوات؟"

أرهبه نور الخشوع المتبتل المعقوف، والمستحيل تعدد صفائه. أخفض رأسه على تبسم معلمه الموشى بما يصف به استغراقه ذا الريشة والبطحة؛ أي تفردته المتهم في غير حريرة، وراق لبعضهم أن يُشركه في موضوع الندوة فناداه:

- يا صديقي محروس! أي أنواع الصيام تحب؟
قال:

- الصيام الذى يجعلك لا تفطر وأنت وحدك!
احتفت به أمارات الإعجاب، وداعبه معلمه ناظرا إلى كراسي الحساب كأنما قد اطلع على الواحد الجديد من درجات التقييم

المدرسي، وقال يؤازره بمواساة عشرة الفضيلة:

- وكذلك لا تنقضي فوائد الواحد!

بصمت أصابع محروس العشر على الكراسية، وسألهم سؤاله لنفسه
قبل أن يشرد في مولد الهلال:

- أو هناك صيام لإرضاء الأرواح؟

أجابه من كان يتحدث عن أنواع الصيام:

- نعم، كان أجددنا يرضون أرواح أسلافهم في أحلامهم بالصيام،
ولازلنا نحن نرضيهم في المقابر بفطير الرحمة!

- وثمة صيام لإبعاد الشياطين!

ثم توحد خياله بالفتيات الكواعب من قبائل الأمريكتين اللاتي
يُحبسن في الأكواخ، ويحجن عن النور لأن روحا من الآلهة غيورا
تستولى عليهن!

تساءل آخر:

- هل يُعد البيات الشتوي لبعض الحيوانات نوعا من الصيام؟

- ولم لا؟ وسيان أن نسمى البيات قدرة يلجأ إليها الحيوان، أو

نسميه صياما فلكليهما نصيب من إرادة الحياة!.

ولما اكتمل هلال رمضان باكتمال إرادة الصائمين كان نصيبه من
صكوك الواحد المستغنى عن غفران المدرسة ما يقرب من ثلاثين صكا
مزيلا بتحذيرات سرعة الحضور من ولي الأمر. لم يُفوت محروس يوم
جمعة إلا وهو يقترح على معلمه، أن يرسل كراسية الحساب إلى
المدرس؛ لكي يكمل له إرادة الواحد كما تكتمل إرادة الصائمين؛ فكان
يعارض اقتراحه كل جمعة معارضة جديدة. كأن يقول له ضاحكاً:

- هو الذي يحتاج إلى إرادة الواحد!

وفي الجمعة التالية يقول:

- واحدك رياضة خيال، وواحد رياضة بطن!
وفي التالية يُزيل إحدى تحذيرات حضور ولي الأمر، ويكتب إليه
قائلاً: سوف نخضر إليكم فوراً ما أن ينتهي عن تحذيراته الواحد
الجوعان في مدرستكم!

يقصد الجوعان إلى الدروس الخصوصية. وفي الجمعة الأخيرة من
رمضان سلى صيام محروس وصيام الندوة مقارناً بين رياضة الأعداد
وررياضة الصيام، ثم شرح حكمة الأعداد، وعموم موسيقاها
وهارمونيتهما عند فيثاغورث؛ وهو من الصوامين المتوحدين، ثم تصرف
في فقرة من كتاب "الله" للأستاذ العقاد، وأفهمه:

"إن الأصل في الأشياء أنها أعداد أو نعمات، وكلها حالة في
الواحد، والواحد يحل فيها! وأنت يلازمك العدد، أو النعمة في دورات
أبدية في حين ينفصل عنك لونك، وحجمك، وكثافتك، بل وروحك
أيضاً، فقد تنسخ طيراً أسود، أو طيراً أبيض!"
يقصد الطائر قراقوش، وبومة أم وجيدة.

أما مدرس الحساب فقد ألهم السخرية وصقيع طابور الصباح يُوسن
محروسا في بياته الشتوي، ولكنه انتبه على تحية المدرس التي تناقلتها
الألسن باستخفاف كاستخفاف الإشاعة بالحقيقة. ثبت عينيه عليه من
مقدمة الطابور، وأقبل يقول بوجه جامع لكلفة العبوس والتهليل:

- أهلاً.. أهلاً بالتلميذ.. واحد.. عبد الواحد.. الرقيق!
يقصد الرق لا الرقة، وقد فصل الكلمات بفواصل وثيدة؛ أملت
لكيد الاستخفاف بلقبه أن يسلب كل كلمة حيائها، واستقلال
شعورها. ويشحذ ألسن زملائه؛ ففصلوا النداءات بنفس السخر
المتقطع، والمتهافت من قوارع الطوابير:
- يا ولد يا رقيق!

- والنبي رقتك ما هي على حد!

- يا واحد!

- يا عبد الواحد!

- يا عبد الفصل!

- يا عبده المحروس!

- يا عم عب... بوه

- يا دو... دو

- ياهوو...

وقد أثر التضاحك معهم في الحصص، والطوابير، و"المرواح" حتى اكتملت عاطفة الاستخفاف في نفسه خيالا؛ قد اشتد به جناحا الطائر الأسود فما تقيب هجرة، وما تقيب أن يعود بأخبار ثورات الرقيق، وعبيد الشرق حيث حكومة شمسها رمز النور والحرية.

كان ينصب أخشاب الصلبان على سور السطح ويُمهَرها بأسماء قادة الثورات: سبارتاكوس، وأونس، والخبيث الزنجي، وثورة التلميذ الأسود في الولايات الأمريكية بقيادة الشهيد مارتن لوثر، وذكر عبد ملك الذي أنقذ حياة النبي أرميا، والكوشي جد اليهودي الذي جاء ذكره في الإصحاح السادس والثلاثين..، وكما أعمل معلمه ريشته في خياله بكلام "كليوس" ربة التاريخ، فقد أعملها في وعيه وكتب له مشهدا في كراسة "شذور الخيال" افتتحه بظهور بمباي^(١) قبل عبادة شرقية سوداء ترسل طرفيها صوبه قاصدة طيَّه في غورها؛ فتقهقر.. وند صوته يصد خطرها:

- أنا بمباي فخر روما!

(١) بمباي: الذي قضى على ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس.

فيطالعه وجه من زيق العباءة:

- وأنا سبارتاكوس بشارة سقوطها!

مبای مزريا بالمفاجأة:

- أنت؟! ألم تأكل الطير رأسك؟

سبارتاكوس مطم-ئنا إلي الطير:

- بل الطير حرستها كما ترى!

مبای:

- أنت شبح حقود!

سبارتاكوس:

- وأنت حقد مُترف!

مبای مزهوا:

- وماذا تريد من مبای؟

سبارتاكوس واثقا:

- أن نتعرض معا لرعد السماء!

مبای مستخفا:

- وأين هي السماء التي تظلك أيها العبد الأبق؟

سبارتاكوس مرسلا هامته إلى عنان السماء:

- هي بعينها ما سوف يأتيك رعداها!

ثم يختفي الاثنان ولمعة برق تُظهر في السماء إكليل روما معلقا على خشبة مصلب.

سألته أمه وهو مستلق في فراشه يقرأ المشهد، ويعيد قراءته:

- ما هذه الكراسية التي أنت لها ساهر؟

تململ قائلا:

- إنها كراسية جذبة النجاح!

فأومأت برأسها إيماءات متراخية تملأ له وقالت:

- جذبة النجاح أم مجاذيب السطح؟

وتأثرت بجديته، وتملله مؤولة الجذبة مجددا:

- وإن شاء الله سوف تمتحن امتحان الشهادة الابتدائية مع مجاذيب

الشوارع؟

ليلتها أناه المنام بوعي حلم؛ فرأى زملاءه في دروع الحديد تصهرهم
الشمس وقد أووا إلى جثمان طاهر يحمل صدره صخرة، يعلو وينخفض
بها مرددا:

"أحد... أحد..."

ثم تلاشى ترديد الحلم في أثر حلم؛ أنطرح فيه مثل الجثمان
وصدره يعلو ويهبط بحقية المدرسة مرددا:
"أحد... أحد...".

مدرس الكيمياء اكتشف قانون الخيال وجاذبيته، ولم يُماري معلم الكتاب في أن البدائه لها طفرات لا تباغت العقول الكبيرة، مباغتة الارتجال والغفلة، وإنما هي مباغتة التوقد ويقظة الحب من أول نظرة!

أو هي طفرة البديهة التي تلهم العقول أسرار الكون ووحيه، وهي على لذة من الفكر كلذة الثملان والنشوة السارية في أعصابه تفاجئه بنفسها في دورة من الحنين إلى الرشفة الأولى المفعمة بفحوى السكر، وضرب له مثل التفاحة ولحظة سقوطها:

"فتلك اللحظة ليست داهمة كما قد يعتقد، بل هي الدورة الأخيرة للذة قبيل أن يفيق الثملان - يقصد نيوتن - من نشوة الجاذبية السارية في أعصابه؛ مذ ارتشفت بديهته رشفة القانون كله التي تغنى عن سائر الكأس. البدائه تضع البذور والفكر يحصد، ولا بد لنشوة الثمار وإن تكن في طي الغيب من أن تسرى في روع الزارع المنتظر!".

ثم غادر مدرس الكيمياء الندوة وهو يردد ما استهلته به أمسيته. شعر العقاد:

والعقل من نسل الحياة وإنما
قد شاب وهي صغيرة تتزين
مادام في الكون ركن في الحياة يرى
ففي صحائفه للشعر ديوان

فلاحقه معلم الكتاب:

- أو في صحائفه للخيال ديوان.

فلا غرو أن يُغلق عقل محروس دون الفروض العقلية لمسألة الحساب الثانية، ولم تسلس له أيا من خطواتها؛ فأخذ بالبرجل يرشقه في الطليبة، ولكن ظلال الذاكرة عُقف في وميضها هلال رمضان على مدرس الحساب وهو يصك الكراسة؛ ويرسل زوجه بها سرا إلى أمه.

وقبل أن تصل إلى بيتها حملت أمه الكراسية وأتت بها الفصل، وبهدوءه
اللاهث أخرجه على السبورة، وقد خط مسألة وطلب منه الحل؟. ثم
أزالتها، وخط الثانية وأزالتها، وخط الثالثة ولم يزلها، ثم أوسع ما بين
ذراعيه لأمه كأنما يتبرأ من دنس بلادته وعته بلاهته، أو يخلو بينها
وبينه، أو يمزق وشائجه بالفصل، إلا وشيجة قلبه "سوسن" زميلته المحتل
مقعدها أول المقاعد من السبورة حتى أنه قد سمع شهيق أنفاسها
الأسيفة.

ترك محروسا ساهما عيبا إزاء المسألة القاهرة، وطباشيرها البنفسجي
الضارب إلى سواد يشبه تراب "كيم" اسم مصر القديم. بمعنى الأرض
السوداء ومنها أخذ اليونان كلمة الكيمياء كما قال مدرس الكيمياء.

كانت السبورة مُنقَلَبَ هاوية يشهق بأنفاس أمه وظلمات عينيها.
تمثل تلك النظرة في مآقيها تقوم قيامة العلم، ويُنصب لأربابه الميزان،
وينفخ فيثاغورث في سوره المشيد؛ لتنبعث الأعداد من أجداثها، ثم
يشهد الواحد على نفسه بأنه البحر المسجور. والاثنتان بأنها النفخة
الثانية، والثلاثة بأنها البداية والوسط والنهاية، والأربعة بأنها مصادفة
الحروف الأربعة في زيوس، والله، وجوف، ويهوا، وديفا، وديو،
وجوت، و لورد. والخمسة القارات الخمس، والستة موسيقى الكون
وسر أسرارها، والسبعة عجائب الدنيا وخطاياها، والثمانية جبل
الجودي، والتسعة مُثل الكائنات، والعشرة بأنها أمه.

ناولته الكراسية عيبة صموتة وانصرفت من لحظتها تاركة محروسا
ودقات قلبه تخبط ولا تصعد، ولكنه تزلزل وسوسن تنهض من تلقاء
قلبها إلى السبورة مُزيلة المسألة تماما، ومطهرة قلبه من ضررها القهار
وترايه الأسود وعلمه الذي يستعان عليه بالأرواح الشريرة!
رجع من المدرسة يلتمس جدته في البلكونة، فوجدها تتشمس

وتنقى العدس. أسقط الحقيبة إلى قدميه؛ فرفعت رأسها من المصفاة
وبنات شفتيها كبنات الماء يهتدين بهدى الفراسة، وصمود الخيال، و
نفخن في منقلب السبورة لينبعث طائرهما الأسود، ويجوب صراط
حافتيها: حافة الميلاد، وحافة المهجرة، ثم ضم جناحيه على سوسن إذ
تزيل المسألة القاهرة وطباشيرها البنفسجي الأسود.

سمع جدته تقول ونظرهما تواسيه كأنها رجاء فشله:

- امرأته كانت هنا.

- من؟

- مدرس الحساب!

- لم؟

- اتفقنا معها على الدرس.

حمل الحقيبة ليدور بها خياله في غباره الكوني، ثم قذفها في منقلب
الهاوية.. سألتها ونظرهما تواسيه كرجاء فشله:

- أين ستأخذ الدرس؟

قال باطنه: استدراجه إلى السطح وتوحيده بلذة التفاحة فضيلة
كفضيلة فشله. وربما رأى خيال بطنه التفاحة في مجرة الطبلية حمراء
ككوكب المريخ إله الحرب عند البابليين.

وبسهولة فادحة استدراجه محروس إلى السطح.

استطعم التفاحة بقضمتين لاهتتين، واستهل الدرس بواحدة من
مسائل الطباشير البنفسجي. سودها في الكراسية، وابتهجت نظرتة على
معنيين ساذجين: معنى يكيد بلادته، ومعنى يتصاغر لمنّها. قال:

- هذه المسألة هي بداية الفرحة للمرأتين!

فقال باطنه: بل هي لعنة الفراعنة لمن نفض غبار قبرها!

تمصص، وقال:

- سْتَفْرِحْ مِنْ أَوَّلًا أَمَكْ أَمْ جَدَتِكَ؟
قال باطنه: سأفرح عبيد الشرق.
لهث في قضمتين، وقال:
- أَمَكْ سوف تتعجل شطارتك.
وأدار الكراسة بينهما بذراع كسولة لاهية في القضم. بدأ الشرح؛
فأعاقه مُسائلًا:
- لذة التفاحة أسبق في الوجود أم التفاحة؟
تمصص، وحوقل في التفاحة، وضغطها قائلًا:
- التفاحة طبعًا، فلولاها ما عرفنا اللذة!
بارز لولاه هذه:
- ولولا اللذة ما استطعنا التفاحة!
قضم قضمة ممعنة في التلذذ وهو يقول لنفسه:
- أليست اللذة تحصل بعد القضم؟
صوب أصبعه إلى القضم قائلًا:
- بل القضم يذكرنا بلذة التفاحة المنسية!
تأففت يقول:
- التي تتنبه الآن هي معدتي!
فأبهته بكلام معلمه:
- التفاحة تسرنا وتعلمنا التجرد لسرور الآخرين، فداحتنا في
الأنانية ليست فيما نغتصبه، أو فيما نضن به، وإنما الفداحة في افتقارنا
لمن يسره وجودنا وفكرتنا!
تفل بذور التفاحة بلهات عصبي، وجذب الكراسة إلى حافة الطبلية
وهو يقول:
- خَلْنَا يا محروس في فرحة المرأتين!

لا الطبلية أغنت عن منقلب السبورة ولا السطح أغنى عن الفصل،
وإنما هو شعور الواحد وكبرياؤه، ما ونيًا يترجمان عثرة الفضيلة، أو
عثرة الفشل لحنا فيثاغورثيا:

"أنا دورة الأبد وتناسخ أرواحه".

ورغم عذوبة اللحن، فقد استخفت أمه بأبديته ولاك لسانها لحنا
آخر يناهضه:

"أنت دورة البلادة وعذاب أرواحنا".

ولكن الاستماتة وليدة النار والرماد، ولإرادة التحول جذبة فعلت
الأفاعيل بالمدرس، وقلبت سحريته سخطا، وسخطه شماتة، وشماتته
تواطؤا، وتواطؤه يأسا، ويأسه رمادا جعله؛ يستमित على ثمن الدرس،
بينما استمات محروس في وصمة الكمال وصكوك الواحد المستغني عن
درجات التقييم المدرسي.

قالت أمه للمدرس ووجهه جامع لانفعالات الرماد المستमित ويده
تتدلى إلى ثمن الحصاة:

- اللهم اجعل هذه الفلوس ثمنا أخيرا للواحد الأخير!

واستوضحته ويده تندس بالثمن في جيبه:

- ألم يكن من الأفضل لسمعتك ألا تعطيه درجة أصلا؟!

ثم كالمثوسلة:

- لماذا تصر على إعطائه درجة واحدة؟!

فرل لسانه في اسمه قائلا وهو مزبد جانبي الفم:

- عبد الواحد ابنك لا يعرف من الأعداد غير الواحد!

فتضاحت مدعنة لروح العدد واحد العاقدة للألسن: عقدة الزل،

وعقدة الاستخفاف، وعقدة قلبها، فقد زل قلبها؛ ونادته هي أيضا بلقبه

المُستخف به غير واعية بما نادته؛ حتى نبهها محروس قائلا:

- بقى لك نداءان وتتناسخين مع روح عبد الواحد!
فقلت:

- يقطع سنين عبيد السطح.؟

تشير إلى صلبانهم المنصوبة بسوره، ورهبة المدرس والجيران من مواقعها ونسورها التي أكلت رؤوس الثوار؛ فيما نقله لهم على لسان "كليوس" ويسألونه: ومن كليوس؟ فيشير إلى طائر الوطواط وهو يُعاود المروق بين صلبان السور.

عاود رشق البرجل في الطبلية، ثم رشقه في صورة المسألة؛ لتبدي له ظلال الذاكرة منظرًا فذا صارخا، كأنه قانون الطفو يستبد بأرشميدس، ويسوقه منتشيا عاريا صائحا من حوض الماء إلى حيث الناس:
"يورك.. يورك.." أي وجدتها.. وجدتها.

خلفية المنظر؛ أمه ترسله بصينية مرصعة بكعك العيد إلى بيت مدرس الحساب التالي لـ "عشم" صانع النعوش لعم نحمده. استقبلته زوجته في روب أنيق فواح باسمعة شاكرة ممتنة. ناولها الصينية فاستوقفته قائلة:

- الأستاذ يريدك.

اتبع إشارة ذراعها حتى سطعت الظلال عليه وهو يفترش بلاط الصالة موسعا ما بين رجليه وضاعطا بمفصل يسراه على "ذكر بط" سمين. تركه يتفرج، ثم رفع رأسه قائلاً:

- جدتك توعدتني! إذا ما واطبت أنت على درجتك الواحدة؛ فلن تكون هدية العيد إلا كعكة واحدة، ولكنها وعدتني أن الدرجة بعشر أمثالها من الكعك!

أهّى جولة "التظغيط" ومسح يده في صدر ذكر البط، ودسها في جيب البيجامة الأيمن، وتعثر في إخراجها نافضا جانب البيجامة المهلهل،

ويرفرفه رفرقة قطعة غسيل من هواء أهوج، وفي أثناء ذلك خف مفصل يسراه عن ذكر البط فدرج، واستدار شاخصا بين رجله يلهث، ويمط رقبته مطاً هزازا، ومنتظرا في امتثال عجيب..

انتشل يده من الجيب مُشهرها ورقة منثنية. قال في حزم أقرب إلى الهزل منه إلى التحذير والتخويف:

- إياك! أن يعلم أحد من زملائك بما في هذه الورقة من مسائل مفهوم، حتى جدتك وأمك مفهوم، تحفظ الخطوات والنتائج كما تحفظ أسماء الثوار من العبيد مفهوم!

ومن لقاء نفسه اندرج ذكر البط تحت مفصل الركبة؛ فهيأة لجولة تظغيط، وترك الآخر يتفرج، ويلم بأطواره وهو ساخر، ثم وهو ساخط، ثم وهو شامت، ثم وهو متواطئ معه ومسربا إليه مسائل اختبار الشهر.

كان هو هو في جملة أطواره. هدوء لاهث مستمر، ولعلها عصبية مُنهكة، قوامها انفعال هائم كبخار الماء المتصاعد من إناء يغلي إلى غير غطاء، أو سقف، أو مصير ييشر بمطول المطر أو قوة دافعة.

كان في مجلس طُرب الضحك فيه، أو كما قال عم نحمده:
"كان الضحك كقرين مسطول تائه عن سبب مجيئه إلى الدنيا؛ فراح يعبث بالنعمة والبلاء، ويقف على كاهل الفاسق يتعبد وعلى كاهل العابد يفسق، و لكن أستاذ الأعداد المدرسية تقوقع في بخار انفعاله حتى صاح به أحدهم مشفقا:

- ما بالك يا أستاذ فلان؟

فحفل بذبذبة اسمه في أذنيه بمقدار ما هم برأسه ونكسه؛ فدارت عليه دائرة الأصوات:

- الأستاذ باله ليس معه!

- أنا شفت باله من كذا سنة ماشي لوحده!
- ماشي إلى وراء، أم إلى الأمام؟
- لا وراء ولا أمام كان ماشيا على كيفه!
- إذن العبيط من ينتظر وصول باله!
- يا راجل! اضحك يضحك لك الضحك!
- إنه لا يقدر على الضحك بنفسه!
- إنه ضحوك بالنيابة!
- يا ساتر استر!
- ثم ختم المجلس وعم نجمده يهمس لعشم النجار:
- أتصور، وبعض التصور تصور أن أستاذ الأعداد باله مخروم مثل
- "الكاوتش" يتسرب منه الضحك!
- لما رجع بالصينية فارغة سألت أمه:
- هل وجدت الأستاذ؟
- قال ومنظر افتراشه للبلاط يُلقح خياله بمشهد ينتظر القلم:
- كان "يظغط" ذكر البط!
- فتبادلت وأمها نظرة سرعان ما عصف بتبسمها الضحك، ثم قالت
- الجلدة:

- الرجال لا يفرطون في حقوقهم وواجباتهم كاملة؟
- وبلهجة أربكت ابنتها:
- في بعض الشئون الذكر لا يطعم الذكر إلا لعله؟!

للنكتة القديمة علل خفية لا يصلح لها الضحك العجول.
انفض يأس المدرس رمادا مستمتنا، فتولى شطر المرأتين والغروب
غلالة صفراء. قعد على الكنية بجوار الجدة ناشرا في الهواء ورقة اختبار
الشهر. قال لهما:

- إيكما ما يفعله بكما وب نفسه!

تبادلنا ورقة الاختبار ودهشة التحهم توسع أحداقهما على "ذكر
بط" مرسوم بمهارة، ويمط رقبته إلى السبورة متقاطرا من منقاره طباشير
بنفسجي بالون العلم الأسود؛ يصور فداحة الجهد المسكوب في مناجاة
سواد السبورة؛ بحل خطوة الدرجة الواحدة من مسألة دون سائر
المسائل، وقد رسم الجملة التالية كوعاء لم يتقاطر من الطباشير: "بقية
الحل تأتي لما البط يؤذن: كوكو كوكو". كان المدرس ملهيا في
مشروب كاكاو أحضرته أخته.. استرجعت المرأتان عبارة ابنتهما: "كان
يظغط ذكر البط!" فوق المدرس لبصرهما موقع العلة التي انكشف
مستورها، وتورطت الاثنان في استقصاء أوجه الشبه بينه وبين ذكر
البط، وكأنما خيال ابنتهما قد بعث الفطنة في مخيلتيهما، فما طرفتا عنه
وهو عاكف على الكوب يرتشفه، ويتمزج نكهته، ويمط رقبته وبوزه
في كبرياء مهوش، أو دلة شبع ليست إلا افتقاراً للجوع والتظغط.
تركهما تتفرجان، وتستقصيان، وتديران النظرات في تموش كبريائه
ونظيره في ورقة الإجابة، وكلما مال برقبته وتمزج نكهة الكاكاو،
وهام في غفلة بخارها؛ أغربت بهما لذائذ من الضحك: لذة خاطرة
كعك العيد وغمزها الذى أربك الابنة، ولذة خيال الابن الساخر، ولذة
غفلة المدرس، ولذة الغيظ من فشل الابن المستخف بالنجاح، ولذة
مفاجأة العلة المستورة وغرابة أوجه الشبه "بذكر البط"، ولولا أن
مصيبة الضحك باطنها رحمة؛ لأغربت بهما لذائذه إلى حيث عثرة

الورع؛ أى التحلل من ملل القلوب إلى شراحتها. وكما سيرت المصيبة الإغراب كظلمته، وإذا بالجدّة تخاطب المدرس دامعة، ولعلها قصدت جره إلى لذة الضحك؛ لدرء لذة الإحراج. قالت له مستعطفة:

- لو ترسل معه في الامتحان القادم "ذكر بط" واحدا من بطك الفصيح!

فاستأنفت أمه الضحك ناشرة ورقة الإجابة كما نشرها لهما، وقالت:

- يظهر أن بط الأستاذ مُعْرم بالدرجة الواحدة أيضا!

فأقسم المدرس محصنا بالغفلة:

- والله! لا بطي ولا بط غيري، ولا حتى بط الوزارة بنافع من يتوهم أن صلبان العبيد المنصوبة بأسوار السطح تحرس صخرة سيدنا بلال!

قالت أمه مُستفزة وقد أوشك لسانها أن يبدل كلمة بكلمة:

- ما المصيبة في "بط" الوزارة وليس في تلاميذها!

فألهمته عن نرفرتها رشقة لهثت في نصف الكوب الفارغ؛ حتى أهاجت زفير منخريه المحبوس، وتشاءبت ساحبة تصور مصيرها الهائم وهو يزدرد الكاكاو، ثم قال غير عابئ باطلاعهما على تواطئه معه:

- إني أسلمته مسائل الاختبار مسألة.. مسألة!

وسأله:

- أين المسائل؟ أين الخطوات؟ أين النتائج؟

فتبسم لجدته تبسما يقول: كل أولئك في منقار ذكر البط المتقاطر بالطباشير البنفسجي!

وتدوم الغفلة كأنها خطايا الدنيا السبع!
فما ينى يراجع معه على الطلبة مسألة بعينها، ويستظهره خطواتها
ونتائجها، ثم يسخو عليه بالتواطؤ قائلا:
- هذه مسألة الغد المشهود!
وخنس المسألة بسن القلم يقول:
- سوف تُسأل في هذه أمام زملائك غدا!
ويخدعه:
- سوف أرد لك الاعتبار أمامهم!
يقصد سوف أجلبهم جلب العبيد إلى ساحة الدرس؛ حين يرون
بلادتك المتندرين بها وأنا أصيرها شطارة يتندرون بها، ويستمر لاهثا:
- سوف أمحو من أذهانهم كل آثار المرات التي أخرجتك فيها إلى
السبورة!

ثم ناداه نداء جدته:
- هيا أيها الطائر قراقوش! سلسل لمدرسك الخطوات ونتائجها!
فيستظهرها له استظهار الثعابين الصماء لما ييشه مزار الهندي..
وجاء الغد المشهود؛ فأخرجه إلى السبورة، وبنفس الطباشير
البنفسجي خط "مسألة التواطؤ" والتزم ميمنتها مائل الرقبة والجذع
بحيث يلتقيان على خط مستقيم مائل قليل إلى السبورة، وتهوش كبرياؤه
في ثقة هي بعينها الغفلة المستعاذ منها. طال سهوم محروس.. فشجعه
بدبة من حذائه، وتزويم يخرج من أنفه. لو سأله فيم أنت ساهم؟ ربما
داهنه، وحل له المسألة، ولكن حذائه استمر يلهث ويدب، وأنفه
يزوم، ويهمهم؛ حتى تمهله محروس بنظرة الخبيث المخادع، وتناول
رأسه إلى منقلب السبورة، فإذا به مرعى خيال قد انبعث طائره من
لواقح السديم إلى زيتونة الميلاد وأشجارها المباركة ممتدة على نهر يجرى

تمهد المسيح إلى حيث يلتقى بقافلة المهاجرين..

خمد الديب وانقطع الزوم المهمم، وسمع همسا يلهث، ويشجعه من طرف خفي:

- هيا أيها الطائر قراقوش! أين خطوات الأمس ونتائجها؟ أين استظهارها العبقري؟

أمسك بقطعة الطباشير، ومد ذراعه إلى منقلب السبورة؛ فراوغه "ذكر البط" كما رسمه في ورقة الإجابة ماطاً رقبته متناجياً بحل خطوة الدرجة الواحدة، وما أن تقاطر من منقاره الطباشير البنفسجي؛ انجلى هبأؤه عن محروس وهو يخط خطوة المناجاة برقه كركة العبيد، كاد يذعن لها، ويكمل حل المسألة، فأخذته إثم العزة بذل المدرس حتى شيب سهومه المستमित، وبار بهمسه الخفي.

برمق الهمس الأخير صرفه عن السبورة وهو يغتابه من خلفه رافعا إصبع السبابة لزملائه؛ ففعلوا مثله واغتابوه من أمامه رافعين سباباتهم كالمسلات، ثم هالكوا على كلمة الاعتبار، أو كلمة الحي الذي لا يموت:

"وحدوه"

فصدرت من حناجرهم ساخرة متراسلة في بث جنائزي؛ يستهدف مقبرة فرعون مات من آلاف السنين على التوحيد..، كان طلوعه على السبورة معجزة للفصل ورب الفصل؛ أليس هو نعش الميت الذي تجدد شعائر جنازته إلى أجل غير مسمى، أو أجل من دورة خياله الأبدية؟

سأله مفتش الحساب:

- ما اسمك؟

قال باطنه: أنا أختاتون!

وقال ظاهره والمدرس غافل عن صلبان العبيد الحارسة لسيد
الصخرة:

- أنا بلال بن بلال!

استبدت به الذاكرة وقد أوقف السخر ظلالها؛ فهان عليه فشله
المتجدد في معالجة مسائل الحساب، وفروضها العقلية الصارمة، ما لم
يوحدها الخيال طفرة بالعقل الكلي، أو عاطفة الكون التي تجعل من
الواحد شعور الكل، وإرادته، و مصيره. ولعلها كانت سوية للخلاص
نازل فيها نفسه المخدرة بلذة الفشل المتهوي على درك من لذة الفشل
وقعره؛ كأنها لذة النجاح، ولكن للذات عناد وضلال وطفرة من
الصحو؛ أعز ما في صحوها استبداده المثالي بنفسه. وقد كتب في إحدى
كراسات شذور الخيال بعد أعوام طوال من رياضة النفس، ورياضة
الخيال يقول:

"معظم الأخلاق استبداد مثالي بالنفس ونواقصها، وكذا معظم
السخرية العطوفة استبداد مثالي بغرور الإنسان وخطاياها!"

أدخل عم نحمده الفنان المصور إلى الممر المبطن بالفسيفساء أسفل بيته، ومنه إلى الفسقية. جلسا على رخامها، وكإنسان تاجر الجمال فيه يتضاءل للحنوتى؛ ألف الفنان عشرة عم نحمده، ويصفه: "إنه يرغد في كل شيء إلا قصره. يبدو كالوقوف إن لم يتوارثه أهل الذكر والمعدمون حرب!"

ويلتحد بنفسه قال لي:

- لو كان أبو الهول صامتا ما بقى إلى الآن!

قلت:

- لو كنت أنت حانوتيا ينتفع بالموت ما بقى الموت إلى الآن!

هكذا بدا لأهل الذكر والمعدمين - وقفنا موروثا - أو كما بدا

لنفسه:

"أنا موقوف على الأموات!"

ويقفه ويقول:

"خادم الأموات سيدهم حيث لا سيد إلا القهار!"

كان يُخبرهم وهم أحياء في أقمشة الكفن والعمود، ويراجعهم في مقاسات النعوش، وأغلبهم من قاطني ممر بوابة المتولي وأنحاء الأضرحة والمقامات وحلقات الذكر وأبراج السور..

قال له "عبادي" قاطن مسجد الملك الصالح في انتظار عودة الملك:

- كنت في الميتة الأولى (يقصد النوم) أمشى بقبقاب قعقعنى ضجيجهم كأنما يشدني إلى الوراء؛ فالتفت إلى طقطقته، وقعقة حرربه لأجد القبقاب خلفي قضابي قطار. أرجعت رأسي إلى الطريق فكان كله مفروشا بزجاج شفاف يُنكرُ لي الماء وعيون الأسماك. كانت كلها تخيفني بنظراتها، وهجمت على صفاء الزجاج سمكة تسألني:

- إلى أين يا عبادي؟

فقلت لها:

- القبقاب كبير علىّ ونحمده سيقصره لي!
فأشارت إلى ملكة سبأ باب دكانك وهي تكشف عن ساقها،
وتقول:

- نحمده ينتظرك في حمام الدرب الأحمر!

قال عم نحمده:

- لم أنتظر عبادي داخل الحمام كما سمع من ملكة سبأ، وإنما هو
الذى انتظرني وروحه تفيض بين يدي "المالطي" الكياس، وأوصاه:
- والنبي، والنبي يا مالطي، قل لنحمده يقصر النعش بقدر عبادي،
ويعطره بالعطور التي اخترتها لأن ملكة سبأ ستشاهدني من صرح
القوارير!

وخال الفنان عم نحمده صانعا لقدره، كما صنعه أبأوه، وسماه
حانوتي الموت وليس الأموات. فهو سليل تجار جمال لم يسكنوا البيوت
والحجرات، وإنما أورا إلى خيام خارج سور القاهرة، وبذلك توسطوا
الثبات والغير، و صيرورة الصحراء ودول الحكام، حيث يلوح لهم
الموت في ظعن دائم ورحال، وطالما قُذفت عليهم جثامينه من السور، أو
خرجت عليهم من البوابة وهي على الكارو منضودة عطنة متهرئة،
وقد تأتيهم ريحها من غيل الصحراء وكهوف المقطم، أو تدلهم الجمال
على سوءات أصحابها بالعراء، والوحيد الذى تحدث إلى الجثامين وهي
حياة ترزق عم نحمده. قال مُجملا عمل الموت للفنان:

- الموت اختار الفنانين ليواروا جثمانه غير الفاني!

كان يشعر من نفسه الهوان تلقاء من مات، وكثيرا ما أخرجته أهالي
المتوفين فيقول لهم:

"أنا وقفهم في الآخرة وهم وقفى في الدنيا!".

أعلن له الفنان عن أمنيته وهو يجالسه في ممر الفسيفساء:

- لو قدر لي أن أسمع ميتا في قبره "قفشاتك"!

فما عثم أن قال:

- سيقدر أنك خدمته في ميتة، وينهض مخليا لك مكانه لتضحك

على راحتك!

وتركه يأخذ راحته في الضحك، ثم سأله:

- وأنت ما تظنه فاعلا؟

قال الفنان:

- من مات ظمآن لا ينسى العطش!

- وهل ينفعه الماء؟

- من الحكمة أن يقوم الإنسان من ظمأ إلى ظمأ!

فقال عم نحمده:

- أليس من الحكمة أن يقوم الإنسان من ارتواء إلى ارتواء؟

قال:

- وليكن ظمأ الارتواء يا عم نحمده، فرما احتاج الكمال لمن

يعرفه؟

ورسم وجه عم نحمده في إطار من خرز مسبحة، وقد لاحظ هو

نفسه أن الملامح غير مستقرة سيما الشفاه والأنف، وعلى حد تعبيره:

"كان تناقض الوضوح في ملامحه أطوع للألوان من بساطة الغموض"،

وقد استغرب عم نحمده ذقنه المدبب في اللوحة فقال:

- الحمد لله، سأكون أول من يحفر قبره بذقنه وليس بيده!

وقالت زوجته البدوية مستغربة النظرة النهمة في عينيه:

- مالك جعلته يخلق فينا كأعمى يخيفنا في غير شيء!

ولكى يبرهن له على فراسة زوجته ثبت اللوحة بصدر الدكان؛

ليسمعه مثار التعليقات، أو ينقلها إليه حيث يقضى الساعات في نافذة
بوابة المتولي الشاسعة، ومنها:

- هذه المسبحة لك أم عليك يا نحمده؟

فيقول مستعرضا قصره:

- أنا لى فيها النصف!

- أهى للعرض أم للقبر؟

فيقول:

- هي لمن تعرض لها قبرا!

- أشك إن هذا وجهك يا نحمده!

- هذا ظلي في لون غيري!

يقصد ألوان الفنان. ويُسأل:

- ما هذه يا نحمده؟

فيعلنها حربا على الأنس:

- هذه مسبحة الصالحين من الجان!

وكان عم نحمده يعجب أيما عجب من سرعته في إتمام اللوحات،

بل و من خِفة الخلاص منها، وإهمالها في حوض النافورة. فسر له الفنان
ذلك قائلا:

- أنا كالغروب أمتص عصارة النهار في أقصر وقت. قدر الغروب

أن يُحرم من هنيهة الفرار إلى النفس، كما أوعزت أم وجيدة لأبن
الإنسان!

ويتم لوحة في نافذة البوابة ويسرع إلى الدكان يسأله:

- ما رأيك في ألوانها؟

فينثني عليها بأذنيه ويقول:

- في ألوانك خفوت كأنك واقف في آخر الدنيا مناديا!

ويقهقه، ويقول:

- بل واقف كالغروب في آخر السماء!

ويغيب عم نجمده ساعة، ثم رجع بغداء لهما من البيت، ليجد في يده لوحة صارخة الألوان. رفعها بينهما وسأله سؤال من يفاجئه بإتمامها:

- ما رأيك؟

فسد أذنيه وهو يقول:

- اللون الفاقع كالصوت الزاعق "دوشة"!

ويصارحه بقول زوجته:

- إنها تقول: رسم الجدع ده فيه نعاس ينعس القائمين من النوم!

وقد حياها في الحارة كَهَلَّة سافرة الوجه دون أن يعلم أنها بدوية؛ فرسمها صببة ميساء مبرقة تضرب في صحراء، وهى على التفاتة أبية إلى جمل يضرب بعيدا عنها وفى عينيه ما فى عينها من مثابرة وإباء؛ فانتهزت الأمسية ونزلت إلى ممر الفسيفساء حاملة طبق بسبوسة بيد ولوحتها بالأخرى. قام إليها الفنان، وتناول الطبق متبسما كأنما يشكرها، أو يستطلع رأيها فى اللوحة فأشهرتها قائلة:

- الجمل هو الذى يفارقني أم أنا المفارقة هو؟

قال الفنان:

- لا فراق بينكما، وإنما لقاء دائم دوام الصحراء.

فأشارت باللوحة إلى زوجها قائلة:

- إنه يهددنى بالفراق ويزعم أنك مثل أم وجيدة ترمى "بودع الألوان" وتشوف الغيب!

هنتوا بالضحك حتى قالت البدوية:

- الجمل ده، أنا لا أريده فى اللوحة دى يا ابني!

ثم ولتهما ظهرها قائلة:

- اللوحة عندى فوق، لما ترمى ودعك اطلع وخدها!

وجالسه وهو يُصلح نعشا في منذرة البيت، وإذا به يتوقف عن دق المسمار مصغيا إلى حيلة وهو يبرطم مانعا الأرمد من دخول المنذرة، وقد لج عنادهما ففضه عم نحمده قائلا:

- دعه يا حيلة!

تقدم على الأرمد وهو يؤنبه على طرد "الجنيدى" لهما من القهوة بسببه.. لاحظ عم نحمده كوب الشاي في يده فداعبه:

- وأين شاي الأرمد؟

أشاح مغاضبا ولكنه قه والأرمد يستقر إلى النعش يتشممه، ويسف ريحه بمنخريه، فيلتقط نحمده باعث القه، ويدغدغ جيشان حيلة مستحلفا إياه أن يحكى لضيفيهما ما حدث بالأمس؟ غمس حيلة نظرتة في كوب الشاي غير قادر على النظر إلى الأرمد الغامس وجهه في النعش، وكضحك يستهويه صمت العواصف صمت نحمده؛ حتى تكهن الفنان وقال مغالبا الضحك:

- إما أن يكون حيلة نام في النعش أمس أو الأرمد هو الذي نام

فيه؟

فقال عم نحمده بإيجاء يشجعه على اختيار نحمده:

- لا هذا ولا هذا!

قال:

- لا تقل هذا، وقل لى ما حدث بالأمس؟

بالأمس أدرج هو وحيلة على الكارو النعش بجثة الشيخ سباق محدث الجان، ومخرجه من الأجسام، ثم لبثا ينتظران في المنذرة لعل أحدا من أقاربه يجيئ، ثم أسفر الانتظار عن قدوم ثلاثة رجال كان الشيخ

سباق يجزم أن ثلاثتهم توائم لجان إنجليزي. وإذ سألته سائل:

- كيف يا سباق والثلاثة بينهم حين من الدهر؟!

فيقول متعجبا ومتلعبا بالألفاظ والنسل:

- دهر! أي دهر؟ هذا ظهرك أنت يا هذا وللجان ظهورهم!

يشير إلى الآية الكريمة:

"وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم..".

ويتلقاه عم نحمده حيث ثقفه متلعبا مثله قائلًا:

- لا دهري هو ظهرك، ولا ظهري هو دهرك، ولا دهري

وظهرك جان لسباق!

أسند الثلاثة ظهورهم إلى بيت سباق بحيث يواجهون الأرمدا! ولا يُدرى بما نفثوا فيه حتى نطق بما يُشبهه عزيز جان؟ وقاموا إليه يفعلون مثل ما يفعل سباق حين يخرج الجن من الأنس. حدثوا أذنيه، وتفلوا في منخرينه، وعصبوا عينيه، ومن اليمين والشمال صفعوا صدغيه وفخذه؛ فيما ثنى الأرمدا عريش الكارو وطاح بها إلى الخلف مرتطما بالبيوت والأبواب، ثم طرح النعش؛ فتفصت منه جثة الشيخ سباق فخروا إليها وهي تمسهم بمسها إلى أن صبت عليهم البدوية من الشباك جام الغضب وجام الماء.. وتخطب حيلة:

- هاتهم يا حيلة إلى الماء نطفئ نارهم. اجلد ظهورهم يا حيلة.

اطردهم من الحارة طرد الجان!

وتحذر زوجها:

- لا تقف في وجهه يا نحمده أطلقه عليهم!

وهكذا طردوا طرد الجان..

خلص حيلة حمارة من العريش المنثنى والمنحشر بين دفقي الحارة، ثم أدخل سباق النعش وشال برأسه الضخم إليها؛ فضحكت وأضحكته

ضحكات انسربت من منخريره وديعة ناعمة كألمها نهايات ناهقات نرق
بها حمار لعوب يتصدى لأتان، كما وصفها عم نحمده للفنان، ثم قال:
- لو شاهد سباق ما حدث في الحارة ربما جزم أن الثلاثة توائم
لحمار جانه عفريت مصري معتق وليس إنجليزيا!
غادر الفنان المنذرة وهو ملتحد بنفسه:

- قدر عليك أن يُخرك ضحك الفن لا مُلماته، الألوان ودع
يكشف به الفنان أسرار المهنة، ولكن لا يستطيع أحد أن يرمى رميّه،
أين النقد من نقد نحمده؟ لم يقل لى أنت ذئبي، أو باطني، أو مستقبلي،
أو فوق واقعي، أو عبثي، أو إذمي؟
قلت له:

- البعض يريدني أن أتأنيء بالألوان كما يُتأنيء الطفل بالكلمات!
فقال:

- وهل يكون النقد تأتأة أيضا؟ أم يغالط الناقد نفسه ويغالط
التأتأة؟!

وقهقهه ليقول:

- نقد مثل هذا يلزمه "رضعة" قبل الفن لينام عليها نقادك
المتتأتئين!

هذا الرجل نظر في لوحة سريالي كان يجاورني في نافذة البوابة فلم
يخل عليه بالإلهام، وقال له حين مررنا عليه بالمكان:

- ألهمني أنت الفرجة وألهمك أنا الرسم، ولا تصدق أنك مُلهم
وأنت عاجز عن إلهامي!

ثم قهقهه وقال:

- اصحبه إلى أم وجيدة لعله يرد ما أخذه!
وسرنا إلى نافذ البوابة وأنا أقول لصاحبي السريالي:

- نعم ليس فنانا من لم يرد ما أخذه!
فسألني:

- من هي أم وجيدة؟
فقلت دون تفكير:

- إنها الرامية "بودع النبات" نبات الموت لا الحياة!
في أول لقاء بها سألتها عن الموت؟ فقالت:

- الموت ثمرة الذكرى والتذكرة، من فاته الوفاء لهما نصبت ثماره
والثمار غير مقطوعة ولا ممنوعة!

تقصّد ثمار الجنة. قال لها:
- وفراق الأحبة؟
قالت:

- غصة تكربُ من انقطع وفاؤه!

ثم غادرنا الحجر الصوان وأنا أقول له:

- إنها تفرق من الموت لأنه فصام كلمح البصر عن الرب، أو
انقباض روح صاعدة لباريها، فما نباتها المتوترات إلا مناجاة أرواح
صاعدة، وما انتبذها للقرافة إبان الحروب إلا اعتصام بأرواح لا تموت
جزافا كما يموت الإنسان!

فقال السريالي كأنه يعرف أم وجيدة:

- لعل المرأة نباتية؟

- أحسنت، فهي لم تأكل اللحوم قط، ولكن امرأة نحمدته تشيع

عنها أنها "تتوحم" على زواحف القبور إبان الحروب!

- المسكينة! بما تغنيها زواحف القبور؟ والموت نفسه لم يقتل كما

قتلت حربان عالميتان بينهما سنوات هي عمر جيل!

وليلتها لم ينم السريالي حتى أصبح الاثنان بدكان عم نحمدته. جلس

وراء المكتب يقول له:

- جئتك بشيء من ديونك!

وأسلمه لوحة لمعبد تقف بين أعمدته امرأة يتسامى عودها في عباءة
سوداء، وتصعد رقبتها متطلعة لما يجلوه وهج ينفذ إلى بجوحة وادي
مُلقي بها معاول الصخور، ولم يدم إمعان عم نحمده في اللوحة حتى
قال:

- هذه ديونى أنا أم ديون أم وجيدة؟

فقال الفنان على الفور:

- أنت لك فيها النصف!

استطاب الرجل نكتته التي لا يمل ترديدها سخرًا من قصره.

الشيخ حنفي مؤسس كُتاب مسجد أبو حرية كتب قصيدة تصور
وصل حبيته المقطوع بسفينة نوح عليه السلام؛ فهتف به احد المشايخ
وهم جلوس بجوش "الشاهد" يستمعون إلى القصيدة:

- وأنت وأم وجيدة يمانتان المحبة!

يشير إلى يمامتي السفينة. أى إنهما بر العشق ومأمنه للعاشقين
أمثالهم.

وقد سُأل معلم الكتاب:

- ألم تحب أم وجيدة الشيخ حنفي؟

فقال:

- حب أم وجيدة شفاء يُشبه مرض الإنسان. المرض يصيب غيرها
فتبكي من بلائه، وإن أصابها فهو صلاة ووصل وتجلّ يشفق منه جبل
موسى. تعاود المريض وتبكي جواره، ثم تشد أزره قائلة: "الجسد أأتمر
بأمر القيوم وحمل كلماته. والله لو أن الجسد أبى حمل أمانة الكلمة؛ ما
مرض أبداً. ولكنه اللطف والصلاة الموصولة. أنت تذهب إليه خمسة؛
وإذا مرضت يهرول إليك حتى تظن أنك شفيت!"

وكان الشيخ لا يمل عن مراودتها بالزواج، ويعيد على قلبها مجازات
القصيدة وهما متجاوران بالحجر الصوان، وأرائك حوش الشاهد، أو
بستانه حين تنتبذه بالقرافة، ويستشهد بأزواج السفينة الحائرة المتسائلة
عن زوجين بالسفينة يكتمل بهما الأزواج، وسوف يكون زواجهما
ابتهاالا بالنجاة على جبل الجودي!

قالت إحدى اليمامتين:

- أمل حبهما مثل ابتهاال النجاة!

فقال الأخرى:

- إن لم يتزوجا في السفينة؛ فلا أمل في زواجهما!

وكانت "اليمامة" لا تمل التلميح له بأن جبهما ابتلاء واصب، لا تنطفئ جذوته، ولن يسكن ريح أمله، ولا ريح سفينته ما دامت عيون الأرض تتفجر.

وأحيانا يصدق الشيخ قلبه في أن موافقتها على الزواج، لا بد أن تكون إشارة ورمزاً؟ لذلك ما أن أوعزت إليه بفكرة تأسيس الكتاب؛ حسب الفكرة ابتهالاً من أزواج السفينة بالزواج، فأوفى بعهده، ثم سعى إليها يزف النبأ، ويدعوها أن تزيع الستار عن لوح الكتاب؛ فبادرته قائلة:

- آن لك أن تتزوج يا حنفي!

فسألها غير يائس:

- وأنت؟!

قالت مسوفة في غير وحشة:

- لما يجيء الحمل بالشاهد؟

فسكت الشيخ حنفي حيناً عن دعوة الزواج، ولكنه لم يسكت عن دعوتها إلى إلقاء الدروس في المساجد.. فكانت تجيبه:

- إن فرغت من نفسي أفرغ لغيري.

فيذكر لها الشیخة فلانة، وفلانة، وفلانة..

ويؤملها:

- هن السن وهن أنفس، وما ألسنتهن بقدر نفوسهن مثلك. فتناديه معاتبة:

- يا حنفي، إني أخجل من وعظ النساء!

فيصير الصبر الجميل وينقل لها اجتهد معلم الكتاب، أو تلميذ العقاد كما تناديه:

"هي تستحي من الوعظ لإبحارها في لجة ضعفها. القوى الضعيف لا يفتتت^(١) ولكنه يعظ غيره، والضعيف القوى مثل أم وجيدة لا يفتتت ولا يعظ، والضعيف فقط مثل القوى فقط، وعظهما محض رياء وافتأهما محض بغى!".

ويوم خطبت "جنات" أختيها لم يكذب الشيخ قلبه. أستأذنها في الخطبة؛ فاعتذرت له برؤية قد رأت في فلقها جمل "الشاهد" وهو يبرك في بستان القرافة، ولكن الشاهد لم يظهر لها. حدثها، ثم أرتفع المحمل للهِجرة وماد قلبها بميده، وأحست بخفقه يتوقف؛ إذ الهودج تتساقط منه لؤلؤات ثلاث نبت زُهيرات ثلاث ما أن اهتز بها تراب البستان. وهن اللؤلؤات اللاتي ترأين لجنات، وتساقطن من محمل الشاهد إلى نفس التراب ولكن نبتن دوداً!

كرب قلب الشيخ من غير وجهها الصبوح وهي تستأذنه في انتباز بستان "الشاهد" بالقرافة. صاحبها إلى حيث شأت وهو يحدث نفسه: "حجاب جنات دود، وحجاب أم وجيدة زُهيرات. إنما كالقدر تفسيرها لم. نثق فيها ثقتنا في خواتمه، ولا نصبر على تباشيره وتباشيرها. ولوعة الفراق عندها تحجب عنا حقيقة الموت، فهو نبت الذكرى ووصل الإخلاص؛ لذلك يطول مكثها في بستان الشاهد، وتنتبذه في غير الأعياد والمواسم، أو حين تأتمنها الأرواح على سر الموت وقد كُشف عنها حجاب الحياة!".

ويسأله الشيوخ الذين أحبها:

- ألم تتزوج أم وجيدة؟!

فيقول معزيا قلبه في الزواج بحبها:

(١) يفتتت: أي يسطو ويستبد.

- الزواج يحجبها عن المنية ومنابت الذكرى!
لم يسألها عن الزُّهيرات الثلاث ولا الدود الثلاث، ولكنه
عرف بعد زواج "جنات" أنهن بناتهما. مفازة ونهلة وساجدة، وقد
توفيت مفازة ونهلة مع جنينيهما وبينهما عام من "طلق المنية"، أما
ساجدة فقد تزوجها شاب من مدافن الشوام، وهاجر بها.

كانت أم وجيدة وجنات سليلتي صوفي عاصر الحملة الفرنسية، وكان مريدوه يُسمون أنفسهم بالغائبين، ويسمونه "بالشاهد"، إذ كان ديدنه التوسل بالشطرنج الأعظم، والمقام عنده مقام الهجرة، أما نية العودة؛ فركود يفسد صفاء الماء الجاري، ولا يزال مريدوه ينحلون لقبه لذريته خلفاً من بعد خلف، ويرتادون حوش البيت المفتوح قبوه عليّ شعب القرافة الذي أحدثته السيول. ولما تسامعت الصحراء بنياً الحملة الفرنسية؛ عاد الشاهد، وقد فرغ إليه المحاورون بالأزهر، ولكنه تركهم في الحوش وفرغ هو إلى خيول الحملة المربوطة في محراب الجامع العريق، ثم شرب بولها، وخرج إلى مقام الخروج من البوابة المحروقة، ولم يعد ليشاهد الفرنسيين وهم يردمون البوابة؛ إذ أنها كانت مريض الثوار وما حولها لجنود الحملة..

فيمَ شرب الشاهد بول الخيل وخرج؟

وفيمَ تنتبذ حفيدته بستانه بالقرافة إبان الفتن، و الحروب؟ أهو اعتصام بأرواح لا تموت جزافاً كما يموت الإنسان، على وصف الفنان الشاب؟ أم هي الضرورة التاريخية التي أباححت المحظور فأخذ الشاهد برخصته وأعتصم بصفاء الماء الجاري؟

لم يستغرب الفنان ألا يجد صورة لحفيد من أحفاد الشاهد، ولا حتى والد أم وجيدة وجنات الذي توفي هو وأمهما في وباء الكوليرا. وقد كفلهما جدهما الشاهد الأخير المقتدي بالشاهد الأول في الخروج والمقام ونبد العودة. في خروجه الأخير أوصى بالطفلتين الست "كوثر" عمتها غير الشقيقة التي قال عنها عم نحمده:

"هي امتداد وراثي لأم وجيدة. الست كوثر من دراويش القرافة، كما كان جدهما من دراويش الصحراء!"

وتقول عنها أم وجيدة:

الست كوثر أرتني القرافة أعراف^(١) أرواح وبرزخ لقاء، كانت
القرافة أعراف طفولتي، وبرزخ مشيبي!

شببت للعب وهى تفتح قبر الشاهد؛ لترميمه وصيانته بعدما رشح
سقفه ونفذت منه جذور تشبث بجدار حجرة من حجراته حتى
انغrust في تربتها تلتف مؤنثية مقوسة "كملاذ روح!"

وتذكر بدوى الغفير وهو منحني على سلم القبر يحذرهما من مواصلة
القعود خلف الجذور، وقد أخبرها أن الشاهد أحضر نباتها من غار في
الصحراء، وبذره بين الصبار والزهور، وهز بدوى رأسه تحسرا وقال:

- لما سبرت جذور النبات السقف لم تجد جدك!

وتذكر جنات إذ تغافلها وتحتبئ في قوس الجذور

أو "ملاذ الروح" فتأتى باب الحجرة، تناديها وهى على توجس
يصرفها إلى العمال بالحجرتين الأخرتين. سألتهم عنها؛ فعبثوا بحيرتها
وتوجسها مشيرين إلى سحلية مذهب. قالت ساحرة:

- أو تعرف السحلية أين أم وجيدة؟

فقالوا بتهويل أخافها:

- بل هي أختك التي مسخها جني القبر سحلية!

رغم تضاحكهم لم تطرف عينها عن السحلية، ولا غفل بالها عن
الحارس الجني. أخلفتهم مسرعة إلى حوش الست كوثر، ووقفت حيالها
مشتتة مضجرة تقول:

- العمال خبئوا أم وجيدة وزعموا أن الجان مسخها سحلية!

(١) الأعراف: برزخ تجتمع فيه الأرواح، وفي القرآن الكريم سورة تسمى
الأعراف.

فطمأنتها قائلة:

- الجان لا يسكنون القبور. ستجدينها خلف الجذور.

رجعت مسرعة إلى الحجرة ونادت عليها من بابها متهيبية قوس الجذور وكثافتها.. وتجرات متجاوزة الباب، وكصدى لندائها الملول ضربت أم وجيدة ظهرها؛ فاستدارت مرتاعة مبهورة تزجرها:

- أنت مخيفة كسحالي القبور!

أمسكت يدها متوددة ومرددة:

- هذه جذور جدنا، لا تخافي هذه جذوره!

التفتت جنات إلى الجذور فتقهقرت صارخة، وجذبت ذراع أختها فطرحتها في طريق حية تسعى كأنما الحية تقصد طريحة التراب. استصرخت جنات العمال وهي تجذب كتفها و تجرحها حتى رفعها عامل مُهيلا التراب بقدمه على عيني الحية؛ فانحرفت لائذة بالجذور، بينما لاذت جنات بالست كوثر، وفيما تأهب آخر بعتلة احتجزه بدوى الغفير وهو يقول من السلم:

- لا شأن لك بالحية!

ومن خلفه تساءل أبو حيلة عم "دئدش" ولكنته الغليظة:

- أهدم السقف.؟

أجابه بدوى:

- بل هي الحية!

أشاح العامل بالعتلة مستنكراً لا مبالة بدوى وقال:

- ألم ترى ضخامتها؟ يجب قتلها!

وجدت نفسها تقول:

- لا تقتلوها إنها حية جدي!

أيدها بدوى قائلاً:

- قاتلها لن ينجو ولو بعد حين!
كتكت ضحك عم "بدئش" دون أن تكتمل له قهقهة، وتغلب على لكنته؛ ليفشى سر بدوى ويعرف الجميع أنه يزوج الحيات داخل القبور، ثم يبيع صغارها أسفل كوبرى المجاورين، وقهقهه بدوى مثله وقال:

- أنا أبيعها لكى لا تأكلها أنت!

فتأفف عامل:

- يا حال! الحية ستأكلنا نحن!

ثم حسمت الست كوثر شقاقهم، قالت من رأس السلم وفى يدها جنات:

- اتركوها لحالها.

فوجدت أم وجيدة نفسها تقول للعامل المسك بالعتلة:

- اتركها لحالها!

ولم تنقض ساعة حتى سولت جنات نزول القبر؛ والبحث عن الحية وزوجها وصغارها، وشجعته عابرة مرات من قوس الجذور، ولكن جنات لم يرغب عن بالها ضخامة الحية وسعيها الحثيث نحو أختيها؛ فانصرفت من عتبة الحجر، ثم رجعت "بدئش" بحث معهما لحظات استطاب خلالها ملساء التراب؛ فاستلقى على ظهره حيال الجذور، وفى لحظة أخرى خرخر كأن صغار الحية منحشرة فى حلقه. توجستا منه خيفة، وما لبثتا أن تضاحكتا وطافتا حول كيانه الهائل بحماسة تطيش بهما تارة، وتارة تقلبهما على أطرافه وبطنه البجاء^(١)، بينما هو يخرخر فى راحة النوم الأبدية؛ مما جعل العمال يتغامزون بأن الحية فى بطنه

(١) البجاء: الضخمة.

عاجزة عن الخروج بصغارها ؛ فأجفلت جنات، وانزوت خارج الحجرة ومنها إلى الست كوثر، فيما جلست أم وجيدة إلى الكيان الهائل ولحيته الرمادية المنكوشة. خبطت بطنه بكفها الصغير؛ فسكتت الخرخرة^(١)، وما إن هول العمال بموته؛ استجابت لمثير الموت ولذها وحشة البكاء المدخر، ولوعة المنية المتناغمة بغنة الوفاء، وجعلت تذكره بحماره وزوجته والست كوثر، وبكل ما بدا لها أنه يحبه، ثم ذكرته بجدها والمحمل؛ فارتعد كيانه كله، وجهر بكلمات غير مفهومة.؟ وقد أوحى إليها ارتعاده وقيامه وبكاؤه أن الأموات يحيون بالذكرى، ولا عزاء للأحياء بدونها، ومن ساعتها وعت أن القرافة:

"أعراف الأموات وبرزخ ذكراهم".

فكُلفت بزيارتها في مسيس^(٢) ذكرها، ألا وهي الأعياد، وعن لها أن تشتري للأموات ملابس العيد، أي الكفن. قالت للست كوثر قاصدة تذكيرها:

- هل اشتريت لزوجك زى العيد؟

كانت على الكارو تنتظر ركوبها ولأها ألفت مثل هذه الخواطر
قالت:

- الملائكة لا يتركون ميتا بغير ملابس العيد!

فسألتها:

- ومن أين يشتري الملائكة الكفن؟

فغمغمت:

- أي كفن؟

(١) الخرخرة: صوت النائم والمختنق.

(٢) المسيس: شدة الحاجة والاحتياج، ويقال بينهما ماسة أي قرابة قريبة

قالت جنات:

- إنها تريد شراء كفين لأبويننا كل عيد!
قرت بما عين الست كوثر مغتبطة بخواطرها ووفائها وطلبت من
حيلة رفعها إلى ذراعيها، وضمتها قائلة:
- طيب الله ثرى أمك، كانت تعيش بين الأحياء كأهم أموات،
وتعيش بين الأموات كأهم أحياء. الحي تذكره باللقاء الميت والميت
تذكره بالأحياء. فما أصدق عاطفتها ووفاءها، وما أطيبه من قلب عاش
في الدنيا بعطفة الآخرة.

سألتها وهى في صدرها:

- من سيشتري الكفين نحن أم الملائكة؟
أنبتها جنات بنظرهما قائلة:
- قلت لك إن أعياد الأموات ليست كأعيادنا وملابسهم ليست
كملايسنا!

قالت تؤنبها بنظرهما أيضا:

- ومتى هي أيام أعيادهم إن لم تكن أيام أعيادنا؟
فمسحت الست كوثر صدر جنات قائلة:
- جدكما هو جدي يا ست جنات، وسبحانه قابض الأرواح،
فقد استجاب لدعائه حيث يرفع ذراعيه مبتهلا:
"هجرتي إليك مغنم وعودتي إلى دارى غرم".
سمعوا عم "دئدش" يقول بلكنته الغليظة:
- لا أحد غيري ساس له جمل المحمل.
وجاش قائلا:

- كنت سأفتك بلصوص الصحراء، ولكنه خلا بهم ثم عادوا يلبون
لبيك اللهم لبيك!

وارتعد كيانه كله طامحا برأسه الضخم إلى السماء متمثلا المحمل،
وجهرت حنجرتة بالتلبية.. حتى باعد النسيج بين كلماتها، ولم يسمع
منه إلا بثا غليظا؟ مشى بالأرمد قليلا، والتفت إلى الست كوثر
يرجوها:

- هلا طلبت لي من سيدة الدلالة كفنا للعيد القادم؟
ولكن عيده امتد إلى ما بعد عيد الست كوثر. في عام عيدها قالت
لأم وجيدة:
- واحد من مريدي الشاهد يريد خطبتك.
فقالت:

- زوجه جنات!
فلم تقل شيئا ونظرت إليها بما أسترعى قلب أم وجيدة، وإذا بخاطر
يريهها الست كوثر وقد انفسح لها طريق وضئ بين جذور ملاذ الروح
بقبر الشاهد، وهو نفس الملاذ الذي انفسح لجنات ولم تشهد زواج
بناتها الثلاث!

تزينت الحارة لفرح ساجدة..

كاعب^(١) ممنوعة من خواطر القلوب. من اشتهاها احترق، ومن عشقها زينها لعريسها كأب لم يطرق بابه خاطب. وهى الباقية من بنات "جنات" أخت المرأة الصبوح:

"في عمر حمامة فقدت الأحبة. بين مفازة وهلة، طلق مخاض؟"
تقصد التسعة أشهر المنصرمة بين وفاتهما، فكلتاها توفيت مع جنينها في مخاض المنية!

وتذكر "بهية" الداية يوم عقدت العقدة على صرتي الجنينين:
"الداية عقدت العقدة. "عقدة اللقاء" الحياة تفرقنا والمنية تجمعنا..
أطفالي أخذوا أطفالي إلى ذكرى الحياة، وأبقوني وحدي في ذكرى المنية!"

وتجاوبها ساجدة والجنين الثانى على يديها فائض الروح:
"الحياة في أسرنا موت بعده موت. نعم يا أماه، نحن لا نصبر على الفراق فما أسرع لقائنا!"

وارت أم وجيدة الجنينين والأمين في جوف البستان بين جنات والست كوثر، وكفن رمزي للشاهد تجده بتجدد الأعياد؛ ثم تتمايل بغنة السفر:

"سفري دائم بين مائين: ماء الرحم وماء الغسل!"
وما من جنازة شيعتها لجارة، أو صديقة، أو حبيبة؛ إلا وهى تسبقها إلى اللحد، ثم تسويه لها، وتستقبلها في القبر بغنة اللقاء:
"إننى سبتك يا فلانة، اكشفوا عن وجهها حجاب الموت؛ ألا تحبون أن ترى قلوبكم؟"

(١) الكاعب: الفتاة الناهدة الصغيرة.

تقصد أن يفكوا عن وجهها عقال الكفن.

ولم ينس احد ذلك البكاء وهي تكشف الحجاب عن وجوه أطفالها الأربعة، وتصاحبهم تباعا في عام المخاض من بيتها إلى بستان الشاهد. ثم وهي تنزل إلى كفنه الرمزي وجثمان جنات ورفات الست كوثر تسألهم:

- أين تريدون أطفالي؟

وسوت لحدودهم بينهم حتى اكتمل على رملها وجه جنات بدرا. التفتت لجدة محروس قائلة:

- طلع البدر علينا!

وفي كل مرة تبقى معها في القبر وهي تكلمها عن جنازة ينيرها البدر. كانت تتقدمها حاملة كفنا كُشف وجهه عن رضيع بسام تومئ أصابعه إلى نعوش مخضرة، تنبت زُهورات قرت بمن دموعها، وإلها لتسأل الرضيع عن الزُهورات سألها:

- ألا تعرفيني؟

أجابته ويدها على قلبها:

- أنت هو!

فيقول لها:

- ألا أشبه الموت؟

فترسل غنتها:

- أنت هو؟

وتصرف عينيها عنه إلى الزُهورات النابتة على نعوشها؛ فيؤين معها:

- أنت هو، أنت هو..

يسألها الرضيع:

- هل رأيت البدر؟

فتولى وجهها شطر البدر، وفي ضياء معراجـه السماوى تبصر
الرضيع ينضُّ عن جثمانه الكفن؛ ويلقيه فينشر كسحابة تُسدل كاسية
حجرة اليمام.

ونهلة في شهرها الثامن وضعت أم وجيدة يدها على بطنها، وقالت
لها:

- متى ستلديني؟!

ولم تطل عليها الحيرة، وعادت تقول:

- رأيتني في رحمك توأما لابنك!

هتفت نهلة بالشاهد:

- متى تعود يا جداه؟

وسألته:

- أهو ولد يا أمها؟

قالت مغرورة:

- بل، بدر يا بنية!

وفي نهار "الطلق" صعدت بهيمة الداية إلى الدور المتوسط بيت
"الشاهد" حيث تزوجت نهلة بعد زواج مفازة بعامين في الدور الأول،
وقد تأخر حبـلها لاعتلال صحتها مثل أختها وأمه؛ كأنما صلابة المهجرة
قد استترفت سلالـة الشاهد، وأبقت لأم وجيدة ما تنتبذ به الحياة.

دخلت الداية على أم وجيدة؛ فأخـلت لها فراش نهلة، وأوت إلى
الكعبة تتوسد مسندها برأسها، بينما زوم نهلة يئن ويتجسد كجدار
ارتج منقضا، وإذا بها داخل رحمها تلاطم ماءه ولا تصل إلى الجنين أبدا
وهو تؤمها، وفاجأها صـداع النبأة بما في ضمير الطلق. رفعت رأسها عن
المسند وأنين الزوم دمع باك في وجه بهيمة الداية. ألقت نظرة عمياء على
نهلة، وغادرت الحجرة وصداع الطلق يضرب أذنيها وقلبها وقرة عينها.

صعدت بها جدة محروس إلى حجرة اليمام. تعلق بصرها بسجادة
الست كوثر. أتنها تشم ريحها، ولم تجلس حتى سألت صاحبته:

- أمازال البدر في السماء؟

فيخطر لها بدر جنات على رمل اللحدين: لحد مفازة، ولحد
جنينها. أجابتها:

- البدر بدر الله، تفاءلي بنوره خيرا.

- مالى وبلاء الخير؟ ذلك معراج الأنبياء!

ويضرب الصداق قلبها بيد أنها تشتكى انتفاخ بطنها، كأنه الوح
العجيب يميع نفسها "وحم الاعتصام بالأرواح". تأتيتها بطعامها الأثير.
عود النعناع من مصفاة بشباك المرتفعات؛ فتعافه قائلة:

- اليمام اضطرب أمس فوق محمل الشاهد، وتساعد آخذا بصري
حتى رأيت أمتي ترضع جنين نحلة. سألتها:

- من أنت؟

قالت:

- أنا هو!

اكتمل بدر نحلة..

وفي ضيه السماوي مشت أم وجيدة حاملة كفن توأمها الذي لم
تدركه أبداً في ماء الرحم. كان بينها ونعش نحلة المخضر ما كان بينها
ومخاض مفازة:

"حيناً من طلق المنية، أو ندحة من ماء الحياة؛ أحدث دفقتها
سقوطها كحجر صلد يغرق، بحيث لا يرى أبداً ما تتابع من ندحة
السقوط!".

ويتمایل بها الحنان وغنته مُسائلة أمها وهي ترضع رضيع المنية:
"من رمانا في الخاتمة يا أماه؟ بعيدة قرارة الماء، وقرية جدا سكية

التتابع!".

وتنسم عيناها نعش نحلة وستاره الأخضر، ثم نسمت سماء البدر
تناجيه:

"لو تسبقها بالذكرى إني كشفت لك الحجاب؟".

وقر الجنازة على قبر "دوسة" صديقتها المشاكسة التي رملها
زوجها؛ فامتھنت عنه بيع الأفيون. وهى امرأة لبقة مطبوعة على
الفكاهة، وتؤثرها على كآبة الموت ولاسيما داخل سرادقاته، ومضى
حضرت أم وجيدة في سرادق فهى حاضرة تؤنسها، وتشاكسها،
وتضحكها كما تضحك الأهل المكلمين.. سمعت أم وجيدة معزيرة
تسألها:

- ماذا ستفعلين يوم القيامة يا دوسة؟

فقالت لامحة أم وجيدة:

- يوم القيامة زحمة ولا أحد سيعرف أحدا!

وترشد المتحرجات بالضحك:

- ولو عرفني ملاك من الملائكة سأوكل "منيرة" في الدفاع عني!

ومنيرة محامية، "المؤبد على يدها براءة".

ثم داعبت "دوسة" أم وجيدة:

- لوالدينا قللى لى كما أملت لك في البقاء يا أم وجيدة!

فنظرت إليها مليا، ثم تبسّمت قائلة:

- بل الدنيا يا دوسة، أخذت عمري ونخلتني عمر أطفالي!

التفتت منادية على "دوسة" من مقدمة الجنازة:

- يا دوسة، بما أضحكت الموت برجائك في قيامه، أم بأملك في

رقدة الحياة؟

وقد سوت لحد دوسة قبل أيام من ولادة "مفازة"، وبينما هي في

السرادق شاهدة في يقظة الذكرى ونواحيها يمامة تقلب بمنقارها ثلاث
بيضات تكتنف قرص البدر، وما إن ضمت البيض إلى جناحيها حتى
أحالتها ضياء البدر بومة بيضاء، تنظر في هالة كالمرآة فبوغت بوجهها،
ووثبت متصاعدة تضارب بجناحيها هواءً ثقيلاً أنهكها، وتكسر في ثقله
الجناحان، فانقلبت برأسها ككفن موكاً بعقاله يهوى، فيما تفتحت
البيضات الثلاث عن زهيرات تنكأثر متساقطة في ظلال الضياء
السماوي، ثم تتراشق سويقتها في طمي يحف بأمر جيدة. ويسمعا
النسوة تسأل عن البدر؟ فيجبها:

- ها أنت لا تصرفين عينك عنه!

تناحيه:

- يا ليتك بدري!

ثم تنهض مغادرة السرادق مذهولة عن السؤال المتردد:

- إلى أين يا أم وجيدة؟

وتعاتبها ابنة دوسة محاكية غنة نواحيها:

- تاركة أمي إلى أين يا أم وجيدة؟

فتبادلها غنة بغنة:

"إلى ذكرها الباقية يا بنيتي!"

نزلت بجنين المنية وهو مكشوف الوجه، حيث سبقته هلة ووجهها
مكشوف عنه حجاب الموت. سوت لحدهما بيدها، وإذا بها ترى برمله
جنات تُوضئ الشاهد وهما جالسان على رمال زاهية موصولة الأفق.
كانت جنات ترفع يديها تتلقى قطرات البدر، ثم تريقها للشاهد، وما
لبث هو أن أراق القطرات لها، ومسح وجهها ومرفقيها وشعرها. قالت
له:

- هل سقيتي يا أبتاه؟

فرفع كفيه مبتهلاً، ولكن القطرات انفلتت إلى الرمال، وانداحت^(١)
بها كرحم يسبح في مائه رضيع تبسم لها مُسائلاً:

- ألا تعرفيني؟

أمسكت جنات قلبها قائلة:

- أنت هو!

فأوماً بإصبعه إلى البدر!

قال معلم الكتاب:

"الموت لا يفاجأ أم وجيدة بمصيبته؛ فهي كاتمة أسرارها، ولا تعرفه
كخادم كما نعرف نحن الملوك والطغاة.. كل ما يعرفه الموت تعرفه أم
وجيدة. لقد كانت وفاة نحلة ومفازة وطفليهما هتكاً^(٢) لحجاب
الموت!"

وأطال النظر من دكة المطالعات إلى حجرة اليمام، ثم قال:
"هو عمر الحمامة الذي ذكرته، والذي هُتِكَ به حجاب الموت،
وهل للموت حجاب إلا فضاظة القلب؟ إنما نفس طيبة ملموسة
بالأحزان. أوجدها الموت حتى صفَ وجدها له، وكأن الموت متيم في
محراجها! تقول: ما للموت وخراب الجسد؟ الموت يحفظ الجسد لمن حفظ
الوفاء؟".

وسمع غنتها وهي تسوى لحد جنين مفازة؛ فقال:
"دنياها رحم للموت، أو طلق للحياة ولكن بغير مخاض!"
ويقول عم نحمده، واصفا نزول بهية الداية إلى الحوش من حجرة
مفازة:

(١) انداحت: اتسعت دوائر ماءها.

(٢) هتك: أي فضح السر.

"كصفيحة فارغة تفرقع وتعوى وتتقلب على دَرَك الموت، نزلت علينا الداية ورفعت ذيل ثوبها وبه يقع من دماء مفازة، ثم ولولت:

- التزيف أخذ ضنى أم وجيدة!

و تلطم خديها نائحة:

- يا ضنى دنيا خرجوا من الدنيا!

وتنادى على الغائبة:

- تعالى يا أم وجيدة من القرافة لنرجع معا إلى القرافة!

غادرت حوش الشاهد قاصدا بستان الشاهد. فلم يكن من عادتي الصبر على اللولولة، وأحسبها مقلقة لراحة الأموات، ومفسدة لأحزان الأحياء، بل إنني قد كربت بالموت، كأني لم أوقف نفسي عليه، وكأنه لم يجتئني. أنا الذى لبست ثوبه وطرزت أثوابه للأحياء.

فهذا ثوب طفل الموت في وجهه يلهو ولا يكاد يستغرقه اللهو حتى تلمحه وسان في حلم للحياة!

وهذا ثوب شيخ الموت في وجهه نهر يفتت غضون الحياة!

وهذا ثوب فتى الموت في وجهه مُستريح إلى الموت! وأما ثوب مفازة وجنينها فهو "قطرة الرحم" التي ندحت رمال الشاهد في نبأة أم وجيدة؛ فتركت مفازة في مخاض المنية مع زوجها وأسرتة. قالت لى وحيلة يوصلها بالكاره إلى بستان القرافة:

- إن جئتني أخبرني أن مفازة سوف توضحني كما وضأت جنات

الشاهد!

وكحارس للموت جئتها؛ فطالعتني غير الفناء في وجهها، فسقط من يدي سهم النبأة، الذى صنعته هي لنفسها منذ ندحت قطرتها صحراء الشاهد، وأوسعت حلقات مقامها. أغمضت عينيها عن وجهه، وأرسلت غنتها لزهور البستان فأوبن معها، ثم كاشفتني بأن شابا من مدافن الشوام يطلب يد ساجدة!".

صعق تيار الكهرباء الأرمـد الأول؛ فأصمـه^(١) في صمت كصمت
الضوء وسرعته!

وقد كان حادثاً غير مسبوق أن تُشاهد أم وجيدة ذاهبة إلى حمام
"بشتك" بدون الأرمـد؛ وهو الذى أضحكها بنوادره كما تبكيها
الحروب بمبرراتها؟

ومن نوادره معها أن فتیان الميدان انتهبوا غفقى حيلة فوق الكارو،
فحرر بعضهم الأرمـد من العريش، والبعض أجلوا له المرأة الحارسة من
دهليز الحمام، فما توانى أن خرج الأرمـد من تهاويل^(٢) البخار وعبيره
الناضح بزعفران الأجسام فيما دغدغ رمز الطبيعة المنكمش أعصاب
النسوة العاريات؛ فأخذن من غفلة متحللة من عقابيل الحياء، وتخطفن
الأغطية، وتعالى صراخ جمهرة منهن يتساءلن:
- أين ذهب الوليه المفضوحة؟

ولحظة فـلحظة تلاشى الصراخ والوعيد واللوم، ثم غفلت كل ذات
غطاء عن غطاءها، وانزاح ستار الغواية المباغت عن الأرمـد وهو حيال
أم وجيدة مطأطأ^(٣) الرأس في حياء فطري؛ مما أغرى أحدها أن
تستفسر قاصدة إضحاك أم وجيدة. قالت لها مُبرقة بكفها:

- هو الحمار يفهم ما نفهمه الآن يا أم وجيدة؟
فتهانفن^(٤) كلهن بالضحك كأنما يهزأن بالأرمـد، وردت عليها
أخرى متقصعة في مجلسها:

(١) أصمـه: أصابه وقتله.

(٢) التهاويل: خيالات الدخان وأوهامه.

(٣) مطأطأ: منكسر الرأس.

(٤) تهانفن: الإهناف ضحك المستهزئ.

- مالك وما يفهمه الحمار يا قارحة؟
فقالت ثالثة:

- سواء فهم أو لم يفهم، ليس على الحمار حرج!
علت صيحة مغتصبة:

- أخرجن هذا الحمار من هنا!
قالت الثالثة تسمع الصائحة:

- ولم لا تخرج هي؟
فتوعدتها:

- لن يُخرجه أحد إلا أنت.
فداورتها باسمه:

- ولماذا لا يخرج هو من نفسه؟
وسرع صوت مهددا:

- لا أحد يحشر نفسه في رغبة الحمار.
قالت الأولى:

- دعوا ياسمين تسأله عن رغبته المطاعة.

قامت ياسمين متناولة ملاءة حبكتها على جسدها، وتشتت في دلال ملحوظ حتى مالت عليه توشوشه وتطوقه وتناغيه، ثم قالت مُتشكية:
- إنه "مكسوف" من أم وجيدة.

فلغطت التعليقات، وتفاحشت عابثة بحياء الطبيعة ورمزها، ثم ارتاب العبث في فحولة الحمار، وكدن له بيد ياسمين؛ فحبكت الملاءة عليه غير مظهرة سرا منه ولا حياء، ثم تضاحكت عاقصة رأسه بشالها البمبي وقالت:

- هل يشك حيلة في أنه أنا؟

أجابتها من صرخت بإخراج الأرمذ:

- قولى إن عينك من حيلة!
فأظهرت ياسمين مفاتنها لأم وجيدة باستدارة كاملة وهى تقول:

- حسبي من حيلة حياؤه!
فقالت شابة تجلس لصق أم وجيدة:

- ألا تتركن الحمار وحياءه يا ذوات الوجوه المكشوفة!
التفتت إليها ياسمين التفاتة حاسمة واندفعت صوبها مقسمة:

- والله، لن يرفع برقع حيائه إلا أنت يا ذات الأربع!
واستفز هجومها أخريات فتفرقن يحاصرن الشابة ويلاحقنها حيثما
فرت وتحامت واستنجدت، وسرعان ما دغدغ صخب الضحك
وصراعه أعصابهن ولهن منقسمات في الدفاع عنها أو تسليمها الأرمدا..
ولم ينتصف النهار إلا وعم نحمده يجالس أم وجيدة على الحجر
الصوان، ويسترجعان معا ظهيرة الأمس القريب؛ حين أضجر ذباب
الشمس الأرمدا؛ فسرح إلى تجمع من الإوز توافد لتوه من إحدى
الحارات..

بصرت أم وجيدة تمدده للإوز لكي ينظفه ويلتقط الذباب من
قوائمه وبطنه وأذنه، وأصغت لخرخرة حيلة المستلقي بباب الحوش
لشمس الشتاء، حتى لمع شعاعها بنظرهما الممعة فيه، والتفتت تخاطبه
بوسواس النبأة:

- أيام ويكتمل وفاؤك يا حيلة!
فقال عم نحمده يهون عليها وعلى نفسه روع النبأة:
- أو يكتمل حيلة حمارا!

ولكن الروع لازمه حتى شاهد الناس يؤازرون حيلة في إدراج
الأرمدا فوق الكارو، ثم آزره وهو يجر العريش إلى حيث يواريه بـرج
الظفر، وقد تقدم الكارو حاملا الكلوب ابن نحمده الذي تبناه منذ عشر

عليه حيله ببرج الظفر، وسماه بنات جنات "واحدة" وسمته زوجه
"الطاهر".

سألها عم نحمده وهو يغادر الحجر الصوان مسطبة بيتها:

- ما بال نسوة الحمام؟

سرى رواق التيسم في وجهها وقالت:

- يظهر إن الأرمـد لا يدارى عنك شيئاً يا نحمده؟

فقال:

- ما هو الذى بعثنى بهذا السؤال!

تضاحكت واستراحت هنيهة، ثم قالت:

- النسوة روحن عني وأضجـرن الأرمـد، كن كـنـحلات ينغمسن في

شهد الغواية الذى أخرجنه من بطونهن!

بدا لأم وجيدة طيفا مصلوبا لا يكاد يرى على مصلبه؛ فلبثت تعد أيام روحه الأربعين حتى قدم إليها من منفذ الباطنية والظهيرية يعكرها ريح مكفر بالصقيع..

كان بيده لوحتين: لوحة رمز فيها للأرمذ الأول بعريش طمره وسط أناس من عصور مختلفة، والثانية لوحة ليمامة تعبر سورا بُليت أبراجه، وقد أحلفت وراءها قرونا تنتظر شروق الشمس من مغربها، بينما الشمس في كبد الغروب ترسل شعاعها الغارب إلى نظرة اليمامة العازمة على تبليغ رسالة تنوء بحملها، ولكن عنفوان جناحيها يعجل بها إلى أوان مقدور؟

كانت جالسة على الحجر الصوان معصوبة الرأس بطرحة تعقل طرحتها السوداء، وبفوديتها^(١) فصي ليمونة يحويان قرصي أسبرين. طالعتة ونظرهما مثقلة يتحهم فيها الوجد ويرق كاللوعة مغرورة. حياها فردت التحية بصوت بحه الصيام عن الكلام والطعام، و أغمضت عينيها له كما تغمضهما لحيلة؛ فجلس إلى جوارها يقول:

- لعل الأم بخير؟

- الدنيا يصلح حالها بالشر والخير!

- أجل، ولكن رجاء الخير أروح!

فرددت:

- بلاء الشر أروح يا بني بلاؤه أروح!

- أرى الأم بعافية؟

والغنة تتمايل بها:

- شكوى العافية فطرُ للشفاء والأوب؟

(١) فوديتها: جانبي الرأس.

تقصد أن من شكك المرض قانطا قطع وصل الشافي والرجوع إليه..
وهي القائلة:

"أيوب مسه الشيطان بوساوس الشكوى وليس وهن المرض؛ فقد
وجدته ربه صابرا أوابا.."

وتقول للمريض:

"لن تطيق إلا مرضك"

وتترنم بالغنة:

"الإطاقة"^(١) هي الشفاء وليس الصحة والسقم

ربما قصدت بشفاء الإطاقة صفاء الروح بعد كل جهد نبذله في
الصحة والمرض؟ دعا لها الفنان:

- وقيت وشفيت بأمر القيوم

وهامتها الصاعدة تومي:

- طيبه على البابين؟

سرح في معنى البابين ولكنه تذكر الإطاقة والأوب.

قالت تسمعه كلام السيد المسيح:

- "اقرعوا يفتح لكم.. أيها المداوي داو نفسك!"

ثم وهي تبسم:

- عافيتي لن تسعفني لتسوية القهوة لك!

وتبسمت تبسما جديدا وقالت:

- أحسبك لن تطيق عطاس الشوق!

تشير إلى وهن بدنه وانضوائه، وربما إطاقته؟

سره روح التبسم السارية في عافيتها متأملا في وجهها الصبح

(١) الإطاقة: جعل بذل الجهد غاية في ذاته.

خيوط فلق منير، وفي صمتها غير موصولة بصروف الدهر وتقلباته.
التحد بنفسه:

"قدر عليك أن تأنس روحك بروحها وباللمحة نظرتها الحذرة
الراضية ولكن هل الوجه سعيد أم إنه وجه يمامة يجعلنا نحلم بالسعادة؟
لمحة في وجد عينيها تريك الماضي فلما منيرا والمستقبل فجرا حالكا!"
ثم وهو يلمح صيام نظرتها:

"القطار يسير بسرعة الغروب فهل تسمع لقضبانه جلبية؟ قدر عليك
أن تصور مصلبك شجرة أغصانها مآذن ومنازل أجراس".
رفع لها اللوحة فبصرت عين اليمامة وشعاعها الغارب نبأة تطوي
كبد الشمس. بسمت قائلة:

- يمامة "حنفي" لم تتهيب طوفان الأمواج، وبمامتك مرسله بنبأة
كالطوفان!

وأسمعته كلام السيد المسيح:

- "كما في أيام نوح كذلك في أيام ابن الإنسان".

رفع لها اللوحة الأخرى فأبصرت الكارو وسط أناس ملابسهم من
عصور شتى، وبظهره حيلة يرقد على جنبه ورأسه الضخم بين ذراعيه
المنشيتين والضاغطين على أذنيه، كأنه يأبى سماع من حوله، أو يعزل
نفسه في سمر الغفق ونومه الخفيف المنطلق بلسانه في سمر الدنيا وسمر
الأحلام.

سألها الفنان:

- ونوم حيلة وسط أمواج البشر؟

طاوعها ضحك قلبها وقالت:

- حيلة سوف يكتمل وفائه بالذكرى؛ أما أنت فحيث يكون

الوفاء لذكراك تكون رافة القلوب!

فساجلها حبوراً بكلام المسيح المستشهد به والمتصرفه فيه كأنها
أحد تلاميذه وحواريه:

- "حيث يكون الكثر يكون القلب" وأنت قلب الذكرى الخالدة
خلود الوفاء!

ثم أستاذنا منطلقاً إلى دكان عم نحمده.. وقد فتش حيلة اللوحة
وهو جالس بباب الدكان ولم يعثر للأرمد على أثر فتتبع بما فهمه:

- لم أخفيت وجه النائم على الكارو؟

تضحك عم نحمده وراء المكتب ومن أمامه أجابه الفنان:

- أخفيت الوجه لكى يتساءل الناس دائماً عن النائم؟

فتبين تعنته:

- قل لهم أنت إنه حيلة!

وكان عم نحمده أول من اطلع عليها واستوقفته غزارة شعر النائم
وجسمه الناتئ ككومة لحم، وقدماه الحافيتان الغليظتان؛ فأذهل الفنان
بقوله:

- العريش معلق ومنغرس بين الناس كأنهم يحرون الكارو!

قال حفياً بالملاحظة:

- لما وصوص لي العريش في ظلمة الإلهام؛ راقنى ألا أظهره في
اللوحة، ولكن الإلهام لا يعبأ بما يروقنا فغرسه بين الناس وأنا لا أدري
لم غرسه؟

برطم حيلة بما معناه: سأعلقها في إسطليل الشاهد.

قال عم نحمده يُحفزه على القيام:

- أم "الطاهر" تعد لنا غداء أحضره راهب البوابة. بمناسبة حبك

لأسماك الماء والسماء!

يشير إلى تساقط الأسماك مع مطر السماء على حيلة وهو جالس في

نومه الخفيف بالقرافة..

والتفت إلى الفنان المتبسم وقال:

- لقد سألتني البدوية الجدد ده متى ينام؟! وسرحت فيك جنينا، ثم قالت: أحسبه أتعب أمه فأخرجته من بطنها وهو ابن خمسة أشهر ونصف!

تناهض حيلة باللوحه وكلمة "نصف" تثقله بعبال من القهقهة فوق عبال جسده، ولما تحرك قدم عليه الأرمد من الناحية المقابلة، ثم شيعهما الفنان ملتجدا بنفسه:

"نظرة حيلة المتغاضية نظرة يقظة الفطرة، وكل ثمرة على شجرة الفطرة سواء. المخذنة كالمنارة والإنسان كالأرمد معنى من فيض سعيد من يلحمه لمح المثال..".

سمع عم نحمده يقول:

- حيلة والأرمد مبالاة تشبه اللا مبالاة، وحلم يشبه الصرعة! ينهق هذا، ويضحك هذا فلا تشك أن الضحك والنهيق راسخان في الطبيعة رسوخ الجبال!

قام يقول وفي يده فنجان القهوة اليومي:

- الظلمة توَصَّوَصَ لى يا عم نحمده!

- لعله نصيب الأرمد من الإلهام!

- ربما!

- لا تنس إخفاء وجهه!

قال متضحكا:

- هو ذاك وسوف أغرسه وسط من يحكمون العالم في ملابس من

شتى العصور!

- حسبك هذا القرن وأهواله.

سأله باللهجة الإلهام:

- اختر لى لونا أبدأ بظله يا عم نحمده!

بنفس اللهجة سأله:

- ما لون السياسة؟

فقال منطلقا إلى نافذة بوابة المتولي:

- لوها ولون الماء سواء!

أفهم حيلة أم وجيدة أين سيعلق اللوحة. وودت لو سألتها لماذا
إسطلب الشاهد؟ أبقاها على الحجر الصوان، وزاف إلى بيت البدوية
بيت البدوية وحده دون الأرمذ، ثم رجع حاملاً صينية الغداء، ولم يفوته
أن يترها من رأسه إلى أنف الصائمة صيام الأرواح المودعة؛ ريثما
تاستمرئ رائحة السمك الهنيئة بمشاركة قطط البيوت والحارات،
ولكنها استحت متبسمة..

أعاد الصينية إلى مكانها من رأسه لأمحا الأرمذ الممدد للشمس
بجوار الحجر الصوان. تركه، ومشى متثاقلاً يتكودن^(١) بالفرحة
وبالعجب كأنه مدفع إفطار آدمي جرح صيام أم وجيدة النبائي. كان
مائدة آدمية متحركة واكبها في مراحل الطريق زفات من المواء
والتموغ، وأخرى من المزاح والمشاكسات لم تدعه في حاله حتى ولج
الدكان، ودار حول نفسه كأنه فوجئ بعدم وجود الرجلين!

ارتد إلى الباب يتلفت بالصينية، فقدم إليه من ناحية البوابة صبي
"بيدق" بائع الثلج، وخاطبه مستنكراً وقوفه:

- أنت هنا والرسام مات!

قع حيلة في مكانه مغمضاً بصره على حلم حلمه والبدوية تقلى
السمك. فقد رأى أم وجيدة تعتمد ركبتيها بحوش الشاهد بينما الفنان
يناولها الخرشوف؛ فتقطف أوراقه راسمة به مصلباً على التراب.. أكملته
وقالت له:

- الشاهد ينتظرك!

فتبسم لها واستلقى فوق المصلب مُلتحداً بنفسه، ومُسَمِّعاً حيلة في
غفق النوم حيث يسند ظهره باب الحوش:

(١) يتكودن: يتثاقل بلحمه متمايلاً.

"أنت قدرها".

تناهض حيلة بالصينية ومشى قاصدا مرسم النافذة بخطى وثيدة
كأنه يتقهقر إلى أم وجيدة، وقد انقسم باله. قسم فيه وابل السماء يرمه
بالأسماك إذ يرقد في بستان القرافة، وقسم فيه الأرمد الأول والسيد
المسيح يُحيه من صاعق الكهرباء..

صعد سلم النافذة والتفت إلى الجثمان المنضوي كطيف لا يراه،
وسمع نداء عشم النجار يأتيه من خارج البوابة:

يا حيلة، راهب البوابة لن يحمله نعش. هو مصلب الخرشوف
الذي رسمت خضرته أم وجيدة. ضع مائدة سمك السماء لعابري
السيبل، واحضر مصلب الخرشوف على ظهر الأرمد، ولا تحضره على
ظهر الكارو؛ ولكن احذر باطن الأرض يا حيلة!

وجاءه من صحن جامع المؤيد ترتيل صديقه "نبوي" مقرئ القبور:
"وسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً".

كان "نخلة" الصائغ يقول لنحمده:

- إن شئت أخذناه إلى دكاني حتى نعرف أهله؟

فقال:

- الدكان غير مناسب!

وتجنب النظر لعين حيلة وهو يقول له:

- ضع هذه الصينية جانبا واحمل المرحوم إلى مسجد طلائع.

ثم مشى وراء حيلة ومعه الألوان و اللوحة التي سأله من ساعة ظل
إلهامها. فكانت ظلالا لسراب يعتم وصيد البوابة كرتاجين يوشكان أن
يلتقيا، ولا يُدرى أهما يُغلقان أم يُصرعان؟ ويلوح في منفذ السراب
حافرا حمار تتوسطهما خوذة جندي قائم بها أزميل يُصور ذلك النعش
الذي رآه في بيت عم نحمده.

لم يصدق حيلة أنه يحمل شيئاً. سجاه خلف أعمدة البائكة وغنة
أم وجيدة يتجاوب بها صحن المسجد المكشوف:

"الرسام طيف إذا صُلب لا يكاد يرى!"

وفعل ما تفعله مع الأحبة كارها أن يُغطى وجهه بملاءة أرسلوها
إليه، أو يعتقل طيفه في عُقال الكفن. واضطرب بكيانه نواح غنتها:

"اكشف عن وجه حجاب المنية ألا تحب أن يرى قلبك يا حيلة؟!"

ثني حيلة الملاءة ووسدها رأسه مُصدقا أنه نائم. كشف هواء
الصحن قميصه الأبيض عن صدر ضيق تبرز ضلوعه كأن قلبه يُرى من
خلالها؛ فأحنى أذنه علي القلب الحي ونبضاته المتتابعة تغفو به في سمر
يصدر من ممر البوابة. عبره؛ فألفى أباه آدم يُظهر لناظريه لوحة ويسأله:

- هل تعرف من هذه يا حيلة؟

قال:

- هي ساجدة.

فقال أبوه آدم:

- إني مزوجك إياها!

تيقظت نظرة حيلة وعقد لسانه.

قال أبوه:

- ألا تصدق؟

- أم وجيدة لن تصدق.

- إني أرسلت إليها المحمل.

- ومتى ستحضر؟

- متى أحضرت أنت شاهديك!

فقال حيلة:

- نحمده يُصلى المغرب وراهب البوابة نائم في مسجد الملك!

وترزعجه جلبة تهتف به.. يسأله أبوه:

- مالك يا حيلة؟

- ألا تسمع يا أبي؟

- الناس فرحون بعرسك.

- بل، هم يهتفون بأني سأمسخ حمارا إن شهد نحمده على

زواجي!

يطمئنه:

- إنهم يحبونك.

- بل، يحبون الأرمدة أكثر!

- وأنت ألا تحبه؟

- أحبه وأحب ساجدة أكثر!

- وساجدة ألا تحب الأرمدة؟

- لقد أطعمته غزل البنات في القرافة، ولكن الناس لا يصدقون!

- إنهم فرحون يا حيلة!

- أنا أخشى هُتافهم!

- أنت تخشى الفرحة!

- وإن مُسخت حمارا؟

- أنت حيلة ولست الحمار.

ثم يواته مواء القطط من الساحة والبيوت ونافذة المرسم، ويستجوبه

خلف المخبر:

- أين ذهب أبوك آدم؟

فيجيبه:

- إلى مسجد الملك.

يفتح عينيه على خلف يقول لنحمده:

- نحن نتحرى عن أهله، وربما نقلناه إلى كنيسة حارة الروم.
وأربك حيلة قاتلا:

- أنت شاهد على وفاته. جهز نفسك للذهاب إلى القسم!
فاسترجع وجه أبيه آدم وقال له:

- أنا الشاهد وليس راهب البوابة!

أخذ عم نحمده بذراع خلف ليغادرا المسجد. فيما سمع حيلة
هتاف "عشم" النجار:

"احذر باطن الأرض يا حيلة!"

وتراء له بظهر الأرمد مصلب الخرشوف ترويه السماء بشؤبوب
المطر، ثم برقت الأرض بالكهرباء من أسفل حوافر الأرمد؛ فأصمه
صعق برقها في صمت كصمت الضوء وسرعته؛ حتى إن الأرمد جاذبه
إلجام فخلاه حيلة وسبقه خطوة وهو يظن أن الأرمد يشم ماء أتان، ولم
يلتفت إليه وهو مُصعوق جاث على ركبتيه!

كان "الطاهر" كالمقيم في حجرة اليمام..

يصعد إليها من السطح الملاصق، ولا يغادرها إلا والبدوية تنادى عليه من السطح ضجرة من انتباهه^(١) الحجرة الناشزة نشوز أم وجيدة. وقد ترسل له خادمته "عطيات" الزق التي تنشر ريحها وسقط لسانها غير قاصدة الوشاية بها؛ وإن قصدت إضحاك أم وجيدة والتسرية عنها لذلك لم تجد هذه حرجا في السماع منها وسألها:

- بما ذكرتنا اليوم البدوية؟

فتقول كالمعتذرة:

- إنما تحبك يا سيّتي ولكنها تغار منك!

يتورد محياها قائلة:

- البدوية لا تريد أن تنسى ما أشيع من خطبة نحمده لى.
فُتْمَا كَرُّهَا:

- ولا سيدي يريد أن ينسى!

قالت متأسية:

- المنية من أبواب الرحمة ترقى بها قلوب تقسو حتى تتواسى وتتعزى وتصبر وتربط، ونحمده من رسل المنية المرابطين!
فلا تتخاذل عن مكرها قائلة:

- لقد غضب لك وقال ينهر سيّتي: أم وجيدة ألهاها الموت عن التكاثر وهى الزائرة للدنيا والمقيمة بالمقابر. كل الأحبة المفارقون نخلوها أعمارهم وأخذوا عمرها، أعفى الله لسانك فلا تتعرضى لها بذلك!
تغاضت عن المزيد المعلوم، ولكن "الطاهر" لم يتغاض، وقال لعطيات:

(١) الانتباز: أي أُنْخِذ المكان معزلا.

- جئت لترجعي بي فلم ترجعي باللغو والتأثيم؟
وليس غريبا أن البدوية وهى "العقيم" تلهجُ في كلامها وسقط
لسانها بصفح أم وجيدة عن الزواج، وعتق قلبها منه ومن الذرية. فكأنما
البدوية تأخذ نفسها طوال الوقت:

"لمَ لم تعتقي قلبك مثلها فيكون الأمر بيدك؟".

ثم إن الطاهر نافلة أم وجيدة التي وهبتها البدوية..

فحين عاد حيلة من القرافة بالنسوة وأطفالهن؛ قد أذهله انحصار
البول عن الأرمد، والكارو، واهتلك^(١) بلحمه المتخبخ^(٢) صوب برج
الظفر؛ فهو لا يبول في القرافة. والأرض كلها عراء للأموات إلا حصون
الحروب وأبراج العتاة، كما أفهمه عم نحمده وهو يُهدئ من سورته
حين جاش مغاضبا أرباب السطل؛ إذ يمنعون من دفن الأرمد برج
الظفر. أرمد والده "دئدش" الذي ترعرع معه في إسطنبول الشاهد..

لحق الأولاد بحيلة واتبعوه حيثما تخرج مُسدلا جلبابه، وحاصرا نفط
بوله، ومنتقلا في حجرات البرج، وسراديه، ثم أخذ بتلابيبه صبي قائلا:

- هناك رضيع.. رضيع يرضع يا عم حيلة!

وأوصله عنده، فحملة وحمل الصبي "الرضعة"، بينما سبقه سائر
الصبية يزفون الخبر لأمهاتهم، ولكنهم لم يجدوا حيلة أمامهم ولا خلفهم،
وسمعوا بخروجه من البرج تاركاً الأرمد وحده يُكمل ما بقى من هنة
الطريق، ويستمتع لتعليقات النسوة وهن مأخوذات باندفاع حيلة،
وتخبخ لحمه ورخاوته المضطرة بجوانب جسده الهائل:

- أرنا وجهه يا حيلة!

(١) اهتلك: يجد في سعيه.

(٢) المتخبخ: المترهل الرخو.

- يا حيلة تمهل!
- حيلة ركبه عفريت!
- عفريت حيلة لا يبول إلا ونحن معه!
- العيال أخرجوا عفريته فخرج علينا ببوله.
- أهو دخل ليبول؟
- وبما تشعرين أنت؟
- أنا مالي. ده مجرد سؤال.
- سؤال للعفريت في البرج!
- وقد خرج بجوابه حيلة!
- الطفل رضيع يا كبد أمه!
- وأين كبدها؟ دى مره فاجرة!
- الفجور ألوان كالزينة في وجهنا!
- قال الصبي المسك بالرضعة:
- "الرضعة" بما ماء.
- لعله ينسون؟
- لا، ماء بس.
- أين ذهب به حيلة؟
- حيث يشاء علام الغيوب.
- أو حيث تشاء نواح أم وجيدة!

لم تحمل أم وجيدة الرضيع ولو مرة واحدة. حتى وحيلة يُقلقل قلبها
باسطاً لها يديه بلفافة مهد، فأخجلته بنظرة لم ير مثيلاً لضعفها
وارتياعها، وأغمضت عينها تخيره بين إبقاء الرضيع على الحجر الصوان
ريشما يفك حصره، أو الذهاب به إلى نحمده..

وكانت ساجدة تحضره من بيت البدوية ولا تزال تعاتب أمها فيه
وتقربه منها وهي تفرق منه، ثم نادى ابنتها:

"يا ساجدة، أنا لا أخشى حمل طفلي وأخشى فراقه!". وقد لازمته
ساجدة في كلا البيتين والسطحين؛ كأنما تكفر عن ذنب أمه بوأده في
البرج حياً ومسيس افتقاره إليها "شعرة" من وتين الروح، هيهات أن
يقطعها رجس الذنوب، أو لبن عطيات الذي لا يسغيه الرضيع إلا
و"رضعة" أمه في صدرها.

وهكذا احتضن "الطاهر" البيت الذي يُعد مثابة للأموات، وتتصدر
دهليزه خشبة "الغسل" أو صندوق دنياء، وزائروها الراقدون دوماً،
والصامتون دوماً، وسلامهم فراق دائم.

لم يترك الطاهر راقداً منهم إلا وفتح جفنيه على الموت وهو يغسل
الحياة، كأنه أنشودة حلقومها وهي في صراع أخير ولكنه دائم.
الحياة بكل جبروتها وماضيها وحريتها في قبضة الموت. قد تبدو
مُعْدمة هامة، ولكنها في نضال!

دَرَجَ على أن يتخذ مكانه فوق خشبة "الغسل" ويرقد للموت دون
أن يغمض جفنيه، وإن أغمضهما؛ يغمضهما على امرأة ترقد بإحدى
غرفة البرج. فيلحظها قمر^(١) عارية كسحابه بياضها ضوء يخطف
قلبه؛ وبوحى من قلبها تلتفت إلى رضيع أقر عاري لا يواريه مهد،

(١) القمر: شديدة البياض والوضاءة.

ومن مزغل رمي السهام بينهما يزمرم الرعد ضاربا؛ فينشهبُ من
مستطيله وهج ارتد من قلبها إلى صرة الرضيع، وما لبث أن انحصر عن
عقرب يقوس ذيله ويروغ بين صرثما وباب الرحم، ولكن الرضيع
نُض لعقرب يشق غباراً للخطيئة يريد أن يكتمل عفاً، ولما خرج من
هباء ترابه المُنْبث تتفا متفحمة؛ وجد أم وجيدة جالسة تصغي للراديو
يُث خبراً عن انتحار هتلر..

أمسك الرضيع بذيل العقرب، وسارع يغطه في زيت برطمان قائم
فوق الراديو، والتفت ييسم لأم وجيدة؛ فزمرم قلبها مردداً:
"المرأة أمك، المرأة أمك..".

إنه يُصدق قلبها كما صدق زملاءه في الكتاب والحارة والمدرسة..
كان الصدق يُشبه ماضي ذاكرته وماضي البرج. بأحجار مزاغله أثير
يقين غبر، وأثر ارتياب آت؟

لقد ارتاب في أمومة "نوسة" بائعة الخوص والورد أسفل كوبري
الجاورين؛ فحديثها إلى نحمده همساً يُشغله ويُكربه، ولكن كرب ارتيابه
تبدد حين رجع هو وحيلة إليها والكارو مُحَمَلاً بالأكفان وبالنعش
الجديد. استلمتهما وهي تدعو لنحمده بمكرمة المثوى جزاء إكرامه
مشوى الأموات. بسط الطاهر ذراعه بثمر وردة، فتبسمت وأبقت لحظة؛
لتريق ماء القلة في صدرها المكتنز ببياض ليس كالسحابة الساطعة
القمرء.

رغب عنه، وعن كل جسد غير أقمر تعهده بصره في حمام
"بشتك"، وفي بيت البدوية، والحارة، ومرابض الموات وسراقاته، إلا ما
قمر من جسم ساجدة، وكلما دلّكه بزيت الورود؛ زمزمت نظرة أمها
بالرعد الصادق. سألها:

- هل قصصت حلم المرأة على نحمده وحيلة؟

قالت باسمّة:

- إن شئت قصصته عليهما؟

قال ييشها ارتيابه في تبسمها:

- كلما مرت الكارو بالبرج نظر حيلة إلى نعمده كما تنظرين أنت إلى!

فغضت نظرهما عنه وقالت:

- وأنت هل قصصته على البدوية؟

- لا، لم أقصه عليها، وإنما أيقظني البارحة، ثم وبختني قائلة:

- أليس في أحلامك إلا العقارب وأم وجيدة؟

قالت وتبسمها يستملح لهج البدوية بذكرها:

- وماذا قلت لها؟

- لم أقل لها شيئا، هي التي فسرت الأحلام بما تذكرته من حادث الجرو "جاك" ابن الكلبة "كاميليا"؟

يقصد حين نادت البدوية على أم وجيدة من السطح؛ فأطل "جاك" من شبك حجرة اليمام، ووقوف^(١) للطاهر كأنما يخاف فراقه إذ يرتد مُخليا مكانه للمرأة. تبادلنا التهئة والدعوات واستأذنتها البدوية في إرسال البنات ليعاونا في نقش كعك العيد، ثم أخذ بمسامعهم عواء ممتوت^(٢) تنفطر صرخاته، وتزهق في عجالة مريرة كأنما الصرخات صرخة تصيخ بشتى الأم!

فانتفض عود أم وجيدة المديد من الكلبة، وانتهت إلى "جاك" أسفل السرير النحاسي. حملته وفاءت إليهما تقول:

(١) الوقوفة: نباح من خوف.

(٢) ممتوت: ممتدا بغواية.

- إنه العقرب قاتل القنفذ!

طار الطاهر من السطحين، وفرغ من سلم الحجرة الخشبي ليجدها تقلب جاك على السرير وقد أعملت المقص باحثة في شعره عن أثر اللدغة، وبدون وعى تركته يرزح في العواء الممتوت الثقيل طالبة المصباح، فاحضره الطاهر من تجويف الحائط، واندرج معا تحت السرير. هي بالمقص تريد العقرب حيا، وهو ينقل لها ضوء المصباح إلى حيث تريح برطمانات السمن والزيتون واللفت والحبوب ومشنة الخبز، ثم تبعها بالضوء إلى أسفل الكنبه ومنها إلى صفيحة الزير والنيش والدولاب، ثم الطريقة المكشوفة ولكنها ارتدت قاصدة أسفل السرير وهو في أثرها، وما هي إلا حركة خاطفة سرت بينهما حتى ناداها:

- يا أم وجيدة، لا تتحركي!

ووضع المصباح على العقرب وهو بطيات ذيل جلبابها البيت المشجر الفضفاض. أبدلت يدها بيده على المصباح، وطلبت منه أن يُحضر برطمان العقارب من فوق الراديو القائم على رفه المثبت أعلى الجدار، وكما كان يفعل لكي يدير لها الراديو على الأخبار اعتلى الكنبه ممسكا ببرطمان العقارب، ثم فتحه لتغمس في زيتة العقرب..

وكم من هزيع؟ هزته البدوية توقظه وتمسح وجهه بالماء مرددة:

- ده كابوس.. ده كابوس. العقارب محبوسة بالبرطمان!

يسألها:

- ماذا قلت؟

فتجيبه بما نطق به ولا يذكره، ومؤداه:

- أنت تقول: إن أم وجيدة أكلت العقرب والجرو يتزع بالبكاء

كواحد نائم يتوجع!

فيقول مُستنكرا:

- أأنا قلت ذلك؟!

فتصور له نبراتها ملابسات الكابوس كاملة بما فيها نزاعات "جاك" التي أرحفت بها مخالبه صميم الاحتضار، ثم قالت متطائرة "بوحم" أم وجيدة ونبأة غنته:

- إنهما لا تتوحم على زواحف القبور إلا وغراب البين يصرخ فوق رؤوسنا!

وتتساءل مُرتجفة:

- ما هذا يا ربي! أنت تصرخ في امرأة عارية، وهي تتكلم عن امرأة تخرج من البرج حامله غربالا به رضيع، ثم تستقبل بالغربال تل تراب الأموات، وها أنا أحلم "بالميسى" محرر الشكاوى يتوعدك بقلمه وأنت داخل قبو كامل، وأره يترع عنك أوراق الشكاوى التي تسترك، ثم ساومك: أما أن يترع ورقة عورتك الأخيرة، أو تخلع له صندلك؛ فأسلمته الصندل، وخرجت من القبو مُستقبلا تل تراب الاموات حافياً. ما هذا يا ربي؟!

فيقول الطاهر:

- أم وجيدة لا تأكل اللحوم، فكيف تشتهي زواحف القبور؟!

دخل عم نحمده الحجرة وهو يقول:

- أحيانا أصدق أنما آخر روح ستترع في البرية!

أجابه الطاهر:

- ثلاثة أيام وألوان الذبول تراوح وجهها ولا تريد إغلاق الراديو؛

حتى سمعت خبر تأميم القناة!

قالت البدوية:

- أحد يذهب بها إلى "جمال" يمكن في تأميم القناة مصيبة ستقع!

ضحك عم نحمده مداريا انزعاجه، وتأهبت البدوية لمغادرة الحجرة

وهى تقول:

- حيلة جلس أسفل شرفة الشيخ "مشحوت"، وسمع منه أذان الفجر، ثم برطم له بخروج أم وجيدة إلى بستان الشاهد، فهتف الشيخ الكفيف في ظلام الفجر:

- مدد يا شاهد!

قال نحمده:

- المشايخ كلهم أحبها إلا واحدا؟

تريث البدوية على الباب كأنما تسأله، من هو؟ فتضاحك ولم يجبها!

وضحك الطاهر، ثم سأله عن أم وجيدة:

- هل كلمتك عن الغلمان؟

- أية غلمان؟

- الذين ينتظرون بدر المسحراتي!

- وأين ينتظرونه؟

فقال:

- عند تل تراب الأموات؟

إنه تل من تراب القبور..

جُمع منها، وتركوه متراكما فيما يلي جناح المرتفعات من ناحية قلعة الجبل. تراب صفصاف أملس لا تشوبه شائبة كأنما دود الأجسام لم يبق منها باقية. لا رميم، ولا عظام، ولا رفات. تراب أملس هو خلاصة أموات هم وفخار خلقهم سواء.

كأنهم طير الخليل قد صروا إلى التل؛ لحين سماع المنادي إذ الأيام لا تدول بالأحياء والأموات.

ويلى أسفل التل مشجر من الزيتون تتقاطع جذوع أشجاره في ممرات كالمناهة، وتفصله عن جناح المرتفعات روبة يتناثر بها أشجار التين الشوكي..

ويقال إن تراب التل لم تواري القبور أصحابه، وإنما حصدهم وباء وهم نابذون أنفسهم بعراء المقطم خشية عدوة أهليهم.

وذكر "الشاهد" أنه سعيد أهل المشيئة، وكل من وعى الإشارة وذهب إلى شجرة اليقطين..

ويقال إنه تراب ذوى التربة الذين أجلوا من قبورهم لتشييد القصور على زفاتهم!؟

وبدر المسحراقي يقول:

"إنه تراب الممالك، جمع من مدافنهم الغريبة؟".

ولا يزال الطاهر وأصحابه يحومون حوله ويهيلون تراب حضيضه فلا يعثرون على ما نخر من العظام والجماجم، كما عثروا عليها فيما اكتنف مسجد "الغريب" من رفات وعظام وجماجم.

ويحوضون فيه بقدامهم إلى الأفخاذ وهو ينشق كالهباء، ولم يتهيوا خطر الانقلاب في جوفه حين نواوا الترحلق على ملسائه ذات الهوى الرخوة. وتخيروا مواضع يابسة بقمته، وجعلوها منصات للترحلق

والسباق، وقد جلبوا أكياس مشمع افترشوها قابضين طرفيها بأجنابهم
ومسددين سيقانهم على خط مستقيم، وهم على أهبة الترحلق، أو أهبة
صفقة البدء من الطاهر مراقب السباق من مدخل مشجر أشجار
الزيتون، وما هو إلا صدى الصفقة حتى يكون قد انتهوا من السباق،
ولا ينتهون من الشجار على أيهم الفائز، وقد يملكون ملاحاة الفوز
والخيبة؛ فيستظلون بتقاطعات مشجر الزيتون أو ينظمون الألعاب داخله
أو يطاردون الثعالب في شعب المرتفعات وحتى زرايب الخنازير
ومغارات المقطم..

وهناك يهيم الطاهر مقتفيا أثر شجرة اليقطين ومسجد ابن
الفارض وقرني الغزالة المعلقين ببابه، والتي ترجم لها أشواقه كما يقول
الشيخ حنفى لأم وجيدة، وقد يتأهبون على منصات الترحلق وينسيهم
شأو السباق أرواح الموتى وأصداء جماجمهم وكأن الريح تنخور فيها
وتطلعهم على حقيقة التراب. لمن هو؟ فيجزم لهم جازم بأنه تراب أهل
المشيئة،

وينادون على الطاهر الذى مل انتظارهم، واستلقى على عصف
الأوراق بمدخل المشجر:

- يا طاهر، أهل المشيئة يريدونك.
- ألم تخلع نعليك بتلهم!
- ماذا قالت لك جماجم أموات مسجد الغريب؟
- كاد أن يكمل هيكلا منها!
- ألم تصره إليك؟
- بل صره إلى أم وجيدة فأسمعته غنة الخاتمة!
- لم تشل الجماجم قلوبنا؟
- ولم ناستمرئ الطعام وعفاء التراب بأيدينا؟!

- اعتدل الطاهر من استلقائه وخاطبهم:
- في تراب الراحلين حنين لسيرتنا الأولى!
 - والجماجم المنخورة ماذا قال لك ريحها؟
 - طرح ظهره لغفق النوم كأنه يستحضر روح أم وجيدة وغفق النبأ يُسمعها حديث الأرواح..
 - في الجماجم عماء هو المصير.
 - ما الذي يوحدها؟
 - انطماس الإنسان هو ما يوحدها!
 - حيث يكون الانطماس يكون الرياء!
 - الجماجم لا تعرف الرياء!
 - ولا تعرف الصدق أيضا!
 - هي بشاعة العماء!
 - ولماذا لا يكون الموت هو ما يوحدها؟
 - لا، الجماجم لا تشبه الموت في شيء!
 - صدقت، فهل تذكرون "عيدا" اللبان؟ كنت بدكانه حين سقط، وقد رأيتُ الموت في وجهه كطائر أبي فصادة. ملول هزاز على أهبة الوثوب، وحين تأخر دفن "عيد" وتركوه في دكانه زهاء ساعتين؛ جثته و رفعت عن وجهه الغطاء فلم أجد الطائر ولا عيداً، وإنما وجدت حياة خانقة للشعور والبصر!
 - الموت في الحلم كالصلاة في الحياة، صراطان لدار الحيوان. هكذا ينشدنا بدر المسحراتي!
 - كفانا إزعاجا لطير الخليل!
 - لا سباق اليوم ولا مُلاحه، ما رأيكم لو تزلقنا جميعا وأيدينا معقودة بالعروة الوثقى!

- هذه "لو" سيدنا عزرائيل!
- من يحب أن يراه يُوثق يده بيدي!
- كلنا نحب الحق.
- وهل الحق يحبنا؟
- هذه "هل" الشيطان.
- يا طاهر! اخلع نعليك.
- هلم يا طاهر، أهل المشيئة في انتظارك!
- لو تصفق لنا صفقة العروة الوثقة؟

ريح منخور^(١) بأصداء الصحاب جلب عصف^(٢) المشجر من تقاطعات جذوعه ومناهلها المنحدرة إلى شواهد قبور باب الوزير..

أنجلب العصف مطوقا غفق الطاهر، وتوالى قراع بدر المسحراقي شاملاً المرتفعات؛ حتى حبا على أربع بذروها رضيع أحلامه متوخيا بعينيه مرقد المرأة القمرء العارية بحضيض التل، ولكن وهج قلبها انقطع عن صرته؛ ففزعت ناهضة تشق غبار الخطيئة..

ترقب خروجها من هبائه؛ وإذا بالعبث ينهكها فيما تهيل من تراب الحضيض بغربال، وبوحي من قلبها التفتت إلى مرقده وعصف مشجر الزيتون ينجلب فوقه ويطمره..

فتح الطاهر عينيه على أسفل التل؛ فلم يجدها. التفت إلى قمته فلم يجد الصحاب!

أقام ظهره، وتلفت يتفقدهم في سقيفة الأشجار وتقاطعات جذوعها. نمض والعصف ينثر منه. تنحى عن ربة المشجر، ودار يستفيض بعينيه المكان. خلاء قراة الوزير، وجناح المرتفعات، وأبراج السور، والمزغل المتهدم وفجوته التي يستقبلون منها التل مباشرة، بعد فراغهم من ممر الأبراج المتصل بقبو عم كامل بائع الشاي.

بدا لناظريه استدارة برجه متاخمة لأقصى منحدر المرتفعات. ظنهم يسبحون بترعة المجاورين "سراب العطشان" صعد كومة أشجار السنين الشوكى، ثم جناح المرتفعات، ومنه أشرف على التربة الخاوية. ظنهم ببستان الشاهد يأكلون ثماره، فكتنف حافة التربة هابطا منحدرها، ثم دخل البستان. كان حيلة يُخرخر في تعريشة الفل، بينما غنة أم وجيدة

(١) منخور: العظام النخرة التي يخرج منها الريح.

(٢) العصف: ما تبيس من أوراق الشجر.

تترسل^(١) منادية:

- يا بدر، دق قراعك!

كانت جالسة إلى شجرة الكافور طالعها من جانب التعريشة
فأغمضت عينيها. سألها:

- هل أتاك الصباح؟

قالت:

- بدر المسحراتي ينتظرهم!

- أين؟

- بتراب أهل المشيئة!

بعناد من يستشعر نبأ الفزع:

- أنا قادم الساعة من هناك!

بنبرات ترسله إليهم:

- بدر ينتظرهم!

بيأس كالرجاء:

- ألا ينتظري؟

- المرأة هي التي تنتظرك بالغربال!

قال مولها ظهره:

- لا الصباح بقمة التل، ولا المرأة بحضيضه!

لاحظت عصف الزيتون عالقاً بظهره وشعره الأصفر؛ فشاطرته

خواطره قائلة:

- ستجد بدرا عند التل!

استدار يسألها:

(١) تترسل: تحسن نغمة النواح دون عجالة.

- وحفيديه؟

تهدجت:

- ينتظران بدر هناك؟

استيقظ حيلة وبدا واعياً لكلامهما، وإن أثقله النعاس. استدار إليه الطاهر فتتعتع كلامه في حلقه يعرض عليه ركوب الأرمـد؛ فأوفـض الطاهر في سيره قائلاً:

- سوف أسلك شعب الجبل.

تتعتع حيلة ينصحـه بالذهاب إلى قبو كامل؛ فقالت أم وجيدة تذكره بحديثها عن كامل:

- كامل لا يرى، ولا يتحدث إلا عن الراحـلين!

أخلف حيلة وراءه يتتعتع بما يشاء، وسارع إلى شعب الجبل ومنه اختصر الطريق منحدرًا إلى القبو، دخله على وفر يعجل بعم كامل. قال له من مكانه بالنصبـة:

- حفيدا بدر خرجا من تراب الممالك ويتنظرا كبتلهم!

سأله عالق البصر كأنما ينشبه في تراب التل المنخور:

- هل أنقلب الصحاب في جوف التل؟

قال وجانب طرفه يتروي ناحية شعب الجبل المفضي إلى القرافة ومن ثم إلى خلاء المقطم:

- "الشاهد" جاء بدر في المنام، وأبكاه وهو يأخذ منه حفيديه، ثم

سره أن يراهما يذكران الله بملقة أهل المشية. أم وجيدة قالت لبدر: إن الرؤية حق؟ وأوصته بدق قراعه على أبواب خمسة من بيوت الشارع!

خطر للطاهر منامه الذي نخر الريح فيه أصداء الصحاب كأنها أصداء أهل التراب الشاهق تلهم الشاهق تلهم كنصب تذكاري لا يغلق جوفه مادام في الأرض أصحاب يعتلون قمته. وخطر له تطاير عصف

أشجار الزيتون منقشعا عن الرضيع؛ فحبا على أربع رافعا رأسه لسحابة
العصف، إذ تُولي شطرها خلاء أهل المشية. أتبع السحابة حتى نهضت به
غنة أم وجيدة:

"يا بدر دق قراعك"

التفت إلى المرأة العارية بالحضيض والعبث يُنهكها فيما تُهيل هباء
التراب بغربالها!

هتف الطاهر بعم كامل:

- أم وجيدة أوصت بدرا بدق قراعه على خمسة أبواب،
والصحاب كانوا سبعة بحفيديه!

كان "الميسى" محرر الشكاوى يجلس بإحدى مصطبتي القبو
المتقابلتين فقال:

- أم وجيدة تسمع قراع الموت كما تسمع القطط ضربات
الزلازل!

قال عم كامل وجانب طرفه يتزوي إلى الناحية الأخرى حيث
تلوح حجرة اليمام:

- أم وجيدة هي يمامة الموت التي تغزل فيها حنفي، وسماها في
شعره يمامة الذكرى، ويمامة النجاة، ويمامة جبل الجودي!
أعاد الطاهر سؤاله:

- أنقلب الصحاب يا عم كامل بجوف التل؟
أجابه:

- "الشاهد" قال لي إنهم خرجوا جميعا من تراب الممالك!

قال الميسى يُشهر بالطاهر:

- حفيد بدر ردد اسمك، واسم أخيه وهو يسلم السر الإلهي!
وضحك متهانفا يسخر بكامل:

- الممالك كلهم خرجوا من التراب وينتظرونك هناك!
أطرق الطاهر إلى صندله وتبسم متذكرا حلم البدوية الذي
استصرخت فيه ربحا. شال برأسه وناده:

- يا ميسي أفندي، اكتب هذه الأسماء.
وأمله أسماء الصحاب جميعا بما فيها اسمه الذي اختارته بنات جنات
"واجد" وأثبتته عم نحمده في شهادة الميلاد ضاربا عرض الصحراء باسم
البدوية "الطاهر".

مسخ التضاحك وجه الميسي، ثم قال:
- أنا قلت لنحمده اسم أمك الحقيقي!
تبسم الطاهر تبسما يملأ له وقال:
- ألا أخبرك باسم أبي الحقيقي؟
مسخه التضاحك فأرا يقرض عصو^(١) العصافير الأحياء. قال الميسي
مشيرا بذراعه ناحية برج المراقبة:

- ستجد أسم أمك في سجلات ثكنة الانجليز العسكرية!
تمثل الطاهر عورته في حلم البدوية.. قال للميسي مقرا بعريه
كرضيع حجرة مزغل رمي السهام:

- أنا كنت أزحف لجنود الثكنة من تحت أسلاكها الشائكة!
وبسم لعم كامل يقول:
- سوف أذهب لرؤية الصحاب ثم أزحف ليراني الجنود!
فلم يرحمه الميسي قائلا:

- الله يرحم أمك ألف رحمة، فقد كان يياضها مُشرب بحمرة
الانجليز!

(١) العصو: صغار العصافير.

ناداه عم كامل ثلاثا بلهجة من يقسم يمينا:

- يا ميسى،... والله ما قلمك بأكذب من لسانك، وما لسانك

بأعف من قلمك!

كان بالقبو بئكتان متقابلتان إحداهما استخدمها عم كامل نصبه،

والأخرى هي التي انعطف إليها الطاهر متخطيا منفذ المر المتصل

بالأبراج، ومسلك الصحاب إلى حيث يستقبلون قمة التل الذي نجوا من

جوفه فرادى وابتلعهم جماعة!

أرجف الناس باسم الطاهر، فهو الشاهد وهم الغائبون. أما "عيسى" حفيد بدر المسحراقي فقد ردد اسم أخيه، واسم الطاهر، وفطس وهو يدلهم على المكان الذي فقد فيه أيدي أصحابه بجوف التل. أخرجوا الصبية وأيديهم معقودة "عقدة الوثاق"، كما عُقدت نعوشهم "عقدة اللقاء" في جنازة احتشد خلقها من البوابة المحروقة وحتى باب الوزير.

برح عم نحمده تراب الأموات الذين استفحل ذكر موتهم وانطمست ذكرى حياتهم. فقد أكد له غفير مشجر الزيتون أن ابنه لم يكن يتزحلق مع أصحابه على التل، وإنما كان يستلقى على أوراق الأشجار، أو يسير وحده ناحية الزرايب والقطار المقلوب ومغارات المقطم.. ثم أنه قد هتف به هاتف لما دب صمتهم المفاجأ في روعه؛ فخرج إليهم مهرولا من المشجر ليجد عيسى ينكفي وينهض في غمار التراب، فكان أول وآخر من تحدث إليه وهو يخرج من جانب التل. حين سأل عم نحمده أم جيدة:

- هل حضر "واجد" إليك يومها؟

أكدت حضوره هو والشاهد وأهل المشيئة، وقد حف الكل بشجرة اليقطين وترجموا للغزاة أشواقهم، ثم تمايلت بما الغنة مبصرة عصف أشجار الزيتون المتطاير من الطاهر إلى مزاغل الأبراج ومظلات القبور. وكان حيلة يجيش بغنتها فينتفض من غفق النوم الموصول بأرواح الأحبة، ويهجر وراءه الأرمد، ونحمده، وأم وجيدة، وساجدة، ويهيم في أبراج السور، وأحراش القرافة. وفي مرة رجع بصندل الطاهر؛ فكان رجوعه به كما قال عم نحمده:

"كحشرة الوفاة أملها أطول ما في الحياة!".

وقد فهم منه أنه عثر على الصندل بحجرة المزغل المواجه للتل، وما

يفتأ يجيش به الإخلاص، ويهاجر إلى الطاهر، ويعجزه السؤال فيحضر إلى نحمده الترابية، والمقرئين، وساكني الأعراس، وأراد أن يجازيه على سعيه المشكور ويكفه عنه؛ فمسح ما تدرع من عرق وجهه وقال له:

- الطاهر أثر البقاء مع أهل المشيئة يا حيلة!

فنكس رأسه الضخم وأفهمه أن الطاهر لا يدوس بصنidle على تراهم!

- ألم يخلع الصندل يا حيلة؟!

فأفهمه غير متمهل أن "عويس" العرة سرق الصندل، والطاهر نائم في قرافة الوزير، ثم أخفاه بحجرة المزغل مبيته القدم، وكان يحدو حيلة الأمل أن يرسم له الفنان راهب البوابة وجه الطاهر، وهو بين الرابعة والخامسة عشرة من إطار صورة. نسخة منها مثبتة في حجرة اليمام، والأخرى على مكتب الدكان؛ فأخذها من المكتب، وتكودن مُثَقَلًا بعبال الأمل وعبال لحمه المتكدس، ثم وقف أسفل نافذة البوابة الشاسعة ورفع الصورة للفنان دون أن ينبث؛ فلم يحفل به حتى استدار مع النافذة، وصعد سلمها، ثم جلس إلى جواره يتعتع بما كانا يتندران به هو ونحمده من وصوصة الإلهام في ظلمة الإلهام!

توسم الفنان نظرة الطاهر العالقة في غير مأرب. نظرة عازمة على الاستغناء المطبق بغمه وتلمل وجهه، بينما نظرة عم نحمده دامعة ضحوكة ودمعها وضحكها صفو من دهاء الحياة، أو كما قال الفنان: "في نظرة عم نحمده معين من دموع تخفيها لوعة الطرب. والله أعلم باللوعة الطرب!".

هلال مقلوب يشع ألوان طيف محتقنة. هكذا عرف الشمس وهى
ترمس^(١) سرها وراء المرتفعات.

ولكى يتصور مصيرها؛ وضع على حافة الطبلية بلية كبيرة تشبه
الشمس في ألوانها، ثم بدا له أن يجعل من الطبلية نفسها شمسا لسماء
السطح؛ فلزق على حوافها شراشيبا كألوان الطيف قصها من جلال
الكراسات، وأطفأ مصباح الكهرباء بعدما وضع في كبدها سراج جدته
السهارى، ثم توارى في ظلال الغسق ريشما يُلاحظ رد فعل معلمه، فلم
يخيب رجاءه وغشي السطح يُسمعه سؤله كأن لا أحد هناك:

- من هذا الذي صنع هذه الشمس؟

ظهر له محروس وهو في خجلة التواضع، فعاد يقول:

- شمس رائعة ولكن لا تجعل عينك تعوق خيالك!

واستقبله عند الطبلية وقال:

- إذا كانت المشاهدة هي غاية النظر فقد أضفت عينا إلى عينك!

الشمس لا تغيب ولا تشرق؛ وما تفتأ العين تسألها أين ستغربين؟
وتسألها أين ستشرقين؟ وقد نسأل النجم متى انفجرت؟ أما الخيال
فيلتمس ضوءه وهو على يقين بأبدية الضوء. الخيال هو عاطفة الكون.
صدق أن القمر صخور، ولكن لا تصدق أنها صخور بغير شعور.

ثم أطفأ السراج السهارى ونظر إلى الشمس المحتقنة بسرها قائلا:

- إذا غربت الشمس فإلى أى الشجرتين تجلس الوارفة أم الجرداء؟

- الوارفة.

- لِمَ وأنت لا تحتاج إلى ظلها؟

- لأنها الأجل.

(١) ترمس: تدفن سرها.

- وما الجمال فيها؟

- الخضرة.

- ولماذا الخضرة جميلة؟

- لأنها تعبر عن الحياة.

- برافو! فهذا هو الخيال أن تمل وعيك بشعور الحياة وأبديتها
مهما اختلفت صورها وأشكالها؟ وحينئذ لا تثريب عليك إن أغمضت
عينك للخيال، فلا أحسبك تضل الطريق إلى الشجرة الوارفة.
أدهشه قائلاً:

- وإن لم تشاهد عينايا من الشجرتين فالى أين يذهب بي
الخيال؟

- الخيال هو الذي يخلق إرادة النظر؛ أي يخلق العين!
ذهب محروس يُضيء المصباح الكهربائي، ورجع يتناول كراسة
"الشذور" من الطلبة وقال:

- لقد فرغت من سؤال الأمس؟

- أو كتبت مشهد موضوع الطيران؟!

فتح الكراسة على مشهد:

"الأرض ليست تحتنا".

قرأه معه مناقشا، ومعالجا لعبارته كما يفعل في سائر المشاهد.
كانت السماء في المشهد مطارا لإيكاروس وابن فرناس، ولم يذكر
الأرض إلا في لحظة السقوط!
ابن فرناس:

- مالنا نهبط بقوة أكبر من قوة الصعود؟

إيكاروس:

- كيف؟ ونحن مازلنا نستعرض السماء طيرا!

ابن فرناس محذرا:

- انتبه؟

- إلام؟

- الجناحين؟

- أى جناحين؟

- جناحا الهروب من الملك.

- ليس للهروب أجنحة.

- أقصد جناحي الطيران.

- نحن لا نظير بقوة الأجنحة!

- انتبه، الجناحان يتباعدان عنك!

- أى جناحين؟

- أنت تسقط مثلي!

- بل أنا صاعد إلى لؤلؤ الشمس!

- الجناحين؟

يلتفت إكاروس إلى جناحيه المشتين بإحكام، ولكنه يشعر بقوة السقوط! فيهدف برفيقه:

- احذر.. احذر الصخرة تحتنا!

فيطمئنه ابن فرناس:

- بل هي الأرض!

كانت نظرة معلمه كنبأة أم وجيدة؟ بارك رأسه بمسحه وقال:

- أجل أيها الطائر، نحن لا نظير بقوة الأجنحة كما إننا لا نسقط

بدوها!

ابن فرناس سقط بمجرد أن أحس بفقد جناحيه، وإيكاروس سقط

بمجرد أن أحس بوجود ذانك الجناحين! واستعرض شراشيب الألوان

بحواف الطبلية أو الشمس التي صنعتها عينه وقال:
- لقد عرفت الجناحين بخيالك، وعرفت الشمس بعينك. أأست
معى أن شعورك بالجناحين أكبر من شعورك بالشمس؟
وبنفس النظرة استفز خياله قائلاً:
- وماذا عن "الصخرة" التي هوى عليها الاثنان، وبكى عندها بنات
الماء؟

قال شاردا:
- لا أعرف.
سأله:
- ما رأيك لو أبقى الصخرة في مكانها؟
- أبقها لنفسى مادام البنات بالماء!
قال باسم:
- ولن أراود الصعود معك؟
ثم رفع لناظريه كتاب: "ساعات بين الكتب" للأستاذ العقاد،
وقال:

- حين يسكت التاريخ يتكلم العقاد. يصفونه بعملاق الفكر والحق
أنه "مارد الخيال" الذي خرج من القمم الشرقي لكي يأتي بالتاريخ
مكبلاً أمام الحقيقة!
وتل شعره:

هو الحق ما دام قلبي معي
ومادام في اليد هذا القلم
ثم جلس على دكة المطالعات، وجلس هو إلى الطبلية يطيل النظر في
صفحة بيضاء من كراسة الشذور؛ حتى تحدد ساعده في سبات عميق
كأنما يستبطن الخيال في الحلم، كما استبطنه في الواقع، وجاءه خيال

الحلم بنات الماء وهن يحولن الصخرة موجة طافية تغمر إكاروس وابن فرناس، وقد تجمع ريش الأجنحة كمظلة جابت السطح والمرتفعات، ولما أظلت بناية المدرسة؛ تخلخل الريش، ووصوص منه لؤلؤ الشمس..

شعر بأنه يسقط إلى باب المدرسة الموصد، وسمع من ينهره:

- ألم تعاقب على التأخر؟

- لذلك؛ فأنا متأخر!

- لهذه الوقاحة رائحة تشمها المدرسة!

- دع وقاحتي، وأشهد بأن باب المدرسة مغلق!

يمتعض من قدميه الحافيتين قائلاً:

- أين الخذاء يا عبد الواحد؟

فيؤرجح ذراعه بالحقيبة وهو يقول:

- الخذاء هنا!

- هنا! وماذا يصنع في حقيبة المدرسة؟

- يرقد على البيض!

وهو يتفزز متضحكا:

- بيض رأسك الفاسد؟

يقذف بالحقيبة إلى قوة الخيال؛ فإذا بها طائر أسود يصعد إلى لؤلؤ

الشمس الموصوص من خلال مظلة الريش..

كان معلمه لا يمل النظر إليه ويشفق من أعراض خياله كإغفائه

المفاجئ، وصحوه المفاجئ، ومضغ ياقة ملابسه، و القلم الرصاص،

وتواصل شروده، وطفرات تساؤلاته، وأوابده الفنية التي يقرظها بقوله:

"إن اكتملت عزيمتها ستكون جزءاً من عزيمة الفن في المستقبل

القريب".

نفس الحلم، قطعت خياله أمه وهي توقظه للمدرسة. نفص

الحاف عنه واتجه مباشرة إلى حجرة جدته حيث وشيش "البابور"
معزل الشتاء، وجدار الإلهام. تمدد كالمعتاد متوسدا فخذها. قالت ماسة
رأسه:

- إلى متى تحلم بالطيور؟
- حتى أحلم حلمها!
- من قال لك ذلك؟
- شرد لحظة وقال:
- بنات الماء!
- قالت باسمه:
- وماذا قلن لك أيضا؟
- إذا حلمت حلم الطيور سوف تطير مثلها!
- قطع استنكار أمه يقظة الخيال:
- أنت هنا! ولست في الحمام؟
- و تعجلته مضجرة:
- لست صغيرا على ذلك!
- اعتدل جالسا يخاطب جدته:
- اشهدي، بأنني سأجد باب المدرسة مغلقا!
- فصاحت أمه:
- ومتى إن شاء الله سيفتح هذا الباب؟
- ومحركة ذراعها إلى الوراء:
- ألم تقل هذا أمس وأول أمس!؟
- قام يقول:
- بلى قلته، وفي كل مرة أقفز من السور.
- سور الكذب!

مخاطبا جدته:

- قولى لها تصدقني.

غادرت الحجرة قائلة لهما:

- كفافك تصديقها، وفرحتها بأضغاث أحلامك!

رد باب الشقة خلفه ولا يزال وشيش "البابور" يعزله في نعاسه الشاقي. تسمر إزاء الدرايزين وحلم الطيور يصعد به إلى السطح. ركبته متزلقا إلى منتصفه. أمال رأسه فامتد حلق البيت إلى السحاب، وتلاحقت زمر الحمام كأنها المواجهس تضغط على رقبتة؛ فأطاع الحلم وتسلل صاعدا إلى السطح. توسطه مُسقطاً الحقيية من يده، ورفع رأسه ليدور مع انسيابية الأجنحة الطموحة المشوقة للطيران في ذاته كأنه غاية السماء..

طلاقة هي انبساط الضوء الأبدي في الفضاء المنظور.
من قال له:

"إننا ننام لنحلم والطيور تطير لكي تحلم؟".
ربما بنات الماء.
أين سرب الحدأ؟

غير اتجاهه حيث أوجها الساطع بين الرقائق السابحات. مهما علت فهي تعرفه، وتميز ندائه، نداء يوم الجمعة والإجازات:
"يا حدأة يا أم ملاءة خذي كتكوتك..".

كان يكرره كأنما يتناهى إليها في أوجهها؛ فترصد الجثمان المقذوف، وتدوم في شبه دوائر، ثم تتراخى هابطة متجمهرة أدنى السطح في مرصد عاينته، وتعلق نفسها صافة أجنحتها المكدبة مُنحنية الرؤوس.
تأهباً معاً على ميقات. هو يقذف بالجثمان وهي تستهدفه في سباق ضار كأنها شهب بنية حمراء مشقوقة الذيل، وقد تدركه لحظة الهدامه بأرض السطح فلا تكثرث إلا بصراع محالبها، وفي خطفة انتهاب تنتهبه واحدة، وتتمكن منه جامحة في صعودها، وفي ميلها صوب المرتفعات؛ فيشيعه بنظرة تتعقب المخالب الظافرة إلى أن تهبط في أشجار الكافور..
لم يجسر على ندائها وشقة جارتها "الملاحه" أسفله، وبدا له تحفيز

جموعها وإثارتها؛ فعقد المندبل على ثمرة الدوم، وقذفه كجثمان
كتكوت، وأعاد الكرة حتى هبطت مدومة في دوائر فسيحة ثم تلاقى
جميعها على أرجاء مرصدها القديم أدنى السطح.

قذف المندبل فانحنت رؤوسها مُتأهبة وحدة بصرها تحجم بها حتى
انخط المندبل بكتكوته المزيف. لهُت وراءه، ورجع إلى حيث يقذفه، ولم
يهبط ذراعاه إلا واحدة تنفلت من الجموع القلقة المتجمهرة وهوت
تستهدفه غير واعية بمناورته، فقد كان يقذف المندبل إلى نفسه وليس
لها، وإن كادت المخالب أن تلتقطه من قبل وجهه؛ فأذواه مُرتاعاً،
وأحجمت هي جامحة إلى الجموع، ولما عاد للمناورة عادت، وكان
الاثنان أكثر جسارة؛ فلم يذوي وجهه، بل رفعه للمخالب المعقوفة،
ووفر يجاذبها المندبل، وفي الكرة الأخيرة تكاشفاً، وتبادلا الجسارة،
ودهاء المناورة، ولم يكن به حاجة أن يسأل سائر الحدُ المستطلعة:

ما بالك لا تشبكين في صراع النهب؟ أدركت طائله من
البداية؟ أم اصطفت واحدة تنوب عنك وتلهو بالجسارة؟

مادامت الحدُ على حردها^(١) مُستطلعة، ومعلقة نفسها في
مرصدها القديم، فهو على حرده حتى يُمكر بها المكر الجميل، أو يُكافئها
بجثمان كتكوت قد يصادفه داخل عشة من عِشاش السطح المتحلقة
سوره إلا قليلاً.

أتى العشش يزبح عن أبوابها المسامير المتوية، ثم انتهى سعيه نهايته
الأسيفة. احتل ظهره باب العشة الأخيرة، ومدَّ ساقيه تماماً ليعزله وشيش
"البابور" في نعاسه الشاتي؛ فرأى مظلة الريش تظلل باب المدرسة
الموصد بينما هو يسند ظهره إليه، ويفتح عينيه على صوت يزجره:

(١) حردها: عزمها.

- أين الخذاء يا عبد الواحد؟

فيشير إلى الحقيبة ليخرج منها طائران يهاجمان الصوت، ثم يحيطان على قدميه الخافيتين، ويسمع البومة البيضاء تقول للطائر الأسود:

- أنا قربان الليل في عيني سكينه القنص!

أجابها الطائر الأسود:

- وأنا طائر الحضارة في عيني عزم المجرة!

أرجفت قدميه ثرثرة حميمة من فلول الكتاكيت الزاحفة من العشش صوبه، وتكالت عليه ترتقى كل مرقى منه. ساقيه المفرودين، وبطنه، و صدره، وكتفيه، ولم يبق من كسوف الحلم إلا وشيش "البابور" ونعاسه الذى حوله إلى جثمان من الشمع، يسط راحته لمن شاء أن يرتقيها. توسط راحته كتكوت نكار، وكالمخالب فرّج ماين أصابعه وقبضها عليه؛ فحرر نفسه مُسرعا إلى باطن معصمه. استدار فضم أصابعه له كقمة يعتليها واحدا فردا يصوصو بالفرحة، وهاشا بمنقاره إلى فمه. تالت نقراته المصوصة؛ فتذكر ما بقى من سمسم أم وجيدة. جرف جيب قميصه بيده الأخرى، وبسطها فصوصو كتكوت القمة، وانقلبت ثرثرة الكتاكيت ثورة جياع بيضاء..

تكالبوا على مراقى جسمه، وزحفوا إلى ذراعه المرفوع حيث قمة ثورة الجوع، ولكن السطح صعب، وانطبقت أجواء ضحاه على ديف أشباح تقصفه الأجنة البنية في عنفوان متأبد؛ انشئ متحاميا بأرض السطح غير مُفرط في حبوب السمسم، بينما دُكت القمة على فردها النكار، وشرزَ في كل ناحية من كان يسعى إليها من الكتاكيت..

لم يفته خالجة من دهشة الخطر، بل لم تذهله دهشة الأتّهاب المهلّكة عن تلك الصخرة "حقية المدرسة" و بنات الماء لديها يرددن:
"لولا لحظة السقوط ما حولن الصخرة موجة طافية. من لم يخلد

لحظة الخطر مات بموتها!".

كأنما تحامى بأرض السطح تهيأ للخطر، أو تخلصا من فجاء ارتياعه. لقد ملأ وعيه بالمخالب المعقوفة وهي تنتهب الكتاكيت المهرعة المستغيثة، وتجمع بها حيث مهاب الأنتهاب، ثم غربت بمدير الاستغاثة إلى أشجار الكافور..

لقد قهرت الحدأ خياله، وانتزعت الصخرة قلبه.

بعثت حركة فهوذه ثرثرة الكتاكيت من أجداث الفرع، ومع وهلة^(١) فهوذه التالية إلى الحقيقة؛ تكالبت صوبه في ثورة نجاة، ومن طلب النجاة حر.

حمل الحقيقة يأسا من إيواء الكتاكيت في العشش، أو إخماد ثورتها، ثم يأس من خشية انتهاها كرة أخرى، أما تميزها لأصحابها فمحال، ولكنه خط إلى أوسع عشه جاذبا خلفه الفلول الهادرة بثرثرة النجاة، وبين الخطوة والخطوة لم يغفل باله عن "زعيق" سهير الملاحاة في حلق البيت، وهو الزعق المقترن بديب السقف عليها، أو بسرقة الكتاكيت، كما كان يظن أصحابها، أما هو فقد عرف السر من مخالب الحدأ! وكذلك وقع ما تحسبه ودوى الصراخ الزاعق في حلق البيت متوعدا: - يا لصوص يا أولاد الزواني، لن يقطع دابركم من السطح غيري!

(١) الوهلة: الفرعة، ووهل إلى الشيء ذهب وهمه إليه.

وكانت النجاة سهلة أو خطرا مبالغا فيه!

فاهو طوقها "دكة المطالعات" كان معلمه يقول في الندوة:

الأخطار المبالغ فيها زوبعة في فئجان أم وجيدة.. الخطر الحقيقي هو

ما يمثلنا بلا تهمين أو تهويل. الخطر الحقيقي حصن لمن أراد الدربة.

لازمته الفلول الهادرة حتى تخلص من السور المشترك مع سطح

"ضياء" رفيقه في قيادة الطائرات الورقية من السطحين، وهو الذى

وحده بأرجوحة المولد؟ أسدل جسمه على الجدار وانحط ساحبا من

عرضه الحقيقية.

هي أذن عَزَمَ للتحصن بالخطر.

تخلص من أدوار البيت الثلاث، ولم يبق إلا وهلة الخروج، فقد

تصطاده عين من شبك، أو ناصية، وقد يباغته عابر؟ أما جارتـه

"الملاحة" فلا يحسبها مُطلة من السطح ولا هي بالناجية من تيه الفلول،

ولا بالمميزة بنان كتاكيتها ولو بعد حين؟

أنت في نمر الحارة وعقبة الخروج وراءك، وها هو "حُجُل" كلب

أم وجيدة يتلوذ^(١) بالفرحة ويلهث إلى رائحتك وقدميك حيثما

خطرت..

أين مرامي الخطر؟

حماسة وليدة تستقل بإرادتها وعازمة على امتحان قدرتها في شواهد

الواقع ومساربه، بل وفي إثارة دخان كثيف من الأكاذيب يقول معلمه:

"أكاذيب الخيال وأكاذيب الحروب أصدق ما نعيشه في أيام

السلم!"

لا رجعة إلى البيت والتعلل بباب المدرسة الموصد، فهذا أول يوم

للخطر:

(١) يتلوذ: يدور بالفرحة ويطوف بها.

"بقدر شرف أخطارك تكون حريتك"
قال له:

"حين أمسك بالطباشير البنفسجي سوف أوحّد التاريخين على السبورة؛ وأؤرخهما بيوم الخطر!".
التفت مريب. امض إلى حيث عزمتُ، وانعطف إلى طريق المرتفعات فثمة وهلات للخطر كاللؤلؤ الشمس، وإن سقطت من خلال مظلة الريش؛ فثم بنات للماء، ألا تسمع استغاثة الكتاكيت؟
بم صوصو لك مرتقى القمة؟ وفيما انتهت المخالب المعقوفة؟! أبراج السور متصلة حتى قرافة الوزير.
هزه صوت أمه:

"قفزت من سور الكذب".

لم يعد للأكاذيب أسوار ولا المدارس سوف تبلى كسور القاهرة إلا ما رحم الخيال وعطف.

ارتقى المنحدر الأول، فالثاني ثم كانت الذروة المُبتغاة. استدار مُستجمعا قواه ووعيه وخياله، فإذا القاهرة في وهدتها قريرة قرارة الحكمة وتنتهى بانتهاء القبة الزرقاء.

وجاءته الرياح بجمعجة عراك السطح، فرصد أصحاب الكتاكيت والظنون بإثمها وفطنتها تنفّش بينهم كذرائع الشرور!

راقب العركة قليلا، ثم نبهه "شر البلية" إلى ما انتهب من الكتاكيت؛ فتحول إلى أشجار الكافور الفواحة العملاقة. توارى خلفها منتقلا من جذع إلى جذع، وقد أحدثت حركته الطائفة اضطرابا في الأغصان، وهب ما هب من الطيور وتجاسر ما تجاسر..

هجم بأذنيه وصوصوة تنتهي. طرح الحقيبة واستعرض أوكار الحدأ المتأهبة. أعجزته الجذوع الشاهقة ولحائها الملساء كأنما أراد أن يتسلقها.

بحث عن الأحجار في تلاع^(١) العصف والريش، ثم دار رأسه
يرصد مظان الأوكار، بينما لؤلؤ الشمس الناضح من خلال الأوراق
ومشتبك الفروع؛ يحفلُ عينيه ويعيب دمعته، غير أنه تمادى في النظر إليه
حتى ارتطم بجذع، فقعده إليه يفرك عينيه ويعتصرهما، وإن أرهف سمعه
لجمهرة الأصوات واستخابها وطغيان بعضها على بعض..

أحس هبت الطيور ففتح عينيه عليها وهي تتناثر مُحدثة اضطرابا
شاملا، فيما كان ريح عارم يفوخ صوتها ويجرفُ صعيد الخلاء، ثم
قصف عمق الأشجار قاشعا ما أرتفع من تلاع الريش والعصف،
ويذروها في دوامة تميد مع منخفضات المرتفعات حتى اجتاحت السور
ومن ورائه الوهدة الرحبية..

تحامى بالجذوع مندفعاً إلى دغل من نبات البوص يفصل قطاعاً من
الأشجار وينخفض إلى الشَّعب المختصر لطريق القرافة. كن بمكن
يتخلل البوص وزجاجة الهوجة الهبوب تُزهق بقوة انبعاثها..

استرعى انتباهه حاجز من الأسلاك الشائكة بطرف المكن. نصبت
وراءه خيام ومعدات ثكنة عسكرية؛ فساورته حقبة المدرسة وتأهب
للخروج والتجمهر يعود إلى الأشجار، وسرعان ما شمل استخاب الطير
الأعلى؛ فأحسه عجيجا للمرواح، أو فرحة نجاته الرهينة بزوغ ضحي
المدرسة القديم.

خرج من المكن، وإنه ليخطو بين الجذوع؛ هاله ما كانت تحبئه
تلاع الريش والعصف التي قشعتها الريح عن طيور مُمزقة كل ممزق.
أجنحة، ورؤوس، وعظام، وهشيم بيض، وآخر مشطور، ومخاض
مدمى، وآخر رخو.

(١) تلاع الريش: مارتقع منه.

عرف أجنحة كتناكيت السطح، ورؤوسها، ودماءها. جس دفنها
إنها هي نافرة صدره، ووجهه، وهى من تهيت وهلة نجاته كأنها وهلة
نجاتها!

فيم أزاح المسامير عن أبواب العشش؟
وفيم كان يقذف بجثامين الكتناكيت حيث مهاب الانتهاب؟!
دونك أشلاء جثمان!
إن أحسست دفنها تذكر أن الحدأ انتهت حياته وأنت انتهت
موته!

الموت يصان كما تصان الحياة.
قالها من دكة المطالعات؛ إذ تعيد الكرة بالجثمان إلى المهاب، ولما
انتهته المخالب قال معاتباً:
- لو أن لك خيالاً مثل خيال غراب "قاييل" ما أسلمته لتلك
المخالب!

- وما خيال "قاييل"؟
- إنه خيال بحث في الأرض عن حياة توأم الموت. وذلك ما تحسر
عليه "قاييل" بعد إهداره لحياة أخيه! الموت لا يبيع الانتهاب!
لمح صخرة المدرسة والغراب ينعب فوقها:
ابحث في الأرض؟

وكلماً بحث ووارى الأجنحة المنتوفة والرؤوس الدافئة؛ صادفه ما
احتضر من الحضارة. قطع الفسيفساء والزهريرات والقماقم والتمائم
وفخار الأفران، ثم ضاقت به مواضع قدميه بين الأشلاء، وارتجف
متوحداً "بسعيد" المجنون المجنون وهو يتخطى الناس متلفتاً مذعوراً من
مس أجسامهم، أو جدران البيوت. كان يمس كل ما يواجهه ليزعج
ذراعه منه كأنما ينتزع رصاصة من جسد حي، ويتكبه الهول والصياح

دون توقف:

"الدرب الأحمر كله مجانين وحراميه!"

أو وهو يدور دوره كاملة مع الهواء:

"الأرض كلها مجانين وحرامية".

أو يصبح وهو في مغطس حمام الدرب الأحمر:

"الحرب لا تنصر ضعيفا ولا قويا هو المجنون يا مجانين يا حراميه!"

وقد عرف من الحارة أن سعيداً أسر في حرب يسمونها النكسة؟

صخرة المدرسة هناك ينسل من باطنها غربان وطيور.

تجمهر، واستيخاب، وعجيج مروح، ووشيش "بابور"، وصياح

سعيد، وصوصوة تزهب، وهتاف من دكة المطالعات:

"ظلم الحمامة كظلم الصقر والباز!"

هاهو الصقر يُصرصرُ.

رمقه والبصر في البصر؛ فكان مريعا كالظلم.

انكفاء على الأحجار؛ فوثب الصقرُ مخترقاً قمته وسرى في عمق

الأشجار رعب اضطربت له أعالي الأغصان وأسافلها، وتوالت الطيور

تباعا إلى الفضاء..

ركض إلى الحافة ودار رأسه مع الأجنحة الطموحة المشوقة لشأو

الطيران حيث تخفق في قبس الزرقة.

هنالك خيالك.

لا قوة ولا ضعف، وإنما حيوية خلاقة، وفكرة كفكرة النور

والسحاب. مادمت صافات في قبس الزرقة؛ لن تموتى في صراع، أو

غفلة وادعة.

صخرة المدرسة هناك كالذنب!

أثقل الرأس الطواف. أرخاه ومضى إليها حملها، ثم خرج من مُعترك

الأشجار وأكفان عصفها إلى حافة المرتفعات. استطلع السطح الخاوي على عششه وسارية علم المدرسة، وقعد قرابة ساعة يمالأ وعيه بالمآذن والمنارات وبيوت الوهدة الموصولة بالقبة الزرقاء..

ثم نهض إلى برج المراقبة "قمقم الخيال" قطع الخلاء الذي قطعه هوجة الريح، ثم دار حول جدران البرج الغائرة إلا من جدار يكشفه المنحدر. طرح الحقيقة على زاويته واعتلاها محاذرا عمقه الذى وصف معلمه ما به من منافذ للرصد، ومدخل ذى درجات، والمسارج التى أشعل جذوتها على منافذه، وما أتمه من قطع اللوحات والزهريات وبلاطات الخزف..، وبكل ما امتلأت به نفس الفنان الذى صنع ترف الحضارة ملء نفسه، واستفزه خيال جعل من الحياة قوة أصيلة مبدعة ومن الحضارة فمراً؛ إذا نظرت في صفحته لم تكد تميز بينك وبين الطائر والنأى واليراع، وإذا ما أسقط فيه خنجر "هولاكو" أو خنجر "بيجن" فسرعان ما تتلاشى الدماء، ولا يبقى إلا نقوش المقبض الدالة على الفنان الذى أبدعها..

"سترى من سفح الذروة الموت والحياة معا في جسد واحد بل روح واحدة هي القاهرة. وربما تضاءلت تلك الممالك والشواهد والآثار، أو هانت على كل قوة طرأت عليها، إلا أنها ستبقى دوما وجهة للحياة المثلى ومنهل خيال..

أيها الطائر! ليس للتاريخ قمم ولا أغوار، وإنما هم شهود عيان ذوو بصائر أو نفوس فاجرة، وبينهما تبقى الحقيقة لمن عشقها كما تبقى النقوش والخنجر في قاع النهر..".

لم يكن لحوض البرج عمق، وإنما ردم يعلو الدرجات والمدخل ومنافذ الرصد! وكما يقفز من درجتي سلم؛ قفز في محيطه المربع، واستعرض من وراء حائطه العريض أبراج السور وحتى جلمود الصخور

الحاملة للمئذنة الهيفاء الرشيقة. أطل النظر إلى بيت "سعيد" المٌطل على
برج عم كامل، وتذكر مشهداً كتبه في كراسة الشذور وقد استوحاه
من سؤال سألَه لمعلمه:

- لمن هذه الجنازة؟
- للشهيد عبد المنعم رياض.
- أو قامت الحرب؟
- إنها حرب الاستنزاف.
- ومن هو الشهيد عبد المنعم رياض؟
- إنه بطل مثال للتواضع والعلم، وهو قدر الشهادة ومثلها
الذى احتاجت إلى استشهاده كما يحتاج الأبطال إلى الشهادة!
- قال شاردا في "قمقم الخيال":
- أنا سأكتب مشهدا بين القاتل والشهيد.
- فقال يباريه ويحمسه:
- ومشهدي سيكون بين الشهيد وروحه قبل وبعد الشهادة.
- أخذ الحقيبة من الركن وجلس مسندا ظهره إليه، ثم أخرج كراسة
الشذور وقلب الصفحات على عنوان المشهد:
- "صلاة الشهيد"

افتتحه وقارب يجرى في القناة بالشهيد والقاتل.

القاتل مرتاعا يتلفت:

- من جاء بي إلى هنا؟

الشهيد:

- أنا!

القاتل:

- وما هذا القارب؟

الشهيد:

- ذا قارب الشهادة.

القاتل والارتياح يهرسه:

- ولكنني لن أموت ها هنا!

الشهيد:

- قضى الأمر وجرى القارب!

القاتل صائحا:

- من يوقف هذا القارب؟

الشهيد:

- اهدأ فسوف يسير بنا في سلام.

القاتل:

- نيتي تحدثني بأن لا سلام في هذا القارب.

الشهيد:

- لا تدع نيتك تعجل بك وانتظر!

القاتل متلفتا بجنون إلى حصون بارليف:

- لا، لن أنتظر.. انتظر أنت!

الشهيد يصمت.

القاتل ينادى الحصون:

- أيتها الحصون، أنا ابن الشمال!

الشهيد صامت.

القاتل يستصرخ الحصون:

- أيتها الحصون، أنا ابن الجنوب!

الشهيد صامت.

القاتل كاليائس:

- أيتها الحصون، أنا ابن الرب!
 الشهيد صامت.
 القاتل بهدوء مُفاجئ:
 - لا أحد غيرك يمكنه إيقاف هذا القارب.
 الشهيد:
 - من نوى الصلاة لا يعرض عن وجه ربه!
 القاتل بالهيار مفاجئ:
 - أنا لم أنو شيئا!
 الشهيد:
 - ألم تنو قتلى؟!
 القاتل كالمتهرب:
 - هم الذين نووا!
 الشهيد مرددا:
 - الصلاة.. الصلاة!
 القاتل مداهنا:
 - إليك كل ما أملك: مالي، ذهبي، قلنسوتي..
 الشهيد يكبر..
 القاتل باستهتار مفاجئ:
 - صل أنت وربك إنى ها هنا قافر!
 ويلقى بنفسه في المجرى. يسبح قليلا ولكن لجة التيار تحصره في
 دوائمتها. يصيح في الحصون:
 "أيتها الحصون، أنا ابن الشمال، لا أنا ابن الجنوب، بل أنا ابن
 بارليف. أيتها الحصون، أنا ابن من؟"
 وتشرق به اللجة، فيلتفت للقارب مناديا:
 "أيها الشهيد.. قاربك.. السلام.. أنا أنوى!؟".

كان مستلقيا يتحدد الحقيبة، وطارحا ذراعين حاملتين كشرع
سكن ريحه، وقد طوي كراسة الشذور على صدره وحلم الصخرة
الجامئة على الصدر الموحد الطهور يُخامره في وهاق^(١) النعاس، ورفع
أذان الظهر من مآذن شتى، ودق جرس المروح مُطلقا زملائه خارج
المدرسة، واستبق الجميع إلى أرجوحة المولد بساحة أصلم. تهاجروا عند
الأحصنة الخشبية، ثم امتطأها من غلب، فيما اندرج الآخرون في سائر
العربات..

ودارت الساقية على قراع الطبول ومطاولات التناذب.
الكل طائر إلى الكل، وما الغمرة والتراشق وطموح الغلبة وجعجة
المحاجزة ورُغائها^(٢)؛ إلا أجنحة توحد خيالها المبتهج بنسمات المروح
وبتلک الوقفة؟ "وقفة الخطر" التي طالما هب لها هو وضياء؛ ليتناوبا أظهر
الأحصنة مُتجاسرين على دوار الساقية وتحذيرات "شعلة" مراقب
الأرجوحة، وكما يُسلمان طائرتيهما لقوة الهواء؛ أسلما نفسيهما لقوة
الخطر حتى انزلقت قدم ضياء فكانت "وقفت الذكرى الباقية" التي
خلدتها أم وجيدة بنواحها إذ تواسي عم كامل ونبوية ابنته. ناداه:

- ضياء تشبث بجبل الطائرة!

فلفه على معصمه وعبرت به الطائرة أشجار المرتفعات.
وفوق شواهد القبور تراءى لهما الحبل مربوطا في مخلب الغراب!
ناداه:

- ضياء، احذر خفقة الجناحين!

شعر بشدة خفقهما، ولكن ريشهما انبث فبدا من شدة سواده

(١) الوهاق: حبل تأخذ به رقاب البعير.

(٢) الرغاء: جعجة الفحل.

كخفافيش تصعد إلى وميض اللؤلؤ، وتحنقه مطبقة على وصوصة ضوئه المنفلت. ناد ضياء؛ فأجابته بنات الماء من أدنى صخرة المدرسة:

- من لم يخلد لحظة الخطر خب نوره بخبوها!
- طيور المرتفعات فظيعة!
- دونكه مرتفعات العلم.
- إكاروس لم يصعد إلى مصيره إلا بالمعرفة!
- ولكنه صعد إلى حيث ناه أبوه!
- فيم جعله الملك "مينوس" هدفا للموت بين الماء والسماء؟
- للقوة مرتفعات جائرة!
- وللضعف أيضا قوته الجائرة، الكتكوت قتل دودة السطح والحدأة قتلتها!

- انظر إلى وميض اللؤلؤ.
- ضياء في ربة السقوط!
- انظر إلى اللؤلؤ.
- الريش أسود كالخفافيش!
- من لم يخلد معها خب ضوءه!

يوم تلو اليوم، أضحى للخطر خيال، وللشجاعة قمة.

أما الحرية فكان لها إثمًا كإثم الهروب من المدرسة.

كان إثم الحرية يحوز روعه وهو بحافة المرتفعات يتناهى إليه أذان الظهر من مآذنه الشتي؛ فيحسه نذيرا بالمرواح ويتهب ضحى الهروب الجديد، ولكن سحر ما احتضر من الحضارة كانت حوزته أكبر من حوزة الإثم وحوزة الحرية؛ لذلك كرس الهجرة الأولى للهروب في التنقيب عن قطع الزهريات ولوحات الجص وبقايا الفخار والمسارج والفسيفساء، وتمايم التعاويذ، وقمائم العطور؟

كانت لذة العثور عليها هي بعينها لذة بنائها.

نشوة سارية في أعصاب الخيال، تفاجئه خلالها الحضارة ماثلة مزهوة في دورة من الحنين إلى سكرة المجد التي ارتشف الخيال فحوى خلودها.

سمع من يقول في ندوة السطح:

- الله كلمة الحضارة تجلت على رمال قاحلة حول الغار؛ فانبجس الماء الطهور. كن قطرة ماء للوضوء وانظر إلى زهرة الجبل مُصغيا لنورها وهو يسبح بالجمال، فحيث يكون نور الجمال تكون كلمة الحضارة ومنابتها.

رفع ذراعه وراء الطبلية بقطعة سيفساء يتساءل:

- أليس هذه كزهرة الجبل؟

استقطبهم التشبيه ممن يصفونه:

بمعرفة "كانط القبلية" تساؤلًا لها براهين، وتعليقًا لها مطلقة؛ فالسؤال عن الله إثبات لوجوده، وهي مطلقة لأن فكرة السؤال أكمل من فكرة الإجابة.. تبسم معلمه قائلاً:

- هي كزهرة الجبل.

قال محروس مستعرضا المرتفعات بقطعة الفسيفساء:

- فيم دفنت فوق؟!

حدبته نظرة أحدهم وقال:

- لم تجد خيالا يعطف عليها!

- أو خيالا يسبح بجمالها!

- بواعث الجمال مصدر كل قوة في الحياة.

- وبواعث العطف مصدر كل جمال.

- نعم، قطرة الضوء جميلة وأجمل منها قوتها المفجرة للصخور!

- باني الحضارة ليس كمن يسبح بجمالها لذلك سبق التسبيح البناء!

سألهم:

- فيم احتضرت تلك الحضارة؟

استعرض أحدهم المرتفعات بذراعه مثله وقال:

- هذه آكام ورائها ما ورائها؟ وليس في باطنها إلا سياسة "حريم

القصور" أما باطن واقعنا فليس إلا سياسة "شيوخ الخيام".

ثم انهارت على ألسنتهم دول، وعروش، واغتيل من شئت، ومن لم

تشأ من الخلفاء والوزراء والقواد، وضربوا مثلاً بالوزير ابن العلقمى

السنى الذى استباح ابن المستعصم الشيعى كل ما يُصان من الحرمات:

عرضه ونسله وشيعته ومقدساته!

- لا تصدقوا أن خيانة ابن العلقمى هي التى فتحت أبواب بغداد

لهولاكو؛ وإنما تلك الأبواب فتحت مذ انفرط عقد القطرة الطهور على

أسنة الترف المهدر لقوى الحياة الدافعة، والمهلك لقوى الحضارة القائمة!

ونظر آخر للمعلم كأنما يردد عبارته:

- كل الذين قالوا ابن العلقمى فعل هم الفاعلون. الخنجر والنقوش

بقاع النهر لمن أراد الغوص؟

ولما ضربوا مثلاً بسياسة "حريم القصور"؛ أرخ محروس يوماً جديداً للهروب، وصعد المرتفعات غامدا بعروة سرواله خنجراً خشبياً نقش فراغاته عشم النجار صانع النعوش لعم نحمله، ثم تشرم لقماقم العطور ونقب عنها في مخلفات الأفران وبقايا القصور، واستخرجها أنصافاً وأرباعاً وجذذاً، ولما كان الخيال كاللعب لذة مستغرقة في التعب؛ هبط إلى محيط البرج وهو يستجمع صور مشهد، قد توارد معظمها في مخيلته أثناء التنقيب.

أخرج من الحقيبة كراسة الشذور والقلم، واتخذ من مسطح الجدار المقبوض منصدة.

استهل المشهد وخليفة من الخلفاء منضوياً^(١) إلى عامود من أعمدة قصره، وكان شغله الشاغل أن يستأثر بتركيب عطر يدق شذاه، ولا يالتبس بعطور من يطمعون في الخلافة، ويجعل الخليفة يئس، ويرتاب، ويسئ الظن، ويتوجس من ظلال الأعمدة حوله ومن وقع أقدامه كأنه يجهل أن له أقدام تمشي.

ثم يُخرج له من بهو الحريم نعامة مُعلق برقبتها قمقم عطر الخلافة، ويجعله يصدق أن النعامة مبعوثة الغيب ولكن الغيب أيضاً يرييه؛ فيستطلع متوارياً خلف الأعمدة وكلما أراغت^(٢) النعامة ظلّه وهو يذهب هنا، وهناك؛ تنام تصديقه بأنه الخليفة المختار وليس أحداً سواه.

ويُختتم المشهد والخليفة ناسياً للغيب شغوفاً بالنعامة، وكما أراغت النعامة خطاه وظله وذهابه يمناً وشملاً، أراغ هو خطاها وظلّها من عامود إلى عامود؛ حتى اندس ورآها في بهو الحريم.

(١) منضوياً: ملتجأً.

(٢) أراغت: تتبعتّه.

ويُستهل المشهد الثاني وجارية من مجلس الحریم تقتعد ظهر خصي بنافورة البهو، وتغطسه طالبة منه أن يكتم أنفاسه في الماء من أجلها؛ زمنا أطول مما كتبه للجواري السابقات، ثم يدخل الخليفة ويتصدر البهو ووجهه متغضن بأمرات الهم. يهين المجلس للتسرية عنه؛ فيبثهن همه قائلاً:

- لم تقل لى واحدة منكن كيف ندرّب أنوف الرعية على عطري الذي كشفه الغيب؟

قالت حاملة الدف:

- ما الرعية إلا نحن يا مولاي!

ونفضت أخرى تقبل نحوه وتقول:

- وليكن أنفى أول أنف يُدرّب على عطر مولاي.

تقطع حاملة الدف عليها السبيل قائلة:

- بل دعى مولاك يطوف على رعاياه بعطره.

وعلا صوت رزين قالت صاحبتة:

- الرأي يا مولاي أن تخرج إلى رعاياك الحقيقيين؟

فأسكتتها الناهضة:

- ولم لا تأتى الرعية إلى مولاها؟

فتضرب الدف حاملته قائلة:

- هاتهم يامولاي إلى الدف والنأي!

قالتها والخصى يشق ماء النافورة قالبا الجارية، و يخرج من

الحوض وهو يكاد يزهب؛ فيهتف بمن الخليفة:

- أتنن هالكات هذا؟!

وترعت واحدة بخفة صوب الخصى، واستنهضته قائلة:

- إليك مبعوث الرعية يامولاي!

فتفحصه الخليفة كما يتفحص هواتف الغيب، وأوماً لمن بإفاقته، ثم
كَمْش إزاره إليه وسأله:

- كيف ندرّب أنوف الرعية على عطري؟

قال الخصى:

- وليكن عطر صاحب العزة هو عطر رعاياه!

استملح الخليفة رأيه وتفكر فيه، ولكن وجهه تغضن بالريسة

والتوجس!

سأله مستنكراً اقتراحه:

- ألا تعلم أن النعامة جاءتني بعطر العناية الإلهية؟!

لمح الخصى قدم الخليفة وقال:

- عناية الرعية من العناية الإلهية.

قال الخليفة بلهجة حاسمة:

- ماذا تقول في عطر النعامة؟!

يستفزه صمته فيزجره:

- عطر النعامة أم عطر الرعية؟!

يضيق ذرعا بصمته فيتوعده:

- صوتك أو عنقك!

فقال الخصى مُستجيراً بوفاء الأمانة:

- قمقم النعامة فارغ يا صاحب العزة!

فيقبض الخليفة على القمقم المعلق برقبته ويصيح به:

- إنه الظن أكذب الحديث!

يقول ورأسه يهْمُ إلى رقبة الخليفة:

- القمقم بيد صاحب العزة إن وجدت فيه عطرا؛ فربقتي فداك.

فيصيح به:

- أنت عدو الغيب!

- ولكنني صديق صاحب العزة.

- وجهك سوف يطاردني ما بقيت حيا!

- إنني رهن مشيئة صاحب العزة.

- أنت عدو الحقيقة!

ويُختم المشهد والخصى حبس قمقم يُماثل قمقم النعامة، وقد أحاط به مجلس الحریم متمايلات ضاربات الدفوف مرسلات نغمات الناي! بينما الخليفة تسنم ظهر النعامة، وراح يطوف من وراء حلقة الحریم حريصا على ألا يتراء هو والخصى بتاتا، ويخطر له وفائه؛ فيهتف به:

- أنت عدو الحقيقة، أنت عدو للغيب!

ويفتح المشهد الأخير وزمر الطيور تترادف في الأشعة الخائبة يقودها طائر الحضارة وفي عينيه عزم الهجرة ويصدح لسانه:
"والخيال كالوعى حين يزهد في الحقيقة يتوحد بها!"

فتجنح زمر الطيور إلى طنين من دفوف الدراويش، وكركعة من أسواط الجلادين، وعطور بعدد الحریم والقصور. جميعها تنصب ببرج بابل المعلق، وقد أطلق الوزير من شرفته البومة البيضاء؛ فمرقت ناعقة ببشائر كغوارب من قطع الليل؟ ثم نطف ثغرها القطرة الطهور على أرض غير الأرض، وبيقعتها توحد الخيال بعبرة كالعماء تشبه الحقيقة؛ فمثل محروس أمام هولاء كونه المستعصم في ذلة الخشوع، ويستثنى من خشوعه عينه المنكسرة على إزاره المزين بقماقم العطور!

جاءه صوت هولاء كوا:

- بم هزمت أيها الخليفة؟

- إنه الكسل يامولاي!

- والزهو يزهو فى صوته:
- ويم انتصرت أنا؟
- إنه طموح المغامرة يامولاي.
- ولهجته متصاعدة تلمزه:
- من الذى أخفى سبائك الذهب الأحمر؟
- وعشرة المباغنة توقعه فى عشرة الكذب:
- إنه الغلام "بُهْصُوص"^(١) يامولاي!؟
- ولهجته تتوعد الكذب:
- ومن هذا "البُهْصُوص" أيها الخليفة؟
- يتجأجأ مُتهتها:
- إنه اسم "الدلع" لى يامولاي.
- ينادى هولاكو على الوزير.. يدخل وبشماله البومة البيضاء. يسأله هولاكو:
- ما أمثل عقاب يستحقه الغلام "البُهْصُوص" أيها الوزير؟
- ينحرف طرف الوزير إلى قماقم العطور قائلاً:
- جرده من الإزار يا صاحب المنعة!
- يشيل المستعصم برأسه من ذلة الخشوع متوسلاً:
- إلا قماقم الحريم يا مولاي، فما اطلعت عليهن شمس ولا قمر!

(١) البهصوص: هو الأشياء..

تتباعد أيام الهروب من المدرسة، وليس في دنيا المرتفعات، أو دنياه في المرتفعات، إلا مسارب العطور، ودفوفها، وأسواطها، وغبارها، وغواربها.

ويهبط من ذروتها؛ ليداوم على تدليك جسدى المرأتين بزيت الكافور، أما جسم جدته فمتهدل خمول تفتر فيه الحياة كأنه يشيح عنها بأهدابه المتكسرة في تغضن عابث.

وما أدراك ما الآخر؟ جسد لدن أمرد لم ينقص ولم يزد مذ استوي على نضارته. هو وروح صاحبتة سواء. الغير لا تعتريه ولا ديب السام^(١) إلا أن يكون الموت ذكرى تدب دبيبها الأبيد في أوصال أم وجيدة، هي نفسها تقول:

"الموت أبد الحياة وباب رحمتها! يظل القلب على غرارته حتى تأتيه غُرّة المنية!"،

وطالما سمع غنتها:

"يغيض^(٢) الماء والسام لا يغيض؟!"

جسم نعومته براق لا تغمض عنها العين. تمطره الأحزان؛ فتتركه صلدا بلا تغضن. يرفع أصابعه المنضغطة في ليونته؛ فيتورد في ميساء خلد، بينما جسد جدته يشحب ويتكرمش!

هذه يُجبر أوصالها التدليك، وتلك يسرى التدليك في أعضائها سريان الموجة في البحر، والتبار في المصباح.

جدته تخمل ويجذبها النوم إلى تفتر الرقاد، وهى هجود^(٣) تجذب

(١) السام: الموت.

(٢) يغيض: يذهب في الأرض.

(٣) هجود: أي ساهرة بالنوم.

النوم إلى صحو النبات!

ولم تكن مقارناته هذه إلا استلهاماً لأنوثة سوسن الرافلة في ثوب الطفولة. في عينيها حور جدته، وفي وجهها ديمومة النضارة في أم وجيدة، إلا أن تعاتبه فهي فراسة أمه:

- فيم يأخذك الهروب؟

- وأين الأغصان؟

زميلة الفصل المتندر بتجمده على قمة الواحد. صورها الخيال أمداً طويلاً "قممها للقلب"، تذيب نشرة الطابور كل صباح، وتتلو مآثوراته من الحكمة والشعر. وجه متورد هو الزهور تنسم أريج النور. يبدّر ثغرها بفضول برئ كأنه صبو الأنوثة اليانعة. سبجها بين الآلات في حجرة الموسيقى، ولا سيما استواؤها على البيانو؛ جعله يُصدق كل ما سمعه عن بنات الماء، وعدّها واحدة من هن تحوم بصخرة المدرسة بين أشجار الكافور، أو ساجحة بين أوتار البيانو كنغمة من نغمات عزفها السهل الرشيق، وفي الرسم كان لهما مساحلات ومغازلات رمزية..

رسم اسم الإشارة "هذه" وقد جوف حرف الهاء وأوسع له مكان بيانو ومقعد غابت عنه صاحبه، فتبسّمت متناولة كراسة الرسم، ورسمت اسم الإشارة "هذا" وقد أظلمت حرف الهاء إلا من نقطة بيضاء تطوق رقبة طائر لا يقوى على الهروب!

كان ينثر لها أوراق الكافور في العصري والمساء، بكل موضع تكلمها عنده داخل المدرسة، حتى صباح يوم الهروب قد تجدها على البيانو، أو بدرجها، أو في مقبض الميكروفون، أو حجرة دادة "نعيمه"، ولا تدري متى؟ نثرها وكيف؟ وظنته يستعين بزميلهما "أكرم"، ولم يحظر ببالها إنه يستعين بعم بيومي حارس باب المدرسة. بلديات جدته

ومخبرها الخاص، يُعلمها هو أو زوجه بأخبار البلد والمدرسة وتحاييه الجدة، وتعدّه وأولاده من أهل بيتها، ولا تسهو عنه في موسم أو مولد أو صدقة أو نذر، وكلما سنحت سانحة من النذور فكر محروس في مفاجئة سوسن بأوراق الكافور حيث يضعها في مواطن الذكرى داخل المدرسة. كأن يقول لجدته غير منتظر قدوم امرأة عم بيومي إلى البيت:

- دعيني أدخل الفرحة في قلب عم بيومي!

فترسله بلفافة اللحمة سارحة في شطحات خياله، وقد كانت فرحة الرجل بالنذور، والهدايا، وبكل ما يوصله محروس لديه؛ عوناً للطائر والزهرة أن يتواصل على جناح الهروب، وبينما كانت امرأته تدعو للكرم ابن الكرماء، كان زوجها يلاحقه بصوته:

- إلى أين تذهب؟ الباب من هنا! هل أوحشتك الفصول الفارغة؟

ليس هناك إلا رهبة الظلام!

وما رهبة الظلام من رهبة الجنان؟ تريق الجسارة، و ثم مواطن روحها سوف يزورها وينثرها أوراق الكافور، ولن يرهبه الظلام أن يجلس على البيانو أو في حجرة الرسم، وتتباعد أيام الهروب ويحتدم بالصبو شوقه؛ فيتزل من المرتفعات مُختصراً الطريق إلى بيتها من درب الصياغ، ويجلس على إحدى مصطبتي مسجد المارداني، وقبيل المرواح يدخل البيت ويضع بنافذة سلمه ورقة كافور هي ميلاد يوم جديد من أيام الهروب. فيوافيها عطرها قبل أن تتفقد عينيها، وتأخذها منطلقة إلى حيث ترصده من خلف شيش الشرفة، وعلى حين غرة تظهر له ونظرتها كهديل حمامة، وقد يشير ذراعها إلى مدخل البيت؛ فيمتثل كتمثال خجول إلى أن تنزل مُشهرة ورقة الكافور، وتسأله:

- ألهذه الوريقة تهرب؟!!

فيقول:

- إن صعدت إلى شرفة المئذنة سوف تدلك على أشجار الكافور،
كما استدل بالمئذنة على شرفتك وأنا بين أشجار الكافور!
قالت وعينها على هديلها:

- لا تذهب حتى أراك ثانية من الشرفة!

وبين أيام الهروب يدق جرس "الفسحة" فيختلس معها وقفة
عابرة.. يُسلمها هدية عيد ميلادها ويتركها كأنها لم تكن معه ولم يكن
معه، ثم يتسلق سلم السطح الحديدي والمثبت بجدار حجرة تلي الرسم،
ووسط السطح يدور مع طلاق الأجنحة الطموحة والمشوقة إلى قبس
الزرقعة، وقبس الجنان.. نادى الجِدُّ:
"ها أنا ذا كنتكوتك"،

وتزعزع قلبه ومخالب صوتها تشكره وتقول:

- إن غيبك الهروب فهديتك معي في الفصل!

استدار وقلبه يهوى في سَقَاطة البوابة المحروقة، وكما حولته تماثلاً
على حين غرة؛ فعلى حين غرة لثمت خده مُخلية له سطح المدرسة.
استقبل أفق المرتفعات كطائر برى يصدح لبنات الماء كأنما يستدعيهن
من أشجار الكافور إلى سطح المدرسة:

هي نبض الخطر، وقمقم القلب، ووهلة دقاته. تدق للبشر والندير،
والسكون والمطار، وتحفظ للطائر البرى دقات العودة ولكن إلى غير
غصن!

- فيم يأخذك الهروب؟

- وأين هي الأغصان؟

انقطع الماء زُهَاءً عصر؛ فبرح عم نحمده حوش البيت "بالجركن" عسى أن يجد ماء في حنفية ساحة الباطنية، وقد أبقى حيلة وحده مع صديقه المتوفى المُعْدَم. "نبوي" مقرئ القبور والموالد من ساعة، والمدرج أنفاً على خشبة الغسل! أبقاه مغموماً يتكلمه^(١) ويتعمه ولا يقر له قرار من الخشبة إلى الدهليز إلى الحارة في حركة دوارة، أو يفعل ما تفعله أم وجيدة ويرفع البطانية عن وجه نبوي ذاك الشبيه بقرين القبور من طول مكوثه بين الشواهد مرتلاً ومنشداً ومبتهلاً ونائماً، وإنه ليدوم النظر في خشوع ملامحه عكمه^(٢) النوم؛ فأناخ له باركا حيال خشبة الغسل، وبلوعة الفراق زحزح عبال جسده مُتَمَدِّداً أسفلها، وما لبث أن سمع نبوي يرتل:

"ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر"؛ ففتح عينيه على "جردل" الغسل وتزحزح مرة أخرى من أسفل الخشبة، ثم تناول الجردل قاصداً ثلاجة "مينا" البقال، فيما يلي الحارة. حاز الجردل على فم السدادة، ونزعها، ولكي يشعر مينا وامراته بوجوده برطم بغير شيء، فقالت المرأة:

— ماذا أخذنا من لسانك يا حيلة؟ أرنا وجهك!

تحرك بمقدار خطوتين تفصلان الدكان عن الثلاجة، وكان الاثنان يفهمان رغباته من عينيه وليس من لسانه. فنظرة السجائر غائمة، والجبن والحلاوة خمصى، والشاي والسكر مُلهوَجَة، والعسل الأسود منشكعة بالابتهاج، ونظرة الخبر السار كنظرة الموت قلقة خجلية، ومن ثم قالت له المرأة:

(١) يتكلمه ويتعمه: لا يدري أين يتجه.

(٢) عكمه: لجمه والعكام الحبل الذي يشد به البعير.

- ما جرى لك يا حيلة؟!

وكمين ينفض السهو عن امرأته أشاح مينا بذراعه قائلاً:

- حيلة يخبرنا بموت نبوي!

تغاضت نظرة حيلة عنه إلى الثلاجة؛ فضربت مفيدة كفها في الهواء متذكّرة ولعه بالمثلجات قائلة:

- يخبيك يا حيلة! أليست الثلاجة قدامك؟ والله ما يد بأطول من يدك على قواريرها!

وتهكمت مخاطبة زوجها:

- فض له المغاليق عن الثلاجة المفتوحة؟

ولكن تدقيق مينا في عيني حيلة أخرجه إلى الثلاجة وشاهد الماء ينسكب في الجردل، ويطف برفائق الثلج؛ فحسبه سيسقى الأرمـد من ماء الثلاجة.

قال يحذره:

- ألا يكفي رصاص البرد؟ حتى تبلى الأرمـد برصاص الثلج!

برطم حيلة فأسكته مينا ضاربا الهواء في وجهه قائلاً:

- لا ذنب له يا حيلة!

واستعطفته مفيدة:

- الماء عندنا فوق يا حيلة، ارحمه!

صمّ فم الثلاجة بالصمام، وسحب الجردل واعتدل مخاطبا كليهما

بعبارة كلحن العجين في جرة؛ إن قيسـت بالعبارة السابقة، ومعناها:

"أن نبوي دله على الماء!".

حمل الجردل، وجاش مثقلاً بعبال الهم، وعبال لحمه إلى حيث يُكرم قعيده في العزوبية، والعفاف، والمدافن، والموالد، والعقائـق، والحضرات، وحيثما تلا نبوي القرآن. عطّر الماء وحركه في الجردل حتى

ماعت^(١) رقائق الثلج، وتعطر الحوش، ولما شرع في الغسل والتقى ماء الثلج بالجسد الواهي المنحول؛ تصاعد بخار توهم حيلة أنه بخار المغطس في حمام الدرب الأحمر، فانتحب ووارى السوءة التي لم تُهتك حيث تعرى حيلة والرجال على مسافر الحمام.

وهل هتكت في فراش امرأة؟ وابتهل له الخشوع في ملامح نبوي حتى راعته صأصة^(٢) عينيه المغمضتين، وأرتعاشهما؛ فجذب البطانية طامراً وجهه غير صامد لغفق الانتحاب. أناخ مزحزحا عباله وتمدد أسفل خشبة الغسل، وكأتما نام حيلة في أسافل مجهولة لمن كان نومه كنوم حماره؛ حتى أنه قد ضُرب على أذنيه ولم يسمع نداء البدوية الحاد الملوم وهو يتوالى من الشباك مدويا في الحارة:

"يا حيلة يا وخمة الدنيا! قم يا موخوم. أنت في الوخمة ونحمده في الوحلة!"

تقصد وحلة حنفية المياه بساحة بهادر.

كان منظر زوجها اللاهث الجهود وهو بطُرة^(٣) الحارة، يستريح إزاء "جركن" الماء قد حاد بسحيتها الودودة مع حيلة. تحامل عم نحمده واستأنف السير بالجر كن، ومتصديا لنداءات زوجته، إما بإشارة، أو كلمة، أو إشاحة، ثم تدلى إلى الحوش ليجد حيلة أسفل الخشبة يرتعش مناديا من الحلم بفصاحة نادرة:

- يا نبوي، اقرأ السبع المثاني؟

هالته الشبهات. الماء المتقاطر من خشبة الغسل، والماء الملتوث

(١) ماعت: ذابت.

(٢) صأصاً: حرك عينيه مغمضتين.

(٣) طرة الحارة: ناصيتها.

بتراب الحوش، والجو المعطر، وحيلة نفسه الغارق في البلبل، ونداء نومه الخفيف الذي استحال إلى نوم أهل الكهف:
"يا نبوى! اقرأ السبع المثاني".

هاهو الجردل فارغ. إذن الماء ماء الثلاثة كما أخبره مينا، وتعجله في إدراك الأرمذ وليس نبوي. تمنى لو يُذمذم الضحك في صدره كالرعد. هو الذى يدخر الضحك لغيره من الناس ويصدق أمثال الناس:
"من ضحك ونفسه يُظن بعقله الظنون!".

ويقول لهم:

- من يُضحكنا كمن يُكيّنا مخلوق "رباني" أما الذى يضحك وحده فهو كالذى يموت وحده. أثرة أنانية من أثرة! ولكنه القائل:

"في الدنيا ضحك كثير كالدواء، لا يتعاطاه إلا مريض، وعند الإسراف العطب!"

شبهات معروشة بيد هذا الذى اختار لغفقه نومه مكانا يُضحك ويكيّ أزواج سفينة نوح المتسائلة في شعر حنفي عن "حبيب" أم وجيدة؟

وما هذه النسائل المتبخرة والمحيطة بخشبة الغسل؟ وأخرى دقت كأنها ضلالات البصر تعرج فرادى من نسيج البطانية وحواشيها. ضلالات كشعيرات اشتعل شبيها. استعرض وجه حيلة وجسده المبلول، وحسب أن النسائل المتبخرة المتجمعة حول خشبة الغسل مصدرها منخريه وحنكه المغفور، بل وجسده حارق الغرائز بوازع من الغرائز؛ فغض الطرف عن جسد عارم بالأنوثة واجب أبوي، فهو كأبيه آدم أب لجميع النساء، ويسترجع له نبوى آيات خلق آدم فيستعبر ويقول:

"لو كنت مع أبي لأكلت من الشجرة!"

ناداه عم نحمده؛ وإذا بجيلة مُغرورق الجحوظ، يتغاضى عن سقف خشبة الغسل المتقاطر بعطور الجسد المتبتل الخجول. ترحزح عن سقف الخشبة بأثقال الغم والعبال، وتناهض هموداً كفيل يُضعُضُ أركانَه الخمول.

شخص لحجاب الموت بوجه نبوي وشرع في هتكه ورفع البطانية عنه، ولكنه فزع وخطف قلبه من صدره والبطانية يهتر باطنها، ويصدر عنها غُناات^(١) تلاوة خافتة كنغشات^(٢) الموات، أو العودة من غشيته. تناهت إلى عم نحمده؛ فقدم إلى الخشبة، وببلاهة حمارين كما قال:

"استوعبت أنا وحيلة أن نبوى حي!"

وقال:

"تغاضى حيلة عما شاهد وسمع واستجار من خبل النوم بثوبائه، وتواصل حوار التثاؤب حتى مضمضه^(٣) النوم واقفاً، ولكنني طرقت ظهره طرقة الحديد الساخن قائلاً:

"نبوى حى يا حيلة!"

تماوجت البطانية من أقصاها إلى أقصاها، وتساعدت غُناات التلاوة متعاقبات متحشرجات، وكمصارع أرواح نزع حيلة البطانية، وإذا بنبوي زائع البصر يرتل:

"لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً".

حسبها حيلة حشرجة الحلقوم؛ فالترزم أذنه يمليه الشهادة.. سألَه

نبوي:

(١) الغنة: ترخيم الصوت وخروجه من الأنف.

(٢) ونغش: تحرك بعد أن غشي عليه.

(٣) مضمضه: دب النوم في عينيه.

- أين أنا يا حيلة؟

وتكزز متقبضا مرتعداً يبتهل:

- يا ملائكة الرحمن! نحمده نقض غسلى بالثلج!

طوقه حيلة مقيما نصفه، وأحكم البطانية عليه، وبنظرة طويلة
مستطيرة، استنجد عم نحمده، فثبت هذا لرجعة الموت أيما ثبات، وما
ارتاب في أن خشبة الغسل من الساعة، وحتى وفاة نحمده، ستكون
مسرحا للضحك. قال مستدرجا نبوي إلى مساجلة مرسله:

- دفتنك عسيرة، عسيرة يا نبوي!

سأله وهو يكز بين أصلاب حيلة ويشطر بصره بينهما:

- أين أنا يا نحمده؟

- لقد أخطأنا قبرك!

- أنزلتني قبر من؟

- قبر الخديوي!

فيبتهل:

- يا ملائكة الرحمن!

فيعيده إلى الآخرة:

- ما أعسر دفتنك!

يعاتبه وصوته منسحب في الحلقوم:

- بل ما أعسر خطأك يا نحمده!

فيحرض نفسه اللوامة عليه:

- بل ما خدمت القرآن حق خدمته يا نبوي!

كالمبتهل:

- أخرجني من تراب الملوك يا نحمده!

ثم كز^(١) كزا مميتا يتقبض بروحه، فجاش حيلة وقصفت حنجرته
عبارة معناها:

"الروح تنزع من عظام نبوي!"

فأشفق عم نحمده قائلاً:

- لفه بالبطانية واصعد به إلى حجرة الطاهر حتى أرجع بالدكتور
دسوقي.

(١) كز: رعد وتقبض وتيس من شدة البرد.

بريح أعنى من أكاذيب أبريل تطاير النبأ "برجعة" نبوى كما تتطاير
حبوب اللقاح، ومن ثم أخصبت أخيلة وشُحذت ألسن؛ مُمحضة
أسطورة وعى منها الناس حنينهم إلى ذكرى سحيقة كأثم ذاقوا ثمرة
الموت وهي هنالك على شجرة الخلد!

الكل يغره ذلك الحنين وتلك الثمرة، ولكن هل عبثوا بما يكون بعد
"الرجعة"؟ أهى حياة موصولة بأصلاهم؟ أم موت بعده بعد؟

كالأحياء بدا نبوى على فراش الرجعة!

وكنكتة قائمة بذاتها، أى مستقلة عن نكتة إحيائه بالثلج، بدا في
كسوة نحمده المتضمنة طاقيته البيتية الشهيرة والكوفية، وذلك ما عمل
له عم نحمده مذ ثبت على خشبة الغسل وحتى برز إلى جواره على
فراش الطاهر بنفس الطاقية والكوفية والجلباب؛ فألهم كبار الحضور
وصغارهم فنون التنكيت.. تهدى إليهما "جميل" طفل مينا وبسط كفه
بينهما يسألهما:

- من منكما عفريت نبوى؟

فقال نحمده:

- لا أحد يعرف غير نبوي!

لوح الطفل لهما مسائل:

- ومن منكما نبوى؟

فراوغه:

- لا أحد يعرف غير عفريت نبوي!

فرجره بإصبع السبابة قائلاً:

- أنت من؟

فقال:

- تعال بكره وحدك وأنا أقول لك!

فتحول إلى نبوى وزجره بنفس الإصبع قائلا:

- أنا الملاك، واني أسألك من أنت؟

كز تقبض الضحك نبوي وهو مزمل بغطاءين؛ فيما قام مينا إلى طفله ورجع به إلى حيث يجلس، كأنما يستنقذه من ضجة التضاحك، أو لعله يعفى نبوى من جهد الإجابة، ولكن نبوى قال لمينا، وقد نظر إليه مليا:

- كنت تسألني في القبر مرارا عن دين الزيتون والجبن!

فقال مينا ماسحا ابنه:

- خذوا أموالكم من بفأل عيالكم!

وتضاحك وقال:

- إن سألك ملاك الحساب عن اسمك؛ فقل له أنا نحمده وليس

عفريت نبوي!

قال زميل مقرئ كفيف:

- وإن أرتاب الملاك فيه؟

قال مينا:

- يسوقه إلى فأنا أولى باللحم ثوري!

قال تمرجي الدكتور دسوقي:

- يسوقه إليك أم إلى الثلاجة؟

فأجاب عنه عشم النجار:

- بل يسوقه إلى ابنه الأريب!

قال التمرجي:

- ابن مينا مشغول بالعفاريت والملائكة، وليس البشر!

قال المقرئ الكفيف:

- إذن، سيبقى الارتياب قائما كما أراد مينا!

قال مينا:

- مينا لم يرد سوى أن يدفع نحمده ثمن الجبن والزيتون على يد ملاك.

كان لضحك الرجعة وتوابعه مذاق الحنين إلى استدامة الحياة؛ فاسترسلوا في حاضرها.. وسأل المقرئ نحمده مشيراً إلى نبوي:

- بالله عليك ألا يُشبهك؟

فنسوا جميعاً أن المقرئ السائل كيف، إلا إنهم ضجوا بالضحك وعم نحمده يسأله:

- وأنت شايف إيه؟

فقال يقرظ نحمده تقرّظ العميان:

- هو أنا أشوف أفضل منك يا نحمده!

ضحك نحمده من قلبه، وأراحه قليلاً ثم قال:

- ما أشبه نبوي بنصفي الشمال!

فسأله مينا:

- وإن خلع الطاقيّة؟

فقال على الفور:

- سأكون أنا نصفه الأيمن!

وكان حيلة قد ذهب لإحضار هلاهيل نبوي من حوش قرافة أقام فيه زمناً بجوار مدفن الأسرة المالكة، ولما رجع بالكارو وقف على الثلاجة، وأخرج منها زجاجة مثلجة فلم تمهله "مفيدة" وخرجت من الدكان تقول له ومن خلفها بدا أكرم ومحروس:

- رجعة نبوي وقفة علينا بخسارة يا حيلة، أو كلما مررت بالثلاجة

فتحتها يا حيلة؟!

وضربت الهواء بينهما بكفها قائلة:

- وإن شاء الله، متى تنسد حنفية الزجاجات التي فتحتها علينا الموت الكاذب؟

فقه حيلة وهو يفتح الزجاجاة بأسنانه، وشاركه الاثنان كتكتة^(١) الضحك، ولكنه شخصا إلى هلاهيل نبوي، وبعبت حنجرته مخاطبا أكرم ومحروسا بما معناه:

- أَدْخِلُوا الْكَارُو وَالْأَرْمَدَ إِلَى الْحَارَةِ، وَاصْعِدُوا بِحَاجَةِ نَبَوِي إِلَى نَبَوِي!

والنفث لمفيدة يبيع لها، بأن تعلي الراديو لكي يسمع خطاب الرئيس السادات..

دخل الاثنان مجلس الرجعة بدون الهلاهيل التي أنزلاها على خشبة الغسل بناءً على أمر البدوية. ركز أكرم عينه في عين مينا، وقال:

- مفيدة تحاسب حيلة تحت على زجاجات الموت الكاذب! فاهتاج المجلس بالضحك ومن خلال الهياج علا صوت المقرئ يقول:

- عائلة مينا نصبت لنا الميزان!

وسأل مينا ابنه بلهجة تشهد المجلس بمآثره:

- أو فتح حيلة زجاجة جديدة؟

فأجاب بلهجة تحسر السائل:

- ويشربها الآن على صحة خطاب الرئيس السادات!

تريث نحمده حتى يلتقط المجلس أنفاس الضحك، وقال:

- حيلة مغرم بصوت السادات، وقد أفهمني في سرية تامة طوال عام الضباب الفاتت أن السادات مثل بدر المسحراتي؛ إن مات؟ مات

(١) الكتكتة: دون الفقهية.

والقراع والطبلة في يده!

صمت المجلس واجمأ، وكأن قراع المسحراقي تدق بقلوبهم، فيما نظر
عم نحمده لمحروس وقال باسمًا:

- أم وجيدة سألت محروسا وهو يجاورنا بالحجر الصوان: ما الذي
أدهشك في رجعة نبوي؟ فردد لها عبارة نبوي العالقة بدولاب الزمن،
وبخيال طائر السور الأسود:

"أخرجني من تراب الأموات يا نحمده!"

ثم أخرج من حقيبة المدرسة كراسة، وقرأ لنا فصلا مسرحيا مدد
فيه الملك فاروق على خشبة قمار وليس خشبة غسل، ولم يُحيه بماء
التلج، وإنما أحبيه "برمية زهر".

سألته أم وجيدة: هذه خشبة الملوك. فماذا عن خشبة نحمده؟ فردد
لنا عبارة أستاذ الندوة قائلا: أم وجيدة ونحمده جنديان في ساحة الموت
لن تمسهما الماء، وسوف يتيممان صعيذا طيباً! فتوجته أنا وهي
بصولجان الإعجاب، وقلت له: هذه من عجائب الملك يا بني، أن يؤتى
مثل هذا الملك من الحظ ما لم يؤت ملك قبله، وهو الذى أنفق حياته
على موائد القمار خاسرا، ثم يحيه خيالك على خشبة القمار برمية
حظ؟! ولكننى أسألك: لِمَ أحيتته؟ فقال: لكى أسأله إن كان يريد أن
يدفن في تراب الملوك، أم في تراب تل الطاهر وأصحابه؟ قلت متغاضيا
عن لوعة الطاهر: حيلة يُميت السادات ميتة بدر المسحراقي، وابننا يحيى
الملك ليسأله عن موته، وأم وجيدة تحبى بالموت، ونحمده يتيمم بترابه،
والشيخ حنفى يزهد فيه، وأستاذ السطح يتفرج علينا!

وفاجأهم زغرودة تهلجل في الصالة، وترحيب من البدوية بصحبة
نسوة تتقدمهن "شوق" تاجرة مخدرات معروفة. كانت تتحصن من
السجن وهجمات المباحث بتراتيل نبوي، وتقتفى أثره في المدفن، وظعن

الموالد، ومظان لا يعلمها إلا حيلة؟ وكان نبوى يذكي فيها أنهما من أصحاب الملمات؛ لذلك لم يُجافيهما في ملمة أو مصاب أو حضرة أو عقيقة أو استغائة. وقفت شوق على باب حجرة الطاهر وهى تقول:

- لا مؤاخذه يا أسيادنا!

ولم تصمد "للنكتة" وهى تواجه فراش الرجعة، وأغرقتهم جميعا في موجة من التضاحك وهى تنظر لنحمده، وتقول لنبوي:

- أنا كنت فاكركه انك رجعت وحدك!

فهتف بها المقرئ:

- أنا من لحظة كنت أحاسب قرينه!

قال عشم النجار:

- ومينا أخذ من ذلك القرين ثمن الجبن والزيتون!

تبسمت "شوق" لعم نحمده وقالت لنبوي:

- سواء رجعت من نفسك أو أرجعك نحمده إلينا؛ فزيارة المريض واجبة.

ثم خاطبت الحضور:

- بيني وبينكم أنا قلت لنفسي: الحقي نبوي، وأتبرك برجعته قبل ما يشاور عقله، ويرجع للموت تاركا الدنيا لنحمده!

فهتف زميله المقرئ:

- حتى لو شاور عقله الثلج موجود!

تبسمت شوق لنحمده قائلة:

- ثمن الثلج عليك أم على المتوفي؟

فقال:

- من الآن وحتى حساب القبر ثمنه على مينا!

وأزعجها التمرجى بقوله:

- يقولون إن نحمده سيحول الثلج إلى بدرة!
أنقذه مينا قائلاً:

- يقصد بدرة تخنيط!

وجاء العون من نحمده فقال:

- ولو سألنا ابنك سيقول بدرة عفاريت؟

هيأت شوق نفسها للانصراف وقالت:

- أنا جئت بزغردة وسوف أذهب بزغردة.

فجلجلت صاحبة الزغردة الأولى بوحدة حال طول رنينها؛ دون أن يشكر نبوى "شوق". كان يعض الضحك بنواحه متقبضاً تحت الغطاء المضاعف، ومن مفارقات "الرجعة" أن الدكتور دسوقي كان يخشى على قلبه ومخه بعد ذهاب أثر الماء الثلج، وقد حذر عم نحمده من مغبة بقاءه وحده حتى تستقر حالته، وكاد يوصيه بمجدة الأطباء بالماء المثلج في تغسيل من عليه الدور! وذكره بكاء الطفلة "هاجر" في القبر، واستنقاذ كلب أم وجيدة لها في اللحظة الأخيرة!

كما ذكره بأنين واستغاثة "البطاطى" شريك شعلة في أرجوحة المولد وهو ينظر إلى التراب المهيل على منافذ القبر، ولم ينقذه إلا بكاء حفيده واستصراخ أمه بأن جده يتوجع حيث أنزلوه.. فأوصاه عم نحمده جادا:

- لو تلزم الحكومة طبيب الصحة بالثلج قبل التصريح بالدفن؟

وقد أعفت "حسن" الجميع حتى حيلة من ملازمة نبوى في أيام مرضه المعدودات. و"حسن" أرملة شابة طوافة تظهر في الموالد.. عشقت ما في صوت نبوى من تبتل وعشق هو ما في جملها من زهد: "حسنها زاهد في الحسن. حسنها فريد ليس الأجل ولكن لا قبح به". ويقول لها في غير موارد: "في حسنك عيوب الزهد تعافيه القلوب وهى واجدة حزينة!"

وكان عم نحمده يُصوغ له زواجها قائلاً:
- حُسن، عنب مجزوز إن أهمل عطن، وإن حفظ كانت مُدام
تبتلك!

فيحييه مرتلاً: "ربى إبنى لِمَا أنزلت إلى من خير فقير".
قال لها وهى تزيد الحطب في موقد التدفئة:
- هل تزوجيني نفسك بالقرآن يا حُسن؟
أجابته:

- أنا عشقتك بالقرآن. أما زواجى منك فمهره العهد؟
فأذعن قائلاً:
- وأنا عاهدتك.

وصف عم نحمده زواجهما لأم وجيدة قائلاً:
- كان عُرُسا مُطيباً بماء الغسل!
ولم يدرج نبوي كرة أخرى فوق خشبة الغسل.
وإنما أفضى إلى "حُسن" بما أفضى؟ ثم تعطر ووارى سوءته وقال
لها:

- عاهديني يا حُسن!
فقالت:
- عاهدتك يا نبوي؟

ما كان لرجعة نبوى أن تفقد الموت يقينه لولا خطأ طيب
الصحة..

ويقول عم نحمة:

"الناس يتلقونني متندرين يوصوني بوصية الدكتور دسوقي!
الثلج.. الثلج يا نحمة! أصبحت مُصرداً^(١) يشتدُّ بي صقيع من برد القبور
كأنى برد خائف، أو خوف بارد. من يطلع على أحوال حيلة يعرف
دائي؟

كنا قد تبضعنا وعدنا فوق الكارو من طريق الجبل، وكعاداته
استأذني حيلة كى يبول في برج الظفر، ثم ظهر حاملاً مُدمناً لا شك في
وفاته؛ ومع ذلك فكرت في الثلج، وفكر حيلة في ثلاثة مينا!
صرنا والشباب خلفنا صريع الكارو سافر وجه الموت، أى شاهد
مشهود لمن شاء أن يتعرفه؟

ألت بوجه الوجوه؛ فجزعت كأنما تلمُّ بوجه أدمن التقية وليس
أقراص الإدمان، وجه هو البرهان المنتظر الناس حيث يتقون لقاء
أنفسهم، أو يتقون أثر الزوال..

اجتزنا به بوابة الفتوح والمتولي وكل من اتقاه تساءل:

- ابن من هو؟

استكشفوا موته ونبضه وقلبه وأنفاسه، ثم تندروا:

- أو ينفع الثلج هذه المرة يا نحمة؟

هو الموت في وجه الرجل فقيم فقد الموت يقينه؟

أبقيته على خشبة الحنة لا يتقيه أحد إلا حيلة؛ فغفقه النوم جالساً
بجوار جردل الغسل، ولما رجعت باللوح الثلج فهمت منه إن وجه مينا

(١) مُصرداً: جذوع من البرد.

شق سقف الحوش وناداه قائلاً:

- يا حيلة، قم وغسل ابن الإنسان!

فيفصح له:

- الدكتور دسوقي سيرسل نحمده بالثلج!

فيعجل به:

- الملاك ان ينتظرانه يا حيلة!

سأله:

- هل عرفت أباه يا مينا؟

- قلت لك إنه ابن الإنسان!

فقه حيلة وعابته:

- وحيلة ابن آدم!

ثم غيب وجه مينا طُلُ دأئم من ثلوج الأهمر من سقف الخشبة، ولما

طمر حيلة تماماً؛ سمع ترتيل نبوى من فوق خشبة الغسل:

"إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين

ذرية بعضها من بعض.." .

كل أيام الهروب قد أرحها عم بيومي حارس باب المدرسة على نبوته، ولم يكن يتوان به المساء حتى يخبر جدته بضحي الهروب الجديد. وكلما نظر محروس إلى شمس المرتفعات تخيل نبوته حجرا أسود من أحجار الطير الأبايل يسقط من قبس الزرقة على رأسه. ولكن حارس المدرسة تكتم الخبر عن أمه بتوصية من الجدة، ولكي تسيطر هي على انفعالات مدرس الحساب وبخارها الهائم المتصاعد؛ ورطته في التدليس على أمه، فأعطاه درجات لا يستحق منها سوى قمة الدرجة الواحدة سواء في كراسة المدرسة، أو في كراسة الدرس..

قالت له الجدة وهي تذهب به إلى المدرسة:

- إجازة نصف العام قادمة إليك؛ فجرب أن تلعب فيها دون شعور بالهروب!

وضحكت قائلة:

- أسأل بنات الماء عن لذة العب حين يأتي العب في وقته ومناسباته؟ ألم يفهمك أستاذ الندوة أن لحظة الخطر مهمة؛ إذا ما كان الخطر يمثل شجاعتنا وضميرنا؟ جرب أن تعيش لحظة الخطر في وقتها، وإن لم تفعل ضاعت العبرة من مشقتها، وأغرقتنا سماء الخطر ولو كان الخطر ندى يتقاطر!

ومر الأثنان على الحجر الصوان الخالي على ذكراه، أو ذكرى جلسات أم وجيدة الصيفية بعد صلاة الفجر، فقالت الجدة باسمه:

- أم وجيدة سألت الشيخ حنفي: أنت مع هروب محروس أم ضده؟ فقال: أنا ضد سياسة التعليم التي تجعل من التعليم وظيفة حكومية وليس وظيفة عقلية، ومن المتعلم موظف حكومي وليس مسبار معلمي. أغاية العلم أن نكون موظفين ينامون على مكاتب الحكومة؟! فأيدته، وأيدتك قائلة: ما الحال إن جعلت الوزارة للهروب يوما من كل

أسبوع، أو شهر، أو سنة أبقى في الفصول تلاميذ في ذاك اليوم المستحيل؟ فقهقه الشيخ حنفي وقال: قولي أو يبق في المدارس مدرس؟ ضمته جدته إلى طابور المدرسة، ثم انصرفت. استرع وقوفه في الطابور اهتمام الصفوف؛ فحيته بتحية السبورة رافعة مسلات أصبع السبابة، كأنما تدعوه إلى قمتها، أو قمة الهروب المتفرد عليها. وأزاحوا ستارها على لمزة هنا ولمزة هناك:

- وقوفك هنا خطأ لا يغتفر!

- أو مغفرة لا خطأ فيها!

وأحدهم يشير إلى أكرم الواقف أمامه:

- أسألوا قرين الهارب إن كنتم لا تعلمون!

نال آخر من أكرم:

- السؤال لا يجوز إلا على القلب الشجاع!

أسكتهم أكرم ضاربا الهواء في وجوههم بكفيه وهو يقول:

- الشجاع منكم ينبث، أو يظهر نفسه للخزانة القادمة؟

وضبطت الخزانة الصفوف حتى رددت تحية المنادي:

"تحيا جمهورية مصر العربية....".

ثم تفرق صوت سوسن في الميكروفون كفراشة ألوانها البديعة وطيرانها الحالم المرتجل نغمات من نبراتها. رققة هي عبق الكافور، وندى وُريقاته، ومنها وريقات للصبو والهروب والخطر. عن له الهروب قافزا من السور والطواير تتلاحق زاحفة إلى الفصول، ولكنه اقشعر من رائحة هي بعينها رائحة الفصل، وسمع مدرس الحساب يقول من ميمنته:

- جدتك طلبت من الست النازرة إعطاءك درسا!

التفت إليه فتركز شذى عطره وأفعمه في مقتل، كأن زنادا

انضغط، فتدافعت مقذوفات السعال من صدره، والتوت به كل التواء
مُبهره شهقاته، ثم نشغت^(١) به في كتمة زفير، أو غشية خطر أقعدته
مُسلماً ظهره إلى رمال الفناء، وبيع قبس الزرقة دمع عينيه كأنها القطرة
الطهور تبحح في صفائها زمر الطيور إلى طنين من دفوف الدراويش،
وكرقعة من أسواط الجلادين، وعطور بعدد الحريم والقصور.. جميعها
تتصوب باب المدرسة المعلق كبرج بابل!

إنها المصادفة المطردة، في غصتها وشفائها وكشفها وخفائها!
طالما تمنى أن يستلقى معلولا بالفناء، كما هو الآن!
يا لروعة المصادفة!

مرضه الحضاري أهاب بالصفوف، بل إنه أرجعها من الفصول،
فكانت كمظلة الريش وفلول الكتاكيت، لم يفته لهفة من حديها الحميم.
حملوه كجثمان كتكوت.

أين الجِدَّة؟ وأين لؤلؤ الشمس؟
غفيرة السحب تزرح على أنفاس الصباح.
هل يترقق صوت سوسن بمأثورات مرضه؟ أليس لكلمة الممرض
نعمة كنغمة الصبو والأريج؟
مال رأسه إلى سارية العلم المثبتة بشرفة المذبايح، وناداه من وهاق
القمقم:

يا قمقم القلب وخطره ترققي!
يا أمشاج، الدقات دقي!
ويا ثغر الأريج، انقضى على هذا الجثمان في مصادفة كالمخالب
المعقوفة.

(١) النغش: الشهيق الذي يبلغ الغشي والإغماء.

إلى أين يسرون به؟ إلى المرسم، أم إلى حجرة الموسيقى، أم ذروة
القُبلة التي يتمت خده، وهوت بقلبه في سُقاطة البوابة المحروقة. بنات
الماء بظهر المرتفعات يعصرن أوراق الكافور، وهنالك نقع مثار بحافتها
أخذ أبصارهن فتساءلن:

- أهو نقع لمشرف على الحافة أم لهارب منها؟!

يا حدأة! جثمان كتكوتك في انتظار أن تصونى فناءه.

كان انقضاؤها في حجرة التمريض بلا مخالف، بيد أنها وارتته في
حور عينها حيث يسان الفناء، وحيث تظهر بنات الماء فوق الصخرة
يهمسن بأسرار المصادفة:

"كل شيء سواء في البذرة ونياط القلب. قطرة الماء، وهباء الرغام.
القصد هو الأصل والمصادفة هي الاستثناء من قال لنا: إن القصد سلامة
الشجرة قال لنا أيضا: إن اعتلاها استثناء مقصود!

أيتها الحدأة، قولي:

يا مرضك! ولا تقولي: يا سلامتك فلولا مصادفة المخالب ما
كان قصد الفناء المُصان!

كانت أمه تتطير من السعال أيما طيرة، فلا يزال يصح^(١) أذنيها وهي طفلة كصرار^(٢) وباء في صوته شؤم لا يخلو منه بيت في الحارة.. كانت البيوت في خيالها "حقل مريض" عاشت فيه من الشبيهة إلى المشيب، ومن البكارة إلى المسيب، إذ كان زواجهما في نفس الحي خروج من حارة إلى حارة، أو خروج إلى حقل مريض تنضبط نوبات سعاله كأنها عسس الفجر!

سعال نزع لما في الصدور. شفاؤها منه كشفاء المتهوس من ضلالات السمع. وما تفتأ تطارد الأطباء حتى نبذوها من رحمة صبرهم، كما نبذها السعال من رحمة النوم. ومن نوادرها معهم، أن الدكتور دسوقي أهيج صدره بإيحاء من وساوس زيارتها القهرية؛ فما أن رآها في العيادة جعل يسعل ويحرص على السعال كمن يستنجد بها، ولكنها لم تبال، فالأطباء لا يمرضون، أو أن سعالهم مثل العطس يوجب الحمد لا طيرة!

قال لها الدكتور دسوقي وهو يستجير بعتبة العيادة:

- يمكنك البقاء هنا حتى أرجع من عند الدكتور!

لا كلام الأطباء ولا الأشعة الخمس المصورة صرفوها عن طيرة السعال وهي تدور بانبها كل مدار آناء الليل والنهار. تضاحكت جدته وقالت لأم وجيدة مشيرة إلى ابنتها الراقدة المهدودة بعد زيارة إلى مستشفى أبي الريش:

- هذه بنت بطنك، السعال يوسوس لها وسواسه الخناس، كما يوسوس لك الموت وسواسه الخناس!

(١) يصح: يضرب الأذن.

(٢) صرار: الريح الشديد وشدة البرد.

وقد كان الموت حقاً كناساً للأحياء، ذلك وأمّ وجيدة تستشعر نبأته في وسوسة الهواء، وبوادر النواح، بل كان الموت وباءً يُجج سعاله رميم صرعاة اليوافع، والكهول على حد سواء؛ فيُبصر يَخْضُور الصدور وما شاب منها بجوانب البيوت ونهر الحارات.. توسوس لها النبأة بحشرجات سُعال لا تتبين أصحابهما؟ ويرنق^(١) اليمام مرفراً لناظريها، وإذا بيخضور الصدور عَفْرُ ينجلي على أرواح المرضى المتحشرج سعالهم، وتبدر غنتها بنبأة اليافع "زنه" ابن سعود، وهو من أصفائها الظرفاء. كان جليساها على الحجر الصوان؛ فبدا لناظريها يُصفر بناي صغير الحنين إلى الذكرى مُحْيِيا من أهله من صلّمهم المرض، ولكن سعلة الوداع لفظت الناي من فمه وشبابه أخضر كالْيَخْضُور^(٢)!

(١) يرنق: الطير يقف في الهواء صافاً جناحيه.

(٢) بخضور: الأخضر.

اكتنفت المرأتان فراش مرضه.

جدته تدلك صدره بزيت الكافور، وأم وجيدة تلقمه اللبان "الدكر" وتكلمه وهو يتحاشى صفاء الحزن الطهور بعينيها الخواص الضيقتين وألق إخلاصهما الثاقب لخوان العيون؛ فيحيله ندما كاسفا. إنه ذلك الصفاء الذي يتحاشى جلال ذكره المقترن بجلساتها الصيفية عقب صلاة الفجر. جلسات كمغارة مقدسة في الذاكرة، اكتمل نحتها منذ أعوام الكتاب.

كان يتملص من يد أخته مسرعا نحو الحجر الصوان أو ذراعيها المفرودين. لم يكن بعدها شيئا، كانت منتهاه، وفي ذلك الحزن تنسم أريج الكافور كما تنسم أريج الزمن وقُتامة في أحجار السور، وقد تتعنف أخته في استخلاصه من حضنها؛ فتستمد العافية من وفائه وبكائه، ولا تتركه إلا في حجرة الدرس حيث ينعم الشيخ حنفي برائحة الكافور وبالزيارة المقتضبة الأثيرة.. وربما تشبث الصغير بالأرمد فترفعه إلى ظهره، وينطلق بهما حيلة، ثم يقف دون السلم ودرجاته المحصورة القائمة، والتي لم يصعداها إلا في نواذر تحكى كما تحكى نواذر كلامه الفصيح، ولكي يريح الشيخ حنفي من أمل الوصل ينادى عليه من أسفل عقدتي النافذة نداءه المطلق "نداء سقر" على وصف الشيخ؛ فيتنهنه عن أمله المقطوع إلى أمله الموصول، وينتظرها انتظاره ليمامة نوح وغزالة ابن الفارض.

مغارة مقدسة في الذاكرة كمغارة المسيح وأمه، تألفها فطرة الحواس وروع الخيال، ومن ظلالها توحده بغنة الأبد في السراقات، و جلوسه بين المرأتين وهما مدثرتان باللفائف البيضاء في حمام "بشتك"، وفي الزيارات الطوافة على البيتتين..

كانت تنثر الحب لليمام حوله فيتحلقه، ويدانيه، ويتناfran ويتآلفان،

ثم أرسلته إليه واعيا الإشارة يحبو على أربع، ويلاحق ما أتلفه،
والأصوات تلاك في فمه مُستثارة كأثر دغدغة، وقد تشاركه الجراء في
الملاحقة وينغمر الجميع باللهو إلى طريقة السلم المكشوفة إلى أن يتواثب
اليمام متفرقا على الحوائط؛ فيجتاز سياج الطريقة الخشبي إلى حجرة
الأرانب والماعز "لوكة".

وغالبا ما تنصرف جدته وحدها، وترجع به ساجدة وهي تحمله إما
نائما، أو متشبثا بشيء: حمامة، يمامة، سلحفاء، جرو، ابن للماعز
"لوكة"، ولكنه لم يرجع أبدا بالقنفذ.

أرغمته مختارا أن يواجه صفاء الحزن في غوره الضيق. حزن صراح
كالحق، ضعفه أمل كنبأة الغيب، أو ضعف الإيمان الكامل برحمة الأبد.
ذكرته باسمه بما حدث في السطح بعدما أخلف وراءه العشش
مصروعة الأبواب. قالت تصف ما شاهدته من حجرة اليمام وجدته
تبسم لها:

"لقد اختلطت الكتاكيث على أصحابها اختلاط الماء بالماء! فكان
السطح كتثور نوح عليه السلام، بيد أن الشجار لا سفينة له، بل هي
ورطة مضحكة كالمأساة!"

وأشرقت ضحكاتها شروق عباد الشمس وقالت:

"أصحاب الكتاكيث طاردوها مطاردة الغرباء الساطين. سواء في
كبد السطح أو في العشش. يدخلون هذه على أربع؛ فتثرثر الكتاكيث
بالهروب وتهرب ملتقية بجموعها في كبد السطح وهي تثرثر بفرحة
النجاة، ويعاود أصحابها المطاردة وهم على رقة بالغلة في اختطافها
وعنف حائق في تدافعهم. كانت رقة الصراع وعنفه يفسحان مسارب
الهروب، ومسارب الاختلاط من بين الأيدي والأرجل وأسفل البطون،
وكما بدأ السطو انتهى كأن سطوا لم يقم! فبينما كانت الكتاكيث

متآلفة داخل العشش كان أصحابها قعودا تبهر أنفاسهم في السطح
وأيديهم خالية من وفاض السطو"

وتمايلت بها الغنة:

"من لي بمأساة صنعها القدر؟

المآسي على قدر أنفسنا والقدر لا يرمينا إلا بما في حقولنا. وما
نسميه نبأ شيطانيا إنما هو نبت النفس يتلون بألوان مواردها. فأس
المأساة لا يغادر الحقل ومواردها ضربات ثلاث: الهوى والغلو
والغرور!"

تتحفظ في اقتراحها، إلا مع المرض والوفاة، أو مع محروس. ألق
عينها ضعف رحيم يخيفه.

كان ييده وهو ابن عامين، وربما أسكنته حجرها هوى من الليل،
وما أن تسهو وتحقق بعينه يجيش وجهه دامعا، وتغالط نفسها قائلة
لجذته:

- أرأيت ابني لا يطيق فراقى!

فتغيظها:

- وأين هو الفراق وابنك في حضنك؟

وتكيدها:

- إنه يبكي عليك وليس منك!

وتصارحها:

- كيف يطيق المهد عبرات اللحد في وجه لم يطمسه الدهر؟!

أجل، وأن يطيق؟

ألم يدهه ألق اللوعة الطهور وإن شاركت عروس فرحة زفافها أو
خلصت وجذته في مناجاة عابثة وتغامز بريء؟ بل كانت اللوعة تدهشه
وضحكها تفتتح كعباد الشمس مما فعله حيلة حين أحيا نبوي بثلج
مينا!

ولا ينسى دموعها العزيرة التي لم يراها قط تنحدر على خديها؛ إلا في مقام السيدة زينب وذلك حين كانت في زيارتها هي وجدته، وقد أوصل حيلة ثلاثتهم بالكارو، ولكنه تجنب الزيارة لعذر تفهمه المراتان وغضب منه محروس؛ فيعود إلى الكارو وحيلة راقد عليه في حضرة الزيارة بروحه، ووعي المنام، وحديث قلبه ذي البيان.

لم يقطع عليه الحضرة، ورجع لكي يتوسد فخذه جدته، وتأخذه سنة رأى في منامها رجلاً أبرصاً مسلخاً يحتال في انتزاع فرخ حمام أبيض مزهر من يد السيدة زينب؛ فأفلتت الطائر علا منقضا على هامة الرجل الشوهاء ناثراً كلمات أحرقت، ولم يخب وهج الإحراق إلا ومحروس يتفقد السيدة في عطر مشكاة. اجتزها ليجد نفسه جالسا إلى الطبلية وأذكار مولد "الحسين" تتراعى إلى السطح من خيامها المنصوبة في فجاج رقعة المقامات، والأضرحة، وروح الحضرة وركام الاحتضار!

كان أستاذ الندوة يناقش كتاب "عبقريّة الحسين" وقد استوقفته عبارة زين العابدين التي أجاب بها ابن زياد وهو يهدده بالقتل قائلاً:

- أو لم يقتل الله علياً؟

فأجابه زين:

- قتله الناس!

فأعاد ابن زياد قوله:

- الله قتله

فقال علي:

- الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن

الله..

أيقظته جدته، بينما سألته أم وجيدة:

- أكنت تحلم بمولاي زين العابدين؟

قال:

- وحلمتُ بقتلة علي!

فظفر دمع أم وجيدة، وقالت كأنما تعتذر لأهل البيت عن دموع
الأحزان:

- هذه دموع الفرحة. فرحة لقاء أهل البيت بنبيهم!

ظلت المرأتان تكتنفان فراش مرضه؛ حتى دخلت أمه الحجره
تشتكيه لأُم وجيدة، وتخبرها بما فعله أمس مُستهيناً بسلامة النفس،
ونعمة الصحة، وراحة الأحبة.

فعلى فراش المرض توحد بالمرض، وقص المنشفة الصفراء قطعاً
بمقدار ما كان يجلبه من بقايا قماقم العطور التي نقب عنها في مدافن
القصور بالمرتفعات. عقد قطع المنشفة على جذذ القماقم جاعلاً منها
جثامين كتاكيت؛ ثم تسلل بها إلى السطح، وصادفه أبن الملاحه على
باب شقتهم فأخذه معه، وأوقفه حيث يقف للحدأ؛ ريثما يُشاهد بعينه
مالاً تصدقه العيون، إذ الحدأ ترصد محروساً من أوجها الساطع، ويتراخ
هبوطها مُدومة في ترقب له ميقات معلوم، أو ميقات أفزع ابن الملاحه
وهرب به من السطح تاركاً محروساً يُخادع المخالب المعقوفة التي لم
يعنيها شراسة الانتهاب بمقدار ما عنها دُربة اللعب؛ فكانت تلتقط
الجثامين المزيفة مُذبذبة صوتها بهذر الصراع، وتتمكن منها، وبنفس
الجموح الذي تلتقط به جثامين الكتاكيت جمحت في صعودها من قبل
السطح، وفي استقبالها لأشجار الكافور.

شخص ابن الملاحه أمامها يقول هلعاً:

- محروس مسته الحدأ بالسطح. هو الذي يقذف إليها بالكتاكيت

أحياء!

فحدثت ابنها في نفسها:

- أي كتناكيت؟ فقد ذهب بما العراك!

ثم خلت بأمه، وكلمتها في مرضه، وفي خطورة تيار الهواء على صدره، وفي المنشقة الصفراء الممزقة، وفي خوفها عليه من خلوة الجبل ومن جنيات القصور اللاتي يعثر على قماقمهن، ثم سممتها قائلة:

- أنا أخاف يا أختي على ابني من عدوى الهروب وخلوة الجبل!
وبمجرد أن صعدت شقتها؛ أحضرت أمه جدته إلى فراش مرضه،
وبهدوء زائف قالت له:

- أمن أجل الحِداً تهلك نفسك؟

ونظرت لجدته كأنها "تيمات" ربة الأرض، أو ربة التمرد وقالت:
- وما هذه القماقم والكراكيب التي تهرب من أجلها ثم تهديها
للحِداً؟

ثم وهى تنظر إليه نظرة "نمسس" ربة العقاب:
- وما هذا الذى قاله ابن الملاحه؟ جنيات وعطور وخلوات فوق
الجبل!

وصرخت به:

- الملاحه خائفة على ابنها منك؟ هل أصبحت مكروبا؟
وهنا نهرتها جدته، ولعنت الملاحه وابن الملاحه، وذكرتها بإشادة أبله
زهرة وأسمعتها عبارتها، أو وصمة كماله:
"ليس في المدرسة تلميذا مثل حفيدك!"

فضحكت أمه وأسمعتها عبارة الست النازرة، أو وصمة البلادة:
"ليس في المدرسة تلميذا مثل ابنك..".

ضحك عباد الشمس في وجه أم وجيدة، وقالت توفيق بين الرأيين
وغضب أمه:

- من الخير لمحروس أن يظل الناس مختلفين فيه مثل هذا الاختلاف!
وظهر ابن الملاحه باب الحجرة يقول:

- عم نحمده طالع هنا.

انصرفت أمه لاستقبال الضيف، ولكن علا صوتها مرحبا بضيف
آخر أستاذ الندوة، أو تلميذ العقاد كما تحب أم وجيدة أن تصفه. دخل
الضيفان الحجرة وعم نحمده يقول لمحروس الراقد بين شجرتين الكافور:

- الأرمذ يعتذر لك عن عدم صعود حيلة لأنه يخاف المرض ولا
يخاف الموت!

وقال ناظراً إلى أم وجيدة الباسمة من الاعتذار المؤول باللسان
الأرمذ:

- كلما سألت حيلة أين أم وجيدة؟ قال: في زيارة الموت. فأقول
له بعناد الأرمذ: تقصد في زيارة الأموات. فيقول لي بعناد الحكماء:
الموت أبقي من الأموات! ولا يقف بنا كلا العنادين عند هذا الحد من
الحكمة والحمورية؛ فكلما سألته وأنا أعرف الجواب: أين أم وجيدة؟
قال: في زيارة المرض. فأقول له: تقصد زيارة المرضى؟ فيقول لي: المرض
كلمة الله في المرضى!

ولا يجعل قلوب الضاحكين تستريح، ويسأل محروس:

- لو سألنا الأرمذ صباحاً أين محروسا؟ فماذا يقول لنا؟

فيترك الجميع عم نحمده يُجيب بنفسه؛ فيقول:

- محروس في زيارة الهروب. وإن قلنا له: تقصد في زيارة المدرسة؟
قال لنا: باب الهروب كباب الشاهد مفتوح، وباب المدرسة كباب
الحكومة مقفول!

وأخيراً جلس على الكنية، وأجلس تلميذ العقاد إلى جواره وهو
يقول لأم وجيدة:

- العقاد أجهز على خصومة السياسيين بالنكتة، وبالنكتة حافظ على روح الأمة حتى ثارت طالبة الموت الزوام أو الاستقلال التام! سألت أم وجيدة تلميذه:
- ندوة السطح يوم الجمعة إحياء لذكرى العقاد؟ فأوماً بالإيجاب، وسألها:
- ألم تلتقي به؟ أومأت بالنفي قائلة:
- الشيخ حفي كان يحرص على رؤيته بمكتبة الأزهر. قال كمن يبشرها:
- أو تعرفين إنه كشف بالشعر حجاب الموت؟ فاستشهدت على سؤاله مرددة مع العقاد:
- إذا شيعوني يوم تقضى منيتي
وقالوا أراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملوني صامتين إلى الثرى
فأني أخاف اللحد أن يتهيبا
وغنوا فان الموت كاسٌ شهيةٌ
ومازال يجلو أن يُغنى ويُشربا
وما النعش إلا المههد مهد بني الردى
فلا تُحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكروني بالبكاء وإنما
أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا
غُنة محزونة، أو قيثارة للموت وجهت بضحك القلوب وبسماتها.
سألت التلميذ كما سألها:
- أو تعرف أن أم وجيدة وصفت شعر العقاد في حوش الشاهد

بأنه: "ديوان غربي بوحى شرقي"!

ثم أدهشته:

- الكمال عند عملاق الفكر: فكرة "فنية" وليس فكرة "عقلية"؛

فالكمال حاصل في الشعور بينما العقل مازال جنينا في سديم الكون!

وسأله باسمه:

- ما رأيك في أم وجيدة العقادية؟

قال بجدية الإعجاب:

- ليس غريبا أن يخرج هذا الرأي من حوش الشاهد وأقطابه رحاله

يملُ العقل رحلتهم بينما القلوب يقظة لها؛ وصدقت حفيدته الشاهد،

فالبطولة عند العقاد وهي أسمى وأدوم ما في الإنسان "كمال" حاصل

بمجازة الشعور، وقد يعتري الكمال النقص في فكر العقل؛ لذلك حين

كتب العقاد عن البطولة تفرد عمن سواه فيما صدقه بقلبه، فكان نبيا

للبطولة وغيره كان يؤرخ لها بما صدقه بعقله، أي يقول ما يقوله

التاريخ، والعقاد يقول ما تقوله رسالة البطولة!

تسأل محروس:

- ومن هو البطل؟

قال معلمه:

- إذا سألنا عم نحمده؟ سيقول لنا: البطل كالحياة يحمل نعش

الموت بتجرد، وإذا سألنا الأرمدة؟ قال لنا: البطل هو حيلة حين يجاورني

أمام الكارو، وهو يحلم بوصولنا جميعا إلى بر السلامة!

ولحظه معلمه بنظرة كإرادة الخطر ناهضة وافزة باسمه، وقال:

- ماذا قال الطبيب؟

فقلت أمه من باب الحجرة:

- الطبيب نصحه بتجنب صهد "البابور" وحرارته قبل نزوله إلى

المدرسة.

النظرة الناهضة المستثيرة غاب عنها أن المريض والنوم يستغرقه يبول
لا إراديا، وإذا ما أستغرق خياله اليقظة سال نُحام أنفه.. قال عم نحمده:
- الدكتور دسوقي طمأنني ؛ بأنه التهاب خفيف بالشعب الهوائية
شفافؤه مضمونا بالراحة وسكينة النفس!

تساءل محروس:

- هل يعرف الطبيب سكينة الخيال؟

فقال عم نحمده:

- الخيال ده؛ مثل نبأة أم وجيدة نهايته وطلوع الروح!
لم يقو المريض على مشاركتهم الضحك وإنما حاوله؛ فتلجلج في
صدره سُعيلات غير مكتملة، أشفقوا لها وودوا لو تكتمل.. قال عم
نحمده بجديته الخادعة:
- السعال ده، مثل ضيف ثقيل تجاوز حده الشرعي، ابتلاء لسجية
الكرم.

وحدثته نظرتة، وأوصاه:

- كن كريما معه يا بني ككرم أم وجيدة مع المرض!
ونفض يستأذن مجلس المرض أخذا معه الأستاذ؛ ففاجأ محروس
المرأتين ونفض من بينهما إلى معلمه، وفي البسطة سألته:

- أو أهديت قماقم العطور للجدُّ؟

فأوما محروس بالإيجاب.

سأله ونظرة الخطر وإرادته تستنهضه:

- وتمايم الشهداء؟

فقال:

- إنما تحوز الخيال!

بانتهاء أيام أجازة نصف العام تجددت أيام الهروب. كانت الوهدة الرحيبة في عمقها الموصول بالقبة الزرقاء غائبة في رماد شاتٍ، أو رماد كظلال حلم تكوثر^(١) في سمائه الطيور..

فيما حطت الحِدأُ على المئذنة الفريدة وحلقها المفتوح. تعلوه شرفة وحيدة بغير سياج هي وكر الحِدأ الذي صعدته هو وأكرم في مجازفة انتصر فيها الخطر، وتمكنا من الاستيلاء على حِدأ وأفراخها، ولكن الحِدأ الأم خدعت الصائدين مفتعلة الموت في قفص أسريها؛ فكانت نجاحتها بأمر أم وحيدة انتصاراً للموت قد شاهدت الاحتفال به وهما يطلقان الحِدأ من حجرة اليمام، بعدما أرجعا صغارها إلى العش المسلوب!

راقب الحِدأ بنظرة الانتصار المتكافئ، ثم تمخض تنقيبه في مخلفات الحضارة عن "تميمة" جذت رقبتها، فأوى بها إلى برج المراقبة وأرخ لضحى الهروب يوماً جديداً في كراسه الشذور، ثم اعتلى الزاوية ويده التيممة؛ ليشهد "كليوس" على إيمانه بكل بطل كان قدر الشهادة وليست الشهادة قدره. رفع التيممة ولم ينبث، وإنما أحس بجهجة^(٢) حصار وراءه. ولم يستدر إلا وخيالة الثكنة يدهمون البرج ويسدون المنافذ عليه من جوانبه عد الجدار الصاعد من انحدارة الركام، والمواجه لعمق الوهدة. قفز منه قابضا التيممة، فانحدر كصخرة معشوشبة بخيال الارتياح!

لم تفته خالجة من دهشته و حوافر الخيل تقتفى أثر انحداره مُحاذرة وطأه وممهلة بطش الارتياح؛ حتى مال الجندي عليه ميلاً

(١) التكوثر: الكثير من كل شيء.

(٢) الجهجة: صياح الأبطال في الحرب.

حاسمة، والتقطه مُهيئاً جسمه في الهواء وانحطاً معاً على ظهر الحصان،
ثم دار صاعداً فيما هبطه من منحدر المرتفعات..

هذه الدهشة من القوائم الفتية وحوافرها الجارفة الماثرة لغبار
الحضارة الكثيف هي وقود الهروب الآتي.

ضج الخلاء والجندي يتزله إلى الجنود صائحا:

- هاكم أسير الهروب من المدرسة!

أخذوه إلى قصبة البرج، ثم اكتنفوه من الخارج وهم يهتفون بأيام
الهروب، ويسمونهم بأسمائها:

السبت، الثلاثاء، الخميس، ثم أوقعوها غناء واصطخاب، وهو قائم
يستنهض إرادة الخطر، وعيناه تلحظان دكة المطالعات فيسمع هتافها:

"أخطار الغفلة وأخطار الصدقة انتصار للباطل!". ولكي يكملوا له
أيام الأسبوع هربوا نزل إلى القصبة أربعة جنود. عرفه الأول بنفسه
قائلا:

- أنا يوم الجمعة.

ورفع الأذان وتنحى ليوم الأحد؛ فحرك هذا ذراعاه بأجراس
الكنائس وفمه يحاكي دقاتها، واتخذ مكانه يوم الاثنين قائلا:

- أنا توأمك وإن شئت فككت حصارك.

وألقى الجنود ليوم الأربعاء كوفية تبرقع بها وتأبط ذراعاه قائلا:

- أما أنا فنسوانك الأربع!

ثم اتجه توأمه إلى الحقيبة وأخذ كراسية الشذور، واعتلى الركن
المواجه للبوابة المحروقة. قلب لهم المشاهد.. وعن ظهر قلب صور هزلم
شذور خياله، فقد كانوا يرقبونه بمنظار من خلف أسلاك الثكنة ومن
بين جذوع أشجار الكافور، بل إن توأمه أمكنه أن يأخذ كراسية
الشذور المقلوبة على صدره وهو في وهاق النعاس يستبطن الخيال..

تصفح لهم المشاهد التي رأوه يكلم شخصوها ويصور صراعهم في
قصبة البرج، وسمعه يكلم "كليوس" ربة التاريخ الرابضة على سُقطة
البوابة، فيما كان جنود أقطاي يحرقونها وليس بينهم وسيف قطز المجلل
بدماء معلمهم؛ إلا دخان البوابة المحروقة، ورأوه يختبئ بكمان نبات
البوص والخيال يصور له قذائف الغرب المنهمرة على حي الحسينية
وبولاق وقلعة قيتباي وقلاع الإسكندرية!

تلك المدينة العامرة بسكانها ومنازلها وآثارها وقصورها وحديقة
دير الفرنسيسكان وساحة الرهبان، ملاذ الخائفين وموارد الظمآن..
هذى عروس الشرق ماتت فاكس

حزنا عليها الغرب ثوب حداد

بالأمس كانت والبياض دثارها

واليوم صارت أرسمًا بسواد

ليلتها تذكر جنازة عبد الناصر التي شاهدها مع أم جيدة وهو طفل
دون سن الهروب. حين أرسلت حيلة إلى "شوق" ليحضر من عندها
التلفزيون وشاهدت الجنازة في حوش الشاهد مع غفير الخلق..
وصف معلم الكتاب غنة نواحها قائلاً:

"وبينما كان الناس ياستمرئون أخبار النصر؛ كانت هي في مخاض
الانسحاب تتكلم بنبأته كأنها واقع الغمة وابتهاها المقدور، وما هو إلا
حين فطمت فيه الأمة ناصرا حتى رثته رثاء الغائب عن وغي السياسة.
أربعون يوما بأربعين عرض للكمد الطهور وهي تتقبل العزاء على أريكة
الحوش.

كانت أصدقاء الماضي وأصدقاء المجهول يؤبان مع غنتها العميقة؛

فيحثمان على الدنيا والأحياء جثوم الأكفان! كانت البلاد تنب^(١)
لأطوارها المستديمة، إذ السياسة كالموت، وإذ الموت كالموودة لا ذنب
له!"

ويصف وفود الخلق إليها في حوش الشاهد بقوله:

"كانوا يغدون إليها وفودهم إلى مرض وليس إلى مريضة. وكلما
ظهر عليها عرض للسقم حركوا المناظير في فلك واقعهم، ويتهدج
شحو غنتها بريية الغيب؛ فتخشع بهم الريية ريثما تمر الغمة أو يظهر
كوكبها في برجه المنحوس أعراض مرض حقا تخلفها وقائع جسام؟
ولكن لعبر التاريخ في بدائه الناس شبهات. يظنون العبرة علة فيعافونها
ويلتمسون للعلل أدواء. إننا لا نزل قناة الحرب مرتين، ولا ننظر للعبرة
مرتين. بذات الخوف القديم ننظر إلى ألف غريق. تتعدد مفارقات العبر،
وباعتنا واحد كالموت المتعدد الأسباب، والنكسة ذات السبب الأوحـد:
انطفاء نور الاعتبار!"

أخذ النعاس محروسا في ليلية الأسر؛ فمشي وسط الجنازة ينتحب
معها، ومن خلال الدموع أبصر النعش شلالا مهولا تحتجزه الحشود
باستماتة، ولكن شلال النعش غمرها، ثم انحصر عنها وكأن شلالا لم
يكن! وأفض به عويل الجنازة إلى نعاس أمسك في وهاقه بيد أكرم وهما
يقفان على كوبري يعلو بحيرة السد. معلقا كبساط سحري؛ فأفزعهما
فراغ جوانبه.. سأل أكرم:

- كيف صعدنا إلى هذا الكوبري؟

- كأنه نزل بنا من السماء!

- أو صعد بنا من الماء؟

(١) تنبُ: تنهياً.

- ألا تشعر؟
- بما؟
- إنه يمتد ومستطيله يضيق بنا!
- أنظر!
- من هذين الجنديين؟
- إنهما رأس الثورة.
- أى ثورة؟
- ثورة البساط السحري!
- وما بالهما يتقهقران عنا؟!
- بل هما يقبلان نحونا!
- كيف والبون بيننا وبينهما ينبو؟!
- بل هو ينحصر!
- انظر! ماء البحيرة يتجندل بجماجم لا حصر لها!
- أين هي الجماجم إنهما صخور السد؟!
- انظر! الجنديان توأمان.
- ولم يشرفان على حافة الكوبري؟
- أنصت! إنهما يصرخان بالجماجم.
- هذه صخات الصخور.
- بل هي صرخات في الجماجم!
- ماذا تسمع من الصرخات؟
- نحن اللذان علمناكم العزة والكرامة!

في سحابة نهار عُنعنَ بخبر أسره..

فعن جندى الثكنة مُتعهد التعامل مع مينا ومفيدة، وعن الزوجين عنعن بالأسر سائر المتعنعين بما فيهم بطانة الشيخ "مشحوت" الذين تستدعيهم جدته لحضرة الذكر السنوية، فيطلقون عنان الأذكار والإنشاد في سماء السطح، ثم ما يلبثون أن يطلقوا عنان المخمصة على مائدة الفتة، وكان الشيخ "مشحوت" ومينا من الحواريين، كما يصفهما ظرفاء البطانة، ولما يستدعيهم مينا لإحياء حضرة الذكر لابنة عمران، كان يتعمد مخمصة بطونهم حتى يصيحوا بشيخهم:

- ادع لنا مينا يُترل علينا مائدة من السماء يا مشحوت!

صعد مينا إلى السطح فتلقته الجدة على رأس السلم قائلة:

- ابننا يشكوك للشيخ مشحوت.

فقال طارحا ذراعيه إلى أسفل، أي يشير إلى امرأته في الدكان:

- مفيدة لم تترك أحدا إلا وأخبرته باحتجاز الجنود لابننا فوق

الجلبل.

قالت وعيناها على حلقة البطانة:

- وكذلك يشكو مفيدة لابنها.

التفت فوجد أكرم ومحروسا وحيلة متجاورين في حلقة الذكر.

تخطاها وهو يقول مخوفا ابنه:

- مفيدة جبرت خاطر الجندي تحسبا للأسير التالي.

ثم ظهر للشيخ مشحوت المتصدر الجهة الأخرى من السطح؛ فقال

له:

- هدهد سليمان عليه السلام قص علينا القصص!

يقصد الأسير. سدد مينا ذراعيه إلى المرتفعات وهو يقول:

- كله من الجنود.

وجلس على دكة المطالعات وقال:

- الهدهد جعل الجنود يؤمنون بحقه في الهروب!

هام خيال محروس في لقيه الجديد كأنه الهدهد يبحث عن شمس
سبأ. سأل البطانة:

- كيف كانت شمس سبأ المعبودة من دون الله؟

قال مشحوت:

- طول عمرها الشمس كبريق السلطة. معبود قديم، نرى شروقه
وأفوله ونحن آمنون، ونعمى عنه ونحن خائفون خوف الاستبداد وسراب
السطوع!

فقال مينا:

- كل ده يطلع من الشمس!؟

أجابه غير صوت من البطانة:

- ولم لا؟ والثورات تنور في عز الحر.

ثم سأل الأسير:

- ألهذا يصعد الهدهد الجبل وقت الشروق؟

تبسم وهو غائب يحدث نفسه:

"هل كافأ سليمان الهدهد على صدقه، كما توعدده على
الغياب؟"

أجاب أكرم:

- ووقت استيقاظ الطيور!

سأل منشد محروسا:

- كيف أسرك الجنود؟

فقال أكرم:

- كانوا يراقبونه بالمنظار.

- سمعت أنهم أكملوا لك أيام الهروب سبعة.
- وأكملوا له الزيجات أربعاً.
- فقال مينا:
- أنا طالع الجبل ويمكن أقعد فوق.
- يا طالع الجبل هات لى معك زوجة.
- سأله الشيخ مشحوت:
- سمعت أنهم صادروا كراسة الهروب والخنجر والتميمة؟
- أجابه أكرم:
- لقد أرجعهم إليه توأمه.
- تضاحك الشيخ مشحوت وسأل أكرم:
- وأين كراسة الهروب؟
- أجابه:
- تحت شمس الطبلية!
- نظروا إلى الطبلية فتضاحك أكرم قائلاً:
- أقصد تحت شمس الخيال!

وكانت للندوة عنعنيتها أيضا..

سُئل وهو جالس وراء الطبلية:

- هل ستكتب مشهدا عما فعله الجنود بأسرك؟

- ما فعلوه مشهدا ينقل الخيال هزله كما هو.

- ولعل هزل الأسر نكسة زاهدة في الحقيقة.

- أو خيال توحد بها.

- زهدوا في الحقيقة؛ فهربوا من نارها إلى رماد التاريخ!

- حتى زهدهم كان سلبيا ولم يزهّدوا الزهد المرید. أَلستم معي أن

الزاهد في النقص طالبا للكمال، وأن الزاهد في النصر لا يطلب الهزيمة؟

- كان هزل الجنود يصور التاريخ كما يصور القاتل جريمته الكاملة

لولا مصادفة الانسحاب أو نكسته. أقصد نكسة القيادة وليس نكسة

الجنود!

- أجل، وأين النكسة من الجنود في معركة رأس العش؟

- أحسب أن نكسة القيادة مصادفة، أو تدبيرا إلهيا قد اختصر

للأمة قرنا من الخداع في بضعة سنين!

ثم أفاضوا في مصادفات التاريخ وتديرها الإلهي؛ ومنها مصادفة نجاة

صلاح الدين من مشايخ الجبل، ومصادفة نجاة السادات من مشايخ

مراكز القوى!

سألهم محروس:

- هل سيحارب السادات؟

سكتوا ليقول المعلم:

- السادات كمجهول نعرفه. لا نشك في حدوثه ولا نصدقه إذا

حدث!

- هل أحب الأسير ناصرا؟

- أنا أبكتني جنازته، ودائما ما أحلم بنعشها شلالا مهولا، لا تقوى الحشود المستميتة على احتجازه؛ حتى يغمرها ثم ينحصر عنها وكأن شلالا لم يكن!

هتف صوت من الندوة:

- الأسير أسرنا بوهاق النعاس!

- من أحب ناصرا كما أحبه الأسير؟

- الناس أحبوه كابن لهم، أو ابن للزعامة وليس أبا لها كسعد؛ لذلك كان عطفنا على ناصر أكبر من أخطائه ولم نجحده جحدا للآباء!

- أليس موته صغيرا مصادفة إلهية؟

- كنت أخشى على ناصر من العجلة لا البطء، ابن عصره، وأخطاؤه وأخطاء عصره سواء. كلاهما تعجل بصاحبه، وإن كان ناصر أسبق بتلك الخطوة التي قد نحسبها خطأ كبيرا، وقد نحسبها ضرورة نفعا أكبر من ضررها، فتأميم القناة، وحرب اليمن، وإغلاق المضيق، خطوات عجولة تشبه الخطأ، وتشبه الضرورة، وعذر ناصر أن الخطأ خطأ الاستعمار، والضرورة ضرورة الثورة وهو ابنها البكر في قارة لم يكن لها خيار إلا انتظاره!

قال المعلم:

- لو فطمت الأمة ناصرا ربما قادها إلى ثمرات السياسة ولم تقعد به هي بين نخيل الثورة!

دارت على محروس دائرة النفي..

أخرج من مدرسته في طابور النفي إلى مدرسة المنفى، حيث قرناؤه المتوحدون بالنجاة، وقد عملت له المصادفة عملها كأن النفي أمنت الخيال:

"إنه طابور حريتي وشهادة ميلادها، لقد ولدت مرتين ولم يقض لي نحب ولو مرة واحدة. كنتُ أبعث في الرmq الأخير كطائر الفينيقي!".
شق طابور النفي غبار حارة الروم. كان وراءه حارس وأمامه حارس ساقتهما مصادفة الخيال وجها لوجه. معلمي الكتاب فشملهما بنظرة خلصت إلى حقيقة الطابور ووجهته، وأطال النظر إلى محروس كأنما يواسيه بهتاف الكتاب القديم:

"الطير على غروره المحبوب ما لم يقع في الأسر، فإن وقع فهو في ذلة الغرور. غرور العجز والتواضع!"

ثم لم يشأ أن يواسيه في آليل ندوة السطح، وإنما قال ساخرا:
- نفيكم إلى مدرسة المنفى اعتراف مغتصب من الدولة بحقكم في التمرد!

قال باسم:

- لذلك كان زملائي في الطابور يدبون ديب الجنود.

أيده صوت:

- كنتم تحرسون الحارسين!

- ومع ذلك لم يتخلصا من الخزانيتين!

- مانح الحرية مستبد يخشى استبداد الفوضى، ومن أحبها وأحبنا يجعلنا نثق في كفاحها ويتزل بنا إلى ساحتها، ليس حرا من انتظر حريته أو فكر في رصيف انتظارها!

وداعبه معلمه مُلمحا إلى انتظاره لسوسن على مصطبة جامع المار

داني إلى حين رجوعها من المدرسة:

- من كانت حبيبته قمرا لا ينتظرها في رائعة الهروب!

ثم قال يوحده "بكليوس" ربة التاريخ:

- لقد قامت لنفيه ثورتان كالزعيم سعد زغلول!

يقصد ثورة جدته، وثورة أمه.

ثارت جدته له كسفيرة في دولة التوحد، وتوسلت بالوسائل:

تشفع، ووساطة، وتواطؤ، وتستتر، وتبرير، ودفاع، واختلاق للمشاكل مع الناطرة، ومع أمه، ثم تصعيد للمشغبة حتى الهاوية أو بلوغ الغاية؛ ومن ثم أعادته من المنفى على رأس ثلاثة أسابيع، قد أدمن خلالها ترياق المخاطرة واستقلال الهروب، ثم إنه وحدها بمرضيه؛ فاستغلتهما فيما توسلت به. مرض صدره وهياجه من العطور والبحور، ومرض قلبه الذي أخطأ في وصفه طبيب أبو الريش.

كان يتناوب الكشف عليه هو وأكرم في فراش واحد، ولكنه حين وضع السماعة على قلبيهما؛ سبر داء أكرم، وأخطأ في دواء محروس. ولعامين تامين ظل صقيع السماعة يهتك أسرار قلبه بينما الطيب لا يعي الرمز ويصف له وخز الإبر الخاطئة. أربع وعشرون شهرا والصبيان يسيران بين الأمين الثارتين، ثرثتهما الجامعة لأخبار الفنانين والساسة ونواد الدنيا، وكل ما يحدث في الشارع والدكان والبيت والسطح والمرتفعات...

ولتلك الثثرة واقعة تستبد بذاكرة الصبيين؛ فقد خرجوا من المستشفى وبينما هما يلهوان خلف الثثرة العمياء، وإذا بأكرم يصرخ بهما: "القطار"

فاحتجزتهما الصرخة كأنها صدمة القطار الهوائية قد نحتهما عن القضبان، ولم تفيقا إلا وهما تستديران إلى الصبيين؛ فحمدت أم أكرم

ريها، ولعنة أمه السائق الأعمى! وكما انقطعت الشرثرة قهرا استأنفت قهرا حتى احتجز أمه عند ضريح الشيخ ريحاني بجوار المدرسة، وقال لأكرم:

- قل لها ما سمعناه من الشيخ لما رجعنا من المدرسة!

فقال أكرم:

- وربنا أنا لم أسمع شيئا!

أما ثورة أمه فقد وحدها بخياله، وخدعها بما تنخدع به الشعوب، أى إنه خدع نفسه لتصدق؛ كما تصدق الشعوب أكثر الحكام خداعا لأنفسهم. ولما استهدفها بالخداع أولا كذبتة.

كان ينظف كل شئ داخل قبو عم كامل. الحقيبة والكراسات والكتب والقميص والسرورال والحذاء ووجهه وذراعيه، وقد يشرف على نظافته عم كامل وابنته نبوية "أم رفيقه ضياء"، وما إن يدخل البيت نظيفا لامعا يستهدفها بالخداع؛ تستهدف هي على الفور رأسه بأظافرها. تحكما ودون أن ترى لبد الجبل؛ تسأله عن الجورب؟

فيتوهم أنه ساحر سيخرج الجورب من الحقيبة على هيئة حمامتين تهتفان بنشيد الصباح، ولكن حوزة الإثم كانت أطغى من سحر الوهم، فأخرج الجورب ملبدا بالطين والعرق و فراسة نظرتها تعزله في وادي الضمير وأصواته اللوامة، وما يدرى إلا وقناع الصابون يغمض عينيه على سحر الخيال، أو متاهة الصانع "ديدالوس" التي صنعها للملك "مينوس"؛ لتكون عذابه المستديم لشعبه، وبكل ما يحمله ضمير الأسطورة من وحى وندم قصها عليها وهى جواره بالمطبخ..

ويستثير عطفها رافعا رأسه من الحوض وبعايل الصابون تقنع وجهه. يحتجزها كما احتجزتها صدمة القطار، و يسرد تفصيلات الأسطورة سرد من تعذب بمتاهتها وهروبه إلى الجزيرة، ثم سقوطه على

صخرة بنات الماء..

لم يطمئنه صمتها وقلة حيلة الصمت، وإنما طمأنه تحذيرها المتكرر له من أضرار الصابون؛ فاختلس نظرة عوراء على وجهها المغرق في الخيال وإشفاقه العطوف. أحنى رأسه للماء مستأنفا السرد:

- تصوري، الملك كان مخادعا فقد حبس "ديدالوس" الصانع الماهر داخل المتاهة!

ويدير وجهه إليها فاتحا عينيه، فيعلو صوتها محذرا:
- تكلم بما شئت ولا تفتح عينيك.
فيقول:

- والغريب أن ديدالوس ضل داخل المتاهة التي صنعها بيديه!
حدثت نفسها: "أم وجيدة تتساءل عن مأساة صنعها القدر!"
سألته:

- وهل خرج الصانع الماهر من متاهته؟

- خرج!

- بمهارته؟

- لا، لم تنقذه مهارته!

- هل احتاج إليه الملك فأخرجه؟

- لا

- هل ندم الملك؟

- لا

قالت باسمه:

- لعل خيالك أنقذه.

يردد كلام معلمه:

- القدر مريد كالخيال يبقى على المتاهة والإنسان!

- لعل الشعب أنقذه!

قال:

- بل، أنقذته الملكة وأرسلته سرا هو وابنه إكاروس إلى جزيرة نائية
لم يدم بقاءهما فيها، فقد أدركهما الملك محاصرا الجزيرة ليبقى الاثنان
هدفا للهلاك بين السماء والماء!

- أو هلاك الاثنين؟

- لا.

- لعل الملكة أنقذتهما؟

- لا.

- أو ثار الشعب وأنقذهما؟

- لا.

تبسمت وسكتت عن عبارة على طرف لسانها، فقال:

- لقد صنع ديدالوس لابنه جناحين.

ورفع رأسه من الحوض وبعايل الصابون تطوق رقبتة، ثم أكمل لها
الأسطورة مجاباً نظرتها اللامعة بفراصة الخيال. سألته بلسانه عن معنى
المتاهة؟

قال لها:

- المتاهة هي مهارتنا التي تصنع قدرها!

تبسمت قائلة:

- أو هي نفس إكاروس وخياله.

- ولم لا تكون قوة الملك؟!

ناولته المنشقة وقالت مغتبطة:

- المهم إن إكاروس لم يُطع والده حين حذره من وهج الشمس؛

فصعد إليها حتى فك اللحم وسقط من فضاء الهواء وحطمت الصخرة.

فقال:

- بل، الأهم أنه ساعده على المطار.

أجابته:

- هذه متاهة أخرى!

فردد كلام معلمه:

- المتاهة تتسع باتساع الكون ولا يزال الإنسان يغادر مركزه وهو

على بصيرة بالاهتداء!

عرف منها أن تاريخ هروبه قد عُنن به، فكل من شاهده هاربا

بالحقيبة وزى المدرسة كان له "عن" إلا حيلة وحمارة الثالث! وأن

سجل العننة محفوظ في حجرة اليمام مرصد النبات وقمقم المتاهات!

غواية النفي تلك قد اختارها.

أما غواية الحرمان من "سوسن" فهي نياط^(١) القلب المشدود في فضاء القاهرة؛ لمن شاء من طيورها البرية.

فهذا النياط مهبطها الدائم حتى لا تتوقف دقات الأجراس هنيهة عن العشق، وليشهد اليوم الثاني من النفي وقفة بينهما كوقفة الحداد. جليلة جلال الفراق، ومتوحدة توحد الذرة مساك التجاذب والانشطار.

دخل إلى مدرسته القديمة قافزا من السور؛ بحيث يتجنب عين عم بيومي ونبوته المؤرخ عليه أيام الهروب، واليوم الثاني للنفي، وقد اختار توقيتا ينشغل فيه الجميع بتنظيم صفوف طابور الصباح. صعد إلى حجرة الدادة "نعيمة" وهى حجرة تلي شرفة المذيع كان يقضيان بها وقت الفسحة. استقبلته الدادة بحفاوة من تذكر لجدته إحسانها ومودتها وطيبة قلبها. سألته متلهفة:

- أو أرجعتك الجدة إلى هنا؟

- لا!

حذرته مشفقة:

- إدارة المدرسة هناك شديدة على التلاميذ، ولا أحد يعرف

جدتك!

ودق جرس الست الناظرة يستدعيها. لحظة ومرت سوسن في

طريقها إلى شرفة المذيع؛ فالتفت بها قلبها حيث وقف به قلبه. قالت:

- قلبي كان يشعر بأنك هنا!

- وسيجدي متى ذكرني!

- أبله زهرة سعت أمس للصلح بين جدتك وأبله الناظرة.

(١) نياط: عرق بالقلب.

- وأنا سعيى إليك هروب.
- إننى أكره هذه الكلمة!
- وهى تحبك!
- قالت متضاحكة:
- لما تعثر الصلح أمس استقبل الفصل كله أستاذ الحساب بكلمة "وحدوا" رافعين سباباتهم ولكن إلى أسفل!
- الميكرفون يناديك.
- استعطفته قائلة:
- ارجع إلى المدرسة المؤقتة حتى تنتهى جدتك الأمر!
- إنني لا أذكر شكل الفصل ولا الفناء ولا المدرسين!
- تحركت إلى شرفة المذيع وتبسمها يسأله عالماً بالجواب:
- كيف وصلت إلى هنا؟
- كما أهرب!
- قفزت من السور؟
- تبسم صامتاً
- قالت منقبضة:
- لقاءنا بعد المدرسة داخل مسجد الماردان!
- مستغرقة هي للحظتها، ومستغرقة للأبد وقفة الحداد!
- لم يغادر مدرسته كما تسلل إليها قافزا من السور، وإنما نزل من سلم الناظرة وعند الباب؛ شخص إليه عم بيومي ونظرته ترجف بالوفاء لجدته، سأله مستنكراً الجواب المعروف لديه:
- قفزت من السور؟
- ونخس الهواء بنبوته صائحا:
- إن طفشت من هناك - يقصد مدرسة المنفى - لن تتمكن

جذتك من إرجاعك إلى هنا!

ونخسه مرة أخرى وقال زاهقا:

- هو أنت يا ابني مثل الإطلاق الذي يبحث لامرأته عن محلل؟! سأله:

- يعني أيه مُححل؟

فنظر إلى رأسه سارحا في بلادته، وربما خياله المُجمع على وصفه؛ بأنه مثل الشعرة وهي تخرج من عجين المأزق والأكاذيب. فتح له باب المدرسة، وتربصه بنظره وهو يجتازه، ثم وهو يتلفت إلى نبوته المُشير جهة مدرسة المنفى، ويهتز بهزة تعد له أيام الهروب؛ فيومئ برأسه إيماءة الطاعة والامثال، وهكذا انصاع لنبوته حتى إذا فرح بالطاعة؛ أبهته جانحا إلى جهة مسجد المارداني.

لم يُفرط في التبسم، ولا منظر النبوت الفرح بعفريت الطاعة. أتى باب المسجد الرئيس المغلق؛ فجلس على إحدى مصطبتيه المتقابلتين يسترجع وقفة الحداد المستغرقة للأبد، ثم استغرق في لقاءهما كل جمعة بالمسجد وهي بصحبة أبويها المبهورين بما في كراسة شذور الخيال؛ من سوانح ظنها مُقتبسة من قلم معلم الكتاب. سأله والدها:

- أنت من يكتبها أم الأستاذ فلان؟

فقالت سوسن باسمه:

- هو الخيال والأستاذ القلم!

وسأله والدها:

- والهروب من المدرسة خيال أم واقع؟

قال الأب ضاحكا ومعفيا أبنته من الرد:

- لا هو واقع، ولا هو خيال. الهروب ظل يطارد محروسا!

قال باطنه: "أو أنا ظله مادامت الشمس في السماء".

عادت الأم تقول بنبرات حادة كأنما تهدده بقطع مذاكرتهما بعد صلاة الجمعة:

- الهارب يسيء إلى أسرته وإلى نفسه وإلى زملاءه!

والنفقت إلى حقبة المدرسة وقالت:

- ولم تحملها في يوم الأجازة؟

قال باطنه: "لكي تذكرني بالهروب!".

قالت سوسن:

- إنها فارغة إلا من كراسة الشذور والكتب التي نذاكرها!

وقال الأب باسمها له:

- المدرسون يعترفون بذكاء محروس، أما ابلة زهرة فهي تعتبره نابغة

المدرسة!

اعترضت الزوجة:

- أ يوجد نابغة يحصل على درجة واحدة في الحساب من أول العام

إلى آخره؟!

تسأل باطنه: "لماذا ارتقى الكتكوت النقار قمة الأصابع المضمومة؟

وهل انتهتبه الحدا من فلول الكتاكيت في ضحى الهرب الأول؟

قالت سوسن:

- كثير من النوايع تعثروا في دراساتهم!

نظرت والدتها إليه قائلة، أو مهددة:

- المدرسة في هذه السن أهم من النبوغ. لا تسيء إلى.. وإلى..

وإلى!

بعد صلاة الجمعة استأنفا المذاكرة. وقد شرحت له مسائل

الحساب، ثم اختبرته بمسألة ضاحكة كأنما تتحدى أمها؛ ولكنه لم

يستبدل بقمة الواحد قمة. وقد يفاجئها قائلا وهو على جناح الخيال:

- أنا تمنيتُ على بنات الماء أنا تنقل البيانو بين أشجار الكافور!
فتقول باسمّة:

- أو تريد مني الهروب؟
فيقول:

- بنات الماء هن اللاتي يردنك!
- لكي ييكن علي كما بكن إكاروس؟
- لقد حولن الصخرة إلى موجة طافية!
- لبيانو المدرسة أيضا بنات ماء!
يسألها:

- ولهن إكاروس؟

كان قلبه نواة لملايين من أجزاء الذكرى السابجة حوله، وكما
تسبح الأجرام السماوية سبح على صلوات من أذان الجمعة، وصلوات
من أذان قلبه..
مازال وقت المرواح بعيدا. نهضت به من المصطبة همة الهروب،
ومتاهة الخيال متذكرا سؤله للأستاذ:

- أو صحيح دماء الممالك جرت في شارع الدرب الأحمر؟
فضحك ووعدته بزيارة يتبعان فيها مجرى الدماء من باب المذبحة وحتى
بوابة المتولي، حيث يرقد حيلة في غفق النوم وأحلامه الفصيحة. مضى
قدما في سكة الوزير، أو سكة الزيارة العالقة بذهنه كبوق اغتيال يحرك
بلايا التاريخ. تزهز البوق بهزاهيز الفتن التي يهتز فيها الناس؛ فخطر له
نبوت عم بيومي وهزته بأيام الهروب، وتصور إبراهيم أغا حارس
باب العزب، والمكلف من قبل محمد على بإغلاقه في لحظة المذبحة
الحاسمة..

كابد خياله اللحظة التاريخية، أو لحظة الباب المنطوي على سهيل

الخيول وأزيز الرصاص؛ حتى بلغه ووقف بين رتاجيه المصروعين على
مستنقع آسن خاله مستنقع دماء.

يا لهول النجاة!

سبيلها ضاقت به رحبة القلعة، وأغلق دونها رحبة الميدان!

كيف نجا أمين بك على جثمان فرسه؟

بل أين وقف إبراهيم أغا؟ وهل كان معه نبوتا كنبوت عم بيومي

يؤرخ عليه عدد القتلة من قادة المماليك؟

يا عجز الخيال! بأي شيء سيتوحد؟

بمنحدري الصخور، أم بطائر الخطاف المارق من أبراج الباب؟ هنا

تكلمت ربة التاريخ بلسان معلمه، وهنا نقب معها في الصخور، وهنا

ألمته بمشهد سمع بوق اغتاله من جهات الشمس الأربع. رص صفا من

الأحجار وتنقل فوقها عابرا الطين الآسن..

هل للدماء رائحة؟

منعرج المنحدر الصخري الوعر، جبانة نُحت في صخورها صراع

البقاء، وصراع الاندحار!

إنها يد كليوس أو يد المصادفة تصطفى للمماليك، منحدر اغتيالهم.

لقد أرهقهم الاغتيال صعودا؛ وإذا به يرهقهم هبوطا! يا هول

النجاة من النفس، ومن مرايا صخورها المطبقة بالمنحدر وجانيبه

الوعرين. تسلق الجانب الأيمن وجلس يدون في كراسي الشذور مشهدا

عنوانه:

"مرايا الصخور"

ويستهل وباب المذبحة يقف به اثنان يتوهمان أن الباب مغلق:

أحدهما من الداخل والآخر من الخارج، وكلاهما يدق وهم الباب

مذعورا، كأنما يفر من هول يتعقبه!

الذي بالداخل يصيح:

- في عرض الحرم افتحوا الباب!

فيجيبه الذى بالخارج:

- في عرض الحرم افتحوا الباب!

- أنت مجنون، دعنى أخرج.

- الجنون هو أنت، فدعنى ادخل!

تتناهى إليهما دقات وهزهزة تتحرك ظناها بعيدة!

من بالداخل:

- ما تلك الدقات؟

يجيبه من بالخارج:

- لست أدرى!

يصيح:

- في عرض الحرم أخرجنى من هنا!

يجيبه:

- في عرض الحرم أدخلنى إلى هنا!

يأزف وقع الدقات وهزهزتها المتحركة ويستشعران ديبها في

قدميهما؛ فيصيحان معا:

- الدييب في باطن الصخور!

يُطرقان معا، فيرى كلاهما نفسه في مرايا الصخور، ويباغتهما

الحارس قائلاً:

- إنما اللحظة الحاسمة فهل يأذن مولاي بإغلاق الباب؟

فينظر محمد علي في منحدر الاغتيال، ويذهله باطن الصخور؛

فيسأل إبراهيم أغا:

- من أنا أيها الحارس؟

فيقول:

- أنت مرآة الاغتيال يا مولاي!

طوي كراسة الشذور على الحقيبة مُتفكراً في النجاة، ثم قام
ليمارسها وتسلق مكتنف الصخور على أربع متوحداً بفرس أمين بك،
ويعيد الكرة والنجاة مهولة!

حمل الحقيبة ساعياً إلى سور القلعة، حيث قفز الفرس. بلغه ونظر
أسفله؛ فألقى الأرمم الثاني مُصمّ بتيار الكهرباء. تحول إلى الهوة بين
مسجد الرفاعي والسلطان حسن، وتصور الدماء تجرى بها كما تصورها
الناس، وصدق معهم أن الشارع اسمه الدم الأحمر..

سأل عم نحمده الشيخ حنفي:

- أصحيح أن دماء تلك المذبحة جرت أسفل الكتاب؟
قال:

- أكاذيب الناس هي الوجه الآخر لصدقهم!

ففقده عم نحمده وأوماً إيماءة الجزم قائلاً:

- أي نعم، وصدقهم الوجه الآخر لأكاذيبهم!
وسكت لحظة ليقول:

- الحقيقة كحزن أم وجيدة ثكلى لا تمل النواح!

ثم نفخ نفير سيجارته ليتوهج في ليل الحارة وجهه، ويتشكل
الدخان على أرجاء الوهج كأنه أرواح الأموات تتزايل متلاشية في
صمت مخيف.

رجع قاصد أبراج باب المذبحة، وقد عزم على الصعود إليها،
واستكشاف أعشاش طائر الخطاف المستعرض فضاء الرتاجين الهاتلين.
دار مع منحدر الاغتيال الصخري هبوطاً وأصوات غريبة تتكاثر
وتسرع وتستخب وتهيج وتصرخ؛ كأنما قد انخسف سور مدينة "باب

الأبواب" عن يأجوج ومأجوج.

أو انخسف عن تلك البناية الغائرة في الصخور والصادر من نوافذها المتهدمة ذلك الصراخ المتكاثر كرمل البحر. تهب التزول إلى غور البناية وحازها منحدرًا مع المنحدر والصراخ يذكره بهول النجاة وبوق الاغتتيال. ترك غور البناية وراءه حتى بلغ ساحة طائرا الخطاف؛ وإذا به يسمع هتاف دكة المطالعات:

"من عمل للخطر مُجازفاً عمل له الخطر متديراً". تهالك خياله مُنجذباً كأنما سيرى "مدينة باب البواب" وسورها المنخسف عن يأجوج ومأجوج. اشترى علبة ثقاب وجمع بعض الخرق، وارتد به الفضول من فوره إلى ساحة الخطر ومراميه. نزل إلى غور البناية وفحصها تفحص الرحالة المستكشف، ثم جرب وسيلة جدته في طرد الذباب بالدخان وأشعل الخرق، ورمها من النوافذ المقببة، ولم يكد يفرغ من رمى الأصوات المُستبشعة حتى اكتشفها؟

إنها خفافيش كرمل البحر انطلقت من النوافذ قاطبة تصرخ وتموج وتنجذب للبناية مطوفة بما كأنما تترقب فراغها من الدخان..

استرق النظر إلى نضالها ودقته المتناهية وهي تطوف كسحابة مُسحمة لأصواتها حثيث يقل أصفاد الظلام التي غلتها عهودا، ولمح من وراء دوامة النضال تلك المئذنة الهيفاء الصاعدة في السماء. مئذنة الباشا. لم يبرح غور البناية حتى تبدد الدخان ومقرت الخفافيش من قباب النوافذ إلى أصفاد الظلام. دقت أجراس قلبه كأنها أجراس المرواح، وتعجل أذان الظهر للقاء سوسن. فصعد إلى منحدر الصخور، وهبطه إلى الباب المصرع على الماء الآسن. خرج منه واخلفه وراءه زاهدا في المذبحة كما يزهد الخيال في الحقيقة.

فُتح بابا مسجد المارداني المتقابلان، كان همه صعود المئذنة ليطل

على شرفة سوسن، ولكن التصاق دهليز المئذنة بحجرة الشيخ أفشل مناوراته جميعا، وقد ضاق الشيخ ذرعا بقميص المدرسة والحقيبة، وبنظرات محروس الحاملة المناوئة، وهيامه المفتعل بمذهبات السقف ونوافذ الجص المضيئة، والأعمدة ومصطبة الخطبة الرخامية، وتلصصه خلف الحاجز الخشبي..

انتبذ جوانب المسجد وهو آيس من تهجم الشيخ، وشأفة خصامه. أخرج كتاب القراءة، وقرأ وكتب ولكنه رمقه والبصر في البصر.. صاح به:

- التلميذ أبو حقيبة!

فقام حاملا كتاب القراءة مفتوحا على موضوع الطيران، ولما تواجهها عند المنبر؛ سأله ونبراته يسيل لعاب تهكمها:

- هل ذاكرت؟!

قال باطنه: "بل توحدت".

أجابه:

- وعرفت أول من طار في السماء.

- بالتأكيد ليس هو من يهرب من المدرسة!

- بل كان هاربا!

- هاربا؟ لعلها خبيته التي هرب منها!

- بل هرب من الملك.

- وأنت ممن هربت؟ من ملكة النحل؟

رمقه متبسما وراقه أن يوحدته بخياله فسمع تهديده:

- إنني أعرف الست النازرة تمام المعرفة.

قال باطنه: "وأنا أعرف شجرة الدر".

- إنني أعرف أختك التي تذكر معك بعد صلاة الجمعة!

قال باطنه: "وأنا أعرف بنات الماء".

سأله مشيراً إلى دهليز المئذنة:

- هل رأيت طيور المئذنة؟

فأشار إلى رأسه قائلاً:

- بل رأيت طيور رأسك وخياله الواهم!

فأسمعه كلام معلمه:

- الخيال محض عاطفة كوحى الله إلى النحل في الجبال!

قال مقلبا كفيه:

- أتسمى وحى الله خيالا؟!

- أنا أقصد أن من أحب النحل كحب الله استطاع تكليمه!

فرفع ذراعه كنبوت عم بيومى وقال:

- وفيم أتيت المسجد ولم تذهب إلى الجبال؟

قال باطنه: "المئذنة كالجبل والجبل كالوادي المقدس طوى".

أجاب:

- رجوت الله أن أصعد إلى المئذنة!

- أهربت من المدرسة لتصعد المئذنة؟!

قال باطنه: "إننى منفي".

أجاب:

- لست هاربا!

- أنت مريب وبك جراءة غير معهودة من أترابك!

قال باطنه: "أبقي معك حتى التقى بسوسن"!

هدده بأبيه الذي مات:

- أنا أعرف والدك تمام المعرفة وسيكون لقائى به بعد صلاتي

بالناس!

قال باطنه: "اعتبرني من الناس".

وقال وذراعه يزرجه:

- لا تبق بإثم الهروب في بيت الله!

- سأذهب وأتوضأ.

- ليس لهارب وضوء!

رمقه الشيخ وباطنه يردد: "إنني منفي.. أنا منفي".

ثم هيب رمقة الصقر مردداً:

- أنت مريب... أنت مريب!

أغربت جدته في الضحك وعم بيومي ينقل إليها ما وصف به ابنها
في الصباح، من أنه كالمطلاق. ثمالكت وأفهمته:

"إن الذنب ذنب زوجيه العجوزين!"

تقصد مدرسة الهروب ومدرسة النفي. بينما كان هو وراء الطبلية
ينقل لمعلمه وصف أمه للهروب:

"هروبك من المدرسة تسول مشين. أنت تتسول اللعب كما يتسول
الملحفون نقود الناس. اللعب ليس لعبك والنقود ليست نقودهم!".

فقال قائل من الندوة:

- النقود نقودي أنا!

- قياس وجداني معقول من الأم!

- لذلك نقود الشحاذة بلا كيس!

- ومسكين اللعب لن يجد من يتسوله!

شجعت هذه العبارة أن يقول:

- أتؤمن بهذا ولا تؤمن بأنها تتسول مني حريتي؟ هذه الحرية ليست

حريتها إنما حريتي أنا!

- مسكينة الحرية لن تجد من يتسولها!

قال المعلم مخاطبا الندوة:

- الحرية ليست قصورا ذاتيا، وإلا كانت قيда بشعا، هاكم البحر

المترامى أنه لا يستطيع إلا أن يكون حرا، ونحن نجح حرية أمواجه

ونتهيسها في آن. نجح جمال حريته، وجلال انقياده وتناغمه مع سريرة

الكون وظاهره، أو توحد بحرية أكبر؟ الجليل في البحر أنه ليس حرية

واحدة، وإنما لكل قطرة فيه حرية تؤمن بنفسها ولا تستغنى عن كل

حرية معها وفوقها؟ وأنت لن تكون حرا بغير جمال، ولن تكون جميلا

وأنت مستغنى جائر. شعورك بالحرية لا ينمو إلا مع غيرك، وشعورك

بالحب لا يدوم إلا مع غيرك، وشعورك بالسعادة لا يكتمل إلا مع غيرك، ولكنك تموت فردا في استغناء التهدم! الاستغناء قطب الموت. الخلود لن يكون خليقا بالاحتفاء بغير حريتنا المتناغمة المنقادة للكون، المنقاد في ذاته للمشية الكاملة. الحرية تنقاد للمشية دون أن نصفها بأنها نقص أو حرية ناقصة، ثم تبسم للمتوحد بالحرية وقال له:

- بنفس الفرحة التي غنى بها العصفور لنفسه يغنى مقاطع غيره لهذا فهو محبوب جميل، والجليل من ينقاد لحرية العصفور كأها حريته. الله يحب حريتنا لذلك فهو جليل.

ولما غادروا السطح أجلسه على دكة المطالعات وقال له:

- كم يوم حرمت نفسك من المصروف وادخرته لهدية سوسن؟ ألم تكن أسير عيد ميلادها مضحيا بحريتك مختارا؟ وماذا لو رفضت هديتك؟ أكنت تصعد سطح المدرسة وتقول لنفسك: "لا تغنى الأجنحة عن الطيران"؟ أجل، فما أغنت الأجنحة عن الطيران، ولكن الطائر الذى يعيش الحرية في نفسه ولا نراه في السماء فلماذا يطير؟ ليست الشمس هي التي أسقطت إكاروس، وإنما سقط والصعود يحول به إلى نقطة ساكنة ضئيلة في فضاء الحرية. اخفض جناحيك حتى تراك بنات الماء فرما أسرعن إلى الصخرة وحولنها موجة طافية!

خلال أسابيع النفى أوفى توأمه من الجنود بعهدده وعلمه ركوب الخيل. وكان أول شيء رصده بالمنظار الذي تجسسوا به عليه وجه أم وجيدة حيث تجلس على كنية شباك المرتفعات. تركه الجندي ينظر إلى وجهها طويلاً ثم قال:

- العمر في وجهها رتيب بينما الحياة خفاقة!

ثبت المنظار على سطح "ضياء" صريع أرجوحة المولد، وصغير "نبوية" ابنة عم كامل. ضياء هو أول من طيرَ معه الطائرات من السطحين، وأول من حرر معه الكتاكيت من البيض المسروق من عشش السطحين، وأول من بنى معه ملعب الكرة بمرعى دولة الأغنام.. هو الأول في وهلة الحياة والأول في وهلة الموت!

حول المنظار إلى المئذنة الفريدة وشرفتها ذات الأوكار، يقال إنها لمسجد الرفاعى القديم؟ وهو مسجد عتيق حقاً وبه خزانة مكدسة بالكتب، وبئر، وحلق مئذنته أنبوي مكشوف، طالما صعد فيه هو وأكرم حتى كانت مخاطرة الحدأة التي تصنع الموت؛ فكانت نجاتها انتصاراً له بأمر أم وجيدة. سألتها مرة في حجرة الإمام:

- كيف تصعدان في حلق المئذنة؟

فأجاب أكرم بأنهما كانا يستعينا بإطار عجلة يضعه محروس في خصره، ويحتجزه به أكرم حين يخرج من قُمرة في الحلق أسفل الشرفة المكتظة بفروخ الحدأ، والواقعة بين المدرستين: ذروة النفى، وذروة القبلة..

لو أنها وثبة طائر برى؟ بيد أنها وقفة طائر حيران! أجرى المنظار على سور القاهرة وأبراجه، ثم رصد القلعة والمئذنة الهيفاء، وأجاله في الوهدة الرحيبة ملياً، وشعر بوطأة الدهر على بقايا حضارتها، وعلى بيوتها القريرة الوديعة أسيرة القدم. ولم يبالغ وهو يقول للجندي:

- أكاد اسمع صرير الأصفاد. وكثيرا ما أغمضت عيني وأنا بحفاة
أشجار الكافور لهتاف دكة المطالعات:

"أنت الذى تسمع وتتوجع، بينما هي قريرة قرارة الحكمة. الأصفاد
أصفادنا نحن، وهى التى تشاهدنا وتكلمنا وتأسرنا.. إنها الحياة الملهمة
المطاولة للقرون، أوهى البلاغ المبين، لمن كان له قلب وخيال. صدق إن
القدم يرصف فى أصفادها الملهمة..".
قال الجندى:

- صدق معلمك، وإن كانت وهدة القاهرة جامعة لتقائض
الصراع. شعورنا بما شعور واحد، ولكنه ما يلبث أن ينشطر ويواجه
بعضه بالبقاء والفناء، والعزة والذل!

وهما يهبطان بالحصانين من جناح المرتفعات إلى قمة التل المنخور
بريح أموات طمست هويتهم؟ كان يكلمه عن الطاهر، ثم قال:

- كلما ترزحلت من قمته أشعر أن موته قد شبه للناس، وكلما
ألقيت فى جوفه حجرا بحجم جمجمة؛ يغور بلا أدنى صوت، فأتهيب
الترحلق ومنقلبه الصموت!

قال الجندى واصفا وهلة الترحلق:

- هي مخاطرة فيها من جد الحياة ومهابة الموت، وهكذا يكون
اللعب المبكر حافزا لإرادة الحياة فى أن تفعل وتُمحض رغبتها بين روعة
الحياة ومهابة الموت وكلاهما قريب من قريب!

ثم ردد النظر فيما بين أبراج السور والتل، وقال:

- حياتنا ممزوجة بحضور الموت الأبدي، ويبدو أن حياتنا مؤجلة
باختيارنا، إلا أن تكون شهادة، أو غيره نباهى بها الأمم!

قال حيران:

- بأقل الريح يهبط على بيتنا ثرى الأموات من ذروة تحوى محتضر

الحضارة ومخلفات أفرانها!

- واقعنا مغرق في حسية الموت والحياة؛ فهلم إلى اللعب البكر
ووهلته المروم، ولكن احذر من الوهلة الصموت حيث يكون موتك بلا
صدى!

ثم هيا حصانه للتسابق صعودا في جناح المرتفعات قائلا:

- هلم!

وكانت آخر كلمة سمعها منه.

انتظم أياما بالفصل، ثم وجد نفسه ينضوي إلى الثكنة، ومن خلال
أسلاكها لاحظ تفكك الخيام وتكومها، وانخراط الجنود في حمل
المعدات والمخل إلى عربات عسكرية. الثكنة على أهبة الرحيل، ولكن
إلى أين؟ لا أثر لتوأمه أو جندي واحد ممن أكملوا له أيام الهروب.
أنسربَ من أسفل الأسلاك ولكنه ارتد من فوره، ثم هبط في جناح
المرتفعات إلى التل المنخور الصفصاف بملساء ناعمة نعومة الموت. قضى
بكرة النهار مُنهمكا في الترحلق ولم يغب عن باله تلك الصخرة "حقيقية
المدرسة".

حملها من قمة التل. أي من حيث انتهى سيزيف^(١)، وانزلق بها
إلى حيث بدأ هو هاتكا سرا بشريا، وليس سرا من أسرار الأرباب!
الأفق بين السطح والمرتفعات في ديمومة أشجار الكافور العملاقة.
لهامتها بجوى وقرار مكين. تدوم الحدأُ أعلاها كمرسلات بين
عالمين؟

وبالخلاء المنظور برج المراقبة "قمقم الخيال" المتوحد بغوارب

(١) سيزيف: بطل إغريقي حكمت عليه الأرباب بحمل صخرة، وما إن يصعد
بها القمة تتحدر ويعاود الصعود بها.

التاريخ، وأغلال الفتن، ودفوف الدراويش، وعطور الحرم..
استوي بكراسة الشذور على دكة معلمه الغائب عن السطح وقرأ
للندوة مشهد:

"التل المنخور"

ويستهل بأصداء تصدر من قاع الأموات الأملس.
أصداء تزين لكل عابر أن يحمل تلك الصخرة بقمته ويهبط بها،
ويتوافد العابرون، ولا يجسر عابر على حمل الصخرة، وإن جلس إلى
جوارها يزين لغيره حملها بأصداء تصل إلى قاع الأموات كنخر الريح
للعظام النخرة..

ويختتم المشهد واللغظ يسود سفح القمة، فلا يعرف الأموات بما
تؤوب الأحياء، ولا يعرف الأحياء بما يؤوب الأموات؟ وإذا بعابر جديد
يصغى إلى الأصداء فلا يعي منها شيئاً، فيبسم من غموض اللغظ وعبث
تماديه، ثم أقبل على الصخرة يحملها ويهبط بها فيما انفسح له من سبيل
إلى الأموات.

قال قائل:

- هي إذن صخرة العقاب حملها سيزيف إلى قمة كالمنحدر وحملها
العابر الجديد إلى منحدر كالقمة!

- ولم نسميها صخرة العقاب، ولا نسميها صخرة المعرفة؟ أرباب
الأساطير كآبائنا يشفقون علينا من مكابدة المعرفة، ومع ذلك يتعاضون
لنا الكراسة والقلم!

- المفارقة في خيال صاحب التل المنخور أن حامل الصخرة لا بد أن
يمر على الأموات، وكأن همته وطموحه ونجاته مرهونة بهم. وما
أحسبها إلا صخرة العبرة المتوارثة، فليس العقاب من أولويات ذلك
الخيال، ألم يحمل هو الصخور: صخرة المدرسة، وصخرة المهروب،

وصخرة الخيال؟

ثم التفت إلى حمال الصخور وسأله:

- ما الذى أعجبك في سيزيف؟

قال:

- أعجبني في الأسطورة شيئين: بلوغ سيزيف القمة، وانحدار الصخرة منها. فبلوغ القمة عمل سيزيف، وانحدار الصخرة عمل الآلهة، وحسب سيزيف أن يقترن عمله بعمل الآلهة!

حين قال لمعلمه من وراء الطبلية:

- إننى قد أفهم عقاب الآلهة في الأساطير، ولكننى لا أفهم عقاب الإنسان للإنسان. أنت قلت أن الناس بنوا لإبراهيم الخليل أهدودا من النيران، وبذلوا رأس يحيى الطهور من أجل جسد راقصة مبدول، وقد أخرجوا الأنبياء جميعا. أنا لا أحب عقاب الإنسان للإنسان!

فقال:

- عقاب الآلهة قضاء بالحرية، وعقاب الإنسان قضاء على هذه

الحرية القدرية!

و"الكليوس" ربة التاريخ موقعها من السطح.

تساور خياله على قمم من السحب كجبال الاولمب. ويتكلم
الشيخ حنفى عن يمامتى نوح عليه السلام؛ فيصدق أن طائر "الوطواط"
ينبئ كليوس بحكايات المقاهى، والمساجد، والكنائس، والكتاب، وقبو
عم كامل، وحوش أم وجيدة المعلق ببابه تمساحا محنطا!
كان وراء الطبلية يردد بصره بين سحب كليوس وطائرها المارق
ذهابا وجيئة كأنما يسمع حديث الندوة. داعب معلمه بنات ذهوله:

- هل حضرت كليوس؟

تبسم وفاجأ الندوة بهذا السؤال:

- هل عاصر عم نحمده خيمة آبائه خارج سور القاهرة؟

- يُسأل في ذلك الملك الصالح، لأنه الوحيد الذى بنى مسجده
خارج السور.

- أترأه اقتدى بمجد من أجداد نحمده؟

- ولمَ لا؟ وقد ندموا جميعا على ذلك كما ندم الملك!

- ولكن نحمده لا يندم ويجزم أنه بنى دكانه خارج السور؛ ليظلل
الناس يعتقدون أنه سفير مُبعث من ملك الموت!

واستشهد بقصة الشقي الذي حُكم عليه بالإعدام؛ فكتب إلى عم
نحمده يقول:

"وكيلى رب يوسف، إذا قضى الأمر أوصيك بإخراجى من الدنيا
كعريس، وأنت تعلم ما أودعته عند "حيطة الحداد" الخللخال يا عم
نحمده. استرده، وأعرضه على التى رفضتني، وأنا حى ظالم، فإن رفضتني
وأنا ميت مظلوم، ولم يشفع لى عندها أننى ما حزنت على ضياع الحياة
حزنى على فقد حبها وتوقف قلبى عنه، إن رفضتني يا عم نحمده؛ علق
الخلخال فى نعشى وسلمها هذه الرسالة:

"إن سمعت رنته ودعي روحي بنظرة أخيرة من الشباك".

ويمرق طائر الوطواط، فيكلمه محروس من وراء الطبلية:

- قل لها تقبل الخلخال!

فتقبله، ولكن صاحبه لم يخرج من الدنيا كما قدر لنفسه، وإنما دخلها عريسا يُزف على "رنة الخلخال" كما شاءت شجرة المصادفة، إذ تلقى عليه من وراء حجاب ورقة نجاته من حكم الإعدام.

سأل السجين عم نحمده:

- أو أخذت الخلخال يا عم نحمده؟

أجابه:

- أخذته يا بني!

فغلبه النشيج وهو يقول:

- صدقني، يا عم نحمده أنا رأيت سيدنا يوسف، وبشرني ببراءتي وزواجي منها!

وقد نسى الناس زفة العروسين، ورنة الخلخال، ورؤية سيدنا يوسف، ونسوا ورقة المصادفة وشجرتها تورفهم بظلالها، غير أنهم ما زالوا يذكرون سوانح أخيلتهم المُفسرة للنجاة.. كأنما الحقيقة الحاضرة، كالخرافة الغائبة، يستطيعها الخيال والقدر!

ويمرق طائر كليوس بسرعته الفائقة، فيذكر مرض الشيخ حنفى وسؤاله للمعلم:

- أكانت مصادفة أن يمرض الشيخ حنفى وتصبح أنت معلم الكتاب؟

فهش وجهه لتدبير المصادفة قائلاً:

- حقا كانت نادرة أن يمرض الشيخ، وأندر منها أن يأتمن أحد عليكم، فقد ماطلته الحكومة مرات في المعونة المخصصة للكتاب، ثم طلبت منه توزيعكم على المدارس، ومعاهد الأزهر، ولكنه احتفظ بكم غير عابئ بما يكون من الفاقة والعافية!

وكم من صباح عبر قبو مسجد أبو حرية، ولتوه انعطف مستقبلا
سلم الكتاب المنطوى بين جدارين يضيقان به، ويصماه عن نُهيّة القبو
أسفله وحجرة الدرس أعله.

درجاته قائمة كمنحدر خطر! وقد تبلغ الواحدة حجمه إلا قليلا،
ولا يدري لما تركوه يرتقى تلك الدرجات وحده؟
وكان وقوف أخته خلفه على باب الكتاب ادعى للتعثر والرعب؛
إذ كان جل اهتمامها تعجل ارتقائه بتشجيع كالانتهاز، ونظرة مذعورة
من التأخر على مدرستها.

بكورة الارتقاء تلك على ما شأها من رعب وتعثر وانتحاب؛ إلا
أنها كانت ماضى الذاكرة الجيد، وعزيمة الخيال لدى كل ارتقاء وكل
خطر مطير، وهى السبيل إلى حماسة الإنشاد الجماعي، وبهجة الغرور
اللذان كرسهما معلم الكتاب للقضاء على ذهول الانتحاب، و تطويع
عاطفة البكاء لشعور بالثقة والاجترأ، فلا يتلقاهم في حجرة الدرس إلا
وحماسة الإنشاد من الصغار؛ تقفو إيقاع نبراته ارتفاعا وهبوطا، وتارة
تسلس حماسهم له، وتارة تستقل بنشوزها وروعته، بينما هو يزيكها
بإيماءات الاندهاش، وهزل الاحتجاج المحرض على الاستقلال، ثم يغمر
الجميع بحفاوة الإعجاب.

ولا يسألك إلا لتنبه أو تتذكر، وإن كان تعاونه معك أسرع من
تذكرك، وقد يجعل الإجابة مدعاة للتنافس والمكافئة، أو يجعل من نفسه
هدفا لك، فيحاكيك في جهلك، وشروذك، وإيمانك بالمحاولة، ثم
فرحتك بالتذكر وإصابة الإجابة..

ويسأله محروس:

- لم يسكن الوطواط سقف الكتاب؟

فيقول للجميع:

- لكى ينقل أخباركم لأمهاتكم.
- الوطواط يقول لمن كل ما يحدث هنا؟
- كل شيء إلا البكاء!
- ويستجيب لحماسهم واندفاعهم إلى عقدتي النافذة الشاسعتين؛
- ريثما يراقبون الوطواط في سرعته وجراءته، ويومئ إليه وهو يأكل
- ويشرب ويستحم على جناح الهواء..، ولكن صغيراً آخر يومئ إلى
- طيور مسجد أبي حرية ويسأله:
- لما تسكن هذه الطيور المثذنة؟
- لأنها طيور بريّة!
- يعنى أيّه بريّة؟
- لا أحد يملكها.
- ومن يصطادها؟
- لا تأكل عنده ولا تبيض!
- حتى تموت!
- فيقول لهم:
- لا، إنها لا تموت أبداً في يد أحد!
- وأين تموت؟!
- على جناح الهواء!
- الهواء ليس له جناح!
- بل له أجنحة كثيرة!
- وأين هي؟
- فيسألهم لامحاً محروساً:
- من يجيب على هذا السؤال؟
- فيذا بمحروس يُمزق ورقة من الكراسة ويلق بقصاصتها من النافذة

وهو يقول لهم:

- هذه هي أجنحة الهواء تطير بالقصاقيص!

ويمرق الوطواط بسرعته الفائقة من قبو أبي حريية؛ فيرددون من تلقاء أنفسهم هتاف الطير:

"الطير على غروره المحبوب ما لم يقع في الأسر..". وبعد حين ردد هو هتاف الإنسان من ذروة المرتفعات:

"والإنسان مع فضيلة الغرور الناشئة متى كان الغرور نقيض العجز والتفاهة والتطاول والادعاء"

ويتكلم عن البحر ثم يبسم له من دكة المطالعات قائلاً:

"وللبحر غرور محبوب ما لم ترهنا قوته المجهولة، وللزهرة غرورها ما لم يُقبضنا هون ذبولها!".

بعثته جدته إلى أم وجيدة بأكواب العاشوراء، ونبات عباد الشمس، وكيس السمسم، وأعشاب الكافور. كانت بالطريقة المكشوفة تفلي أذني الكلب "حُنْجُل" وتغط الملقاط في صفيحة الماء؛ فيطفو القمل السبي والرمادي ساجاً مرتعشاً، وقد سمته "حُنْجُلًا" على اسم أبيه "حُنْجُل" كلب الطاهر، وهو على خلاف ابنه لم يترل إلى الحارة ولو مرة واحدة، واكتفى بالتطلع إليها من سور السطحين:

سطح أم وجيدة، وسطح البدوية، ومن فوق سورهما تعددت صداقاته مع كلاب رآها، وكلاب جاوب أصواتها ولم يرها؛ لذلك كان أي نباح يتردد في الجو يُستهدف من حُنْجُل الأب حتى أمكنه من خلال ترددات النباح ومناجاته أن يستدرج كلبة عم "إيران" من سطحها الرابع..

ولما فقد الطاهر وقع حدثان في حياة "حُنْجُل" الأب: أولهما هجرته من بيت البدوية إلى بيت أم وجيدة، وقد أخذ في فمه قميص الطاهر، ووضعته بتجويف حائط بين كنبتي حجرة اليمام كانا ينامان داخله، والحادث الثاني سقوطه من سور السطح وكسر رجليه؛ فحمله إلى أم وجيدة تجبر كسره، ولم يكد يتمثل للشفاء حتى تجرأ ونزل إلى الحارة بعدما ذاق حلاوتها!

أبقت له أم وجيدة قميص الطاهر في تجويف الحائط "إيلاف الذكرى" كما تصفه، فكان يلوذ به مختاراً آمناً، أو هلوها هارباً من خرطوش البلدية، أو لاهثاً جريماً من معركة، أو مدبراً من شهوة قطعها عليه السابلة، وربما لاذ به ليسكت غضب أم وجيدة. استفزته حمامة دأبت على نقر أهدابه المغمضة على عينه المتصأص-أة، وزام، وهرهر بفراغ صبره، ثم كشر عن أنيابه وانتفض يهاجمها، ولكنه ارعوى لاوياً أنيابه عنها وأم وجيدة تردعه وتوجه؛ حتى انسحب في انكسار ظاهر،

ولبد بالطريقة يسمع استنكارها المتواصل، ثم وهى تقول وعينيها في عينية:

- هل جنت؟! كيف تماجمها وأنا بينكم؟
فكس رأسه كأنما وعى ما في نظرها من أسى، وتلهمه غريزة الإيلاف؛ فيبدل الأسى ذكرى ملئعة في عينيها ويلوذ بإيلافها منكسرا، أى بمرقده هو والطاهر في تجويف الحائط. وكانت هي تختبر وفاءه وتخبئ القميص في الدولاب؛ فيعود من الحارة ودون أن ينظر إلى تجويف الحائط ينعطف إلي ريح القميص، ويشخص للدولاب يتشممه ويستروح الرائحة الدفينة، ولا يجروء على فتح ضلفتيه بأظافره، وإن تجاهلت أم وجيدة نظرت المستعطفة وتكاسلت مسترخية على السجادة، فعل مثلها واسترخى أسفل الدولاب!

أشعرتها وقوفة "حُنجُل" الابن أن زائرا معروفا يرتقى السلم...، تراءيا على تبسم حفي كأنما كانت تتعجل حضوره بأكواب العاشوراء. وقف على آخر درجة يسمع سؤالها:

- كم كوبا أكلت؟
- العاشوراء لا تزال ساخنة.

خطى من خلف ظهرها المنحى إلى شباك المرتفعات. وضع صينية الأكواب على حائطه وكيس السمس وعباد الشمس، وأعشاب الكافور على السرير النحاسي، وسمعها تقول حُنجُل وقد فرغت من تغليته:

- لم يعد لبصرى طاقة على ذلك!
نبح مندفا إلى السلم كأنه على موعد، بينما رجع محروس إليها حاملا قارورة زيت الكافور. أراحت ظهرها بجدار الطريقة مغمضة عينيها له. بدأ بتمليد ذراعيها، ثم رقيبتها الصاعدة. همست بغنة كأصداء الذكرى:

- يدك مثل يد الطاهر!

فروع سكيتها قائلاً:

- أنا عثرت على ممر الأبراج الذى فقد داخله!

أوقفته عن جذب أصابع قدمها وقالت متهدجة:

- مالك والممر؟!

سألها:

- هل قلت ذلك للطاهر؟

أغمضت عينيها على رؤية سمعها منها؛ فترأ لها الطاهر وهو
يندغل إلى جحر ثعلب، وعم نحمده يقتفى أثره بقنديل انطفأ ما إن
تطائر بينهما عصف من أشجار الزيتون، ثم تكوم وغاض في تراب التل
المنخور..

أستأنف فرقة أصابع قدميها وخطرت له مشاهدات عم كامل
للأموات. قال:

- عم كامل شاهد الطاهر يحمل ملابس كاملة لامرأة تستتر
بالبرج!

- كامل لا يرى سوى الذاهبين!

- إنه أخذني إلى الممر الذى ولجه الطاهر!

التفتت يائسة إلى برطمان العقارب فوق الراديو، وقالت:

- الطاهر كان يحلم بالعقارب!

- وأنا أحلم "بقراقوش" باني السور!

كالخذرة:

- تذكر أن وساطة الشيخ حنفى هي التى أرجعتك إلى مدرستك.

فناوأها بغرام الشيخ القديم:

- الشيخ حنفى يحب رائحة الكافور!

قالت باسمه:

- أملك نفذ صبرها وجدتك نفدت حيلتها.

فاستدركها إلى ذكرى الكتاب حين كانت تذهب به إليه، إما
ممسكة بيده، أو مجاورة للأرمد، أو حاملة له في عام الكتاب الأول..
تكلم محروس بنبرات ونظرات تخجلها وتضحكها وترييها في
سريرتها، إذ تنادى على الشيخ حنفي من سلم الكتاب المنطوي بين
جدارى الماضي، فكان الرجل يهرول من حجرة الدرس إلى السلم
ويهبطه متندا وقلبه يهوى في بئر الهوى ومائه غير المسوس!
لم تتلاق عيناها أبدا، حتى وهما يرتلان القرآن في حوش "الشاهد"
أو يتدارسان الأحاديث النبوية ومأثورات الكلم والحكمة.. ولما زارا معا
بيت الشيخ محمد رفعت بالمغربلين؛ سألهما مواسيا كليهما:

- هل ترين الشيخ حنفي يا أم وجيدة؟!

فأجابه الشيخ حنفي في نفسه:

"صَمْتُ وصمتت هي وكان صممتنا رؤيا"

ويقول ما معناه في قصيدة يمامتي نوح:

"ألاقيها وتلاقيني لقاء الغرباء

وأودعها وتودعني وداع الأليفين!

فيم الخمار وصوت عينيك صداح؟

وفيم الخجل وحنين أهدابك حياء؟

وفيم الوداع وتلاقينا اغتراب؟

دغدغ أعصابها مفرقا أصابع قدميها تباعا وهو يقول:

- كانت رائحة الكافور تذهل الشيخ حنفي؛ فينسانى في حجره

حتى يفيق على احتجاج الصغار، أو فوضى لهم كالا احتجاج!

فعاتبته:

- مالك والشيخ حنفي؟

قال باطنه:

"مالك وسوسن؟ لوجهها ما لوجهك متنسم من أريج الزهور!"

قال لها:

- كان يأخذني منك وفي حجرة الدرس ينسمنى ويتنسم قفطانه ثم

يردد مذهولا: "مزاجنا كافور"

نفذ ألق نظرتها في جنانه بسؤالها الرادع لهروبه من المدرسة:

"ما أخبار بنتنا عازفة البيانو؟"

ولكنها سألته:

- هل قرأ حيلة القرآن في حجرة الدرس؟

فأضحكها وهو يحيل السؤال عليها قائلاً:

- ذكرين أنت بما قاله لك الشيخ؟

وكانت الذكرى روحاً لأعصابها وقلبها وخرجها، وإن كانت

الذكرى حاضرة متجددة، ولا تمل من سرد رواحها كما سردته عليه

متضاحكة دامعة. قالت:

- فرح حنفي برغبة حيلة في حفظ القرآن الكريم؛ فطفق يرتل له:

"ق.. والقرآن المجيد.."; فيُحبس حلق حيلة على حرف القاف،

ويتبعبع، ويقاقي به بينما حنفي يقهقه، ثم أرسله إلي؛ ليراجع معي ما

انحبس في حلقة من قافات!

ويتفتح عباد الشمس في ضحكاتها ثم نهضت بعودها المديد؛

لطوافهما اليومى على أقفاص الحمام المثبتة بجدران الطريقة المكشوفة.

شرعا في تغيير ماء المساقى والحبوب وهديل الطير جميعا يستدعيها إليه،

وعلى دعوى الهديل كانت توحده بطوافها، وكان هو يوحدها بخياله.

تداوى الطير وتساءله عن أيام النفي وأيام الهروب، وقد تقطع استرساله

قائلة وهي تقصد أمه:

- وماذا فعلت "نمسس" ربة العقاب؟

وقد درّب على إطلاق خياله لحظة الكذب الصادق، أو لحظة الضرورة الخلاقة. التحضير يفسد خيال الهروب، ويقول معلمه في الندوة:

"مطawعة قوانا المبدعة خيار الخيال، ألا تطawع الأرض قوى البركان حتى لا تنفجر؟ لحظة التصدع خيار الأرض، وكذلك لحظة الإبداع خيار الخيال..".

وربما كانت أكاذيب هروبه مطawعة لقوى الواقع واستلهاها للحظة الإبداع والتصدع، تماما كالأساطير المستلهمة لما سيقى من فضائلنا وكشفنا، أو لما يحفظ للرموز قدسية دوامها. ويقول:

"في جلاء الحقيقة فنائها.. سيظل البحر رمزا لكلمة الخلق وبرهان خلودها؛ وان قلنا إن البحر سوف يتبخّر أو إنه بخار تقطر!".

وقد يستلهم لكذب هروبه تصورا كتصور جدته، ويُضمن الأسطورة معنى العبرة والموعظة، ويجعل من أبطالها قديسين وغرباء. أى يشبهونه، فكانت جدته تنظر إليه أمدًا يوحدها باللحظة الإبداع، وإذا بما تكلمه بكلام "تيما" ربة الأرض وتوصيه ببناء برج بابل؛ لكى يكون رمزا لمن كان تمرده خيالا، ثم تتصنع الحذر والتلفت الباحث عن ابنتها قائلة:

- وماذا سنفعل "بنمسس"؟

- سنجعل الأكاذيب تبلبل في عقلها بلبله برج بابل؟

ويضحك عباد الشمس في وجه أم وجيدة وتستلهم اسمها لها وهي تداعب الطير داخل الأقفاص؛ فيقول لها:

- أنت "ماعت" ربة العدالة، والريشة التى سترن ما في قلبى من خير

وتوحد!

ولا يُمهّلها قائلًا:

- وعم نحمده، حارس الريشة والميزان!

فتؤيده قائلة:

- ولعله حارس الأموات!

ويطوف معها على الأقفاص مُسترسلا في لحظة الإبداع التي جعلت قلب أمه كقلوب الطير، فريثما تُفرغ قوى غضبها، يبدع خياله أبدًا للهروب هي لباب الواقع الذي عاش بعضه وتخيل بعضه وحلم ببعضه وانتظر بعضه انتظاره للمصادفة وتديرها الإلهي. روى لها فيما روى لأمه:

أن الخيالة مرت قبيل الأذن لنا بدخول المدرسة، وإذا باللوثة تضرب سعيدًا؛ فشزرنّا هياجه وقطع علينا السبيل كأننا نغير من فصام ظله، ويناوئه تلميذ فيلاحقه ولا يكاد يمسه حتى يفر منه غير قادر على لمسّه لمسة إحياء جنود الانسحاب، ويُسلطون عليه هتافاتهم:

- يا مجنون!

- يا حرامي!

وبكل ما نبا من ألفاظ الكبار، كأن يحرض رجل يأكل الكشري بباب الدكان تلميذا قائلًا:

- قل له يا ابن عدلية!

فكان اسم أمه طلسم اللوثة.

وفز وراءنا كنيزك مدمر حركته يد "نمسس" ربة النقمة. فررنا منه حتى يُئسنا من الفرار، ويأس سعيد من مطاردة أشباحا ليست أشباحنا فكتبت لنا النجاة، ولاذ من لاذ بالمدرسة، والدكاكين، والحارات، وقع من قع بجوانب الشارع..

ولم يبق إلا أنا و "قسام" ومجال النيزك ونقمته وأشباحه، ويد سعيد تتناول تلاحقنا؛ فتنكبت الشارع إلى بوابة المتولى وغبار شنيع يلف "قساما" وإذا به صريع تحت عجلات أتوبيس (٦٨) كان سعيد أول من لمس قساما؛ وفز صائحا في الناس:

- الحرب لا تنصر قويا ولا ضعيفا، هو المجنون يا مجانين يا حراميه!
سألته أمه وعيناها طفوان بشفقة النجاة:

- هل رأيت الحادث؟

فقال شاردا:

- بل رأيت النجاة!

- أية نجاة؟ ألم يصرع التلميذ؟

- نعم صرعى وقد ظل قابضا على الحقيقة وهم يحملونه إلى

المستشفى!

- ابن من؟

- إنه قسام ابن قسام!

- وأين يسكن؟

قال باطنه: في حارة اليهود!

ثم امتقع وجهه وصوته وضميره بغبار الهروب وغبار فرار سعيد

بلمسة الموت. قال لها:

- كنا عائدتين أمس من المدرسة فلبى "قسام" نداء الشيخ ريمان

ووقف يقرأ الفاتحة، وإذا بصوت يقول من الضريح:

"طوبى لمن كان مرضه بلاء الأقوياء، ونجاته بلاء الضعفاء!".

ربما توسط قبو عم كامل ناحية القلعة وناحية بوابة الفتوح إن
اتصل ما رُدَم من سور القاهرة وما تهدم منه..

كان عم كامل وعم "دئدش" يرعيان أغنام جده في فج يلي القبو،
ويمتد إلى برج الظفر، ذلك ودولة الأغنام قائمة على عروشها..

ولما خوت اتخذ عم كامل من القبو مرتادا للمتوحدين بشماله
الشي المذاب بها الأفيون. وفي مرعى الأغنام القديم كان هو وأكرم
وضياء يمتطون ظهورها، ويحتلبون أنداءها بأفواههم، ويهللون لذريتها
تهليل العاطفة بظهور الحياة وبراءتها المتجددة تجدد الجهامة، وكلما عقد
"دئدش" صرة وليد؛ تنازعوا حملة وتخطفوه، والرجل العملاق وراءهم
يهدئ من مأمأة الأم.

كل أولئك نبت من خياله. أشجار الكافور الباسقة، وبرزخ الحدأ
المرسلات، ومزاغل رمي السهام، والأبراج ومسارها، والفخاخ المنصوبة
للهدهد وأبو فصادة والبالبل والغربان..، والكلام عن زرايب الخنازير
وراء المرتفعات، والقطار المقلوب، وصخور المقطم المتحركة ومُشتجر
الزيتون بحضيض التل المنخور، وتلك السيول الجارفة لطين الأموات،
ومُحتضر الحضارة ومدافن أفرانها، والمحتاحة به صدع السور إلى حيث
الحارات ونوافذ البدرومات، وهى السيول التى شقت شِعبا في
المرتفعات، صار طريقا مختصرا إلى القرافة؛ لمن يستطيع صعود المنحدرين
والهبوط منهما.

منابت للخيال نبتت في دولة الأغنام الذاهبة، وإن بقيت مزاود
العلف منضودة مائلة على سور القاهرة العتيق، أما المرعى فقد أحاله هو
وأكرم وضياء ملعبا لكرة القدم، ولكن عم كامل ما يفتأ يقطع عليهم
اللعب، كأنه في المرعى بين الأغنام، ثم يأخذها إلى فجوة السور المتصلة
بممر الأبراج، ويحدثه بما يشاهده يوميا عند كل غروب، إذ يسوق جده

الأغنام خُفِية إلى سرداب الفجوة! أحيانا يقول لعم كامل:

- ولماذا خُفِية؟ أليست الأغنام أغنامه؟

فيتتم:

- لعله يخشى ربه فيما بذر تبذيراً!

ويطيل الجلوس على أحجار الفجوة، ويخبره أن قبيلة من "قنابل
الثلاثة" أحدثتها، يقصد إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، ثم سكنها "فهمى"
دربة العاشق السكير، ولما جهزها حجرة تطل على المرعى؛ تزوج فيها
عشيقة القوادة الثابتة..

وفي ليلة زفافهما ساخت بما أرض الحجرة في حلق كان يُستخدم
كحجرة تعذيب في مجاهل العصور، وقد وجدا العشيقين بين الأحجار
صريعين على توحد من العشق يتدفق بماء الحياة، كما وصفه معلمه
وقال:

"كانا صريعى المجد. مجد الشرق، ومجد الغرب!"

يقصد حجرة التعذيب القديمة، والقنابل الحديثة.

قال عم كامل:

- بعد أربعين يوماً من وفاتهما؛ خرج بما جدك من الفجوة وقد
أراد أن يُضحى لهما أضحية؛ ولكن "دربة" أمسك السكين، وسألني:

- هل كانت توبتها صادقة يا عم كامل؟

فقلت له:

- ألا ترى دموعها يا دربة؟

وسألني جدك:

- من يسرق الأغنام يا كامل؟

فاستحييت من الرد، وقلت في نفسي:

"التبذير سرقتها!"

مصطبنا القبو بجانبه أحجارها ضخمة مستطيلة، يقال إنها أحجار
لأهرام بائدة؟ ومن حلقة حديد بالسقف يتدلى كلوب يتقابل عنده
بائكتان: بائكة النصب، وبائكة منفذ ممر الأبراج، الذى ولجه الطاهر إلى
حيث يتوحد بالغيبة، ولكن عم كامل ما يفتأ يشاهده وهو يهبط
الشعب المختصر لطريق القرافة وقد وضع سترة المرأة بظهر الأرمـد،
الذى دفنه الطاهر وحيلة في برج الظفر. ناداه عم كامل:

- يا طاهر، الشيخ سباق حفر قبر الأرمـد، ولما قرأ عليه من "سورة
الروم"؛ تكلم الجان بالإنجليزية، واعترف بمواقعة المرأة بوسيد البوابة
المحروقة!

سأله الطاهر:

- هل أذهب إليها يا عم كامل؟
- ألا ترى عريها؟
- حيلة قال لى صر تراهما في خرقه، وعلقها أسفل التمساح بباب
الشاهد!

فقال:

- دماغ حيلة من دماغ حماره.. اذهب إليها يا طاهر!

كان رواد القبو أما منتعشون بصحوة الأفيون المذاب في شمالة الشاي و"أبو درج"، وأما مائلون إلى أسفل كعرجون النخيل أو عرجون "أبو صليبة" المطحون على مربعات الزجاج الظاهرة للعيان بالمصطبتين.

يمر عليهم محروس وكأنه لم يمر، إلا أن يكون "نوفل" بالقبو وهو من المجاورين لذوى المتربة، يقاسمهم الهناء ومسبغة الجوع، ويسأل ذوى الأملاك:

"هل ادعى أحد من لدن آدم أنه امتلك جبلا من تراب أو حتى من ذهب؟"

والنقيضة أنه نصاب فذ لم يتقاعد به بيع الأفيون عن النصب، كأنما مقاسمته الفقراء لغنيمة النصب؛ مداراة لطمع النصب، أو تبرير لهوى النصب وتشهيره، وربما كان نصب "نوفل" عطفة على نفسه اتسعت للمتربين؛ فخاطر من أجل بقائه وبقائهم، وبحق كان مثالا في الثبات وحضور البديهة، ولو كان الحرج مُطبقا بالمواقف والمخاطر.

كان "شكوكو" الممثل يزور قريبا له نجارا، وغالبا ما يجد نوفل صدد الدكان يفترش الأرض في حلقة يديرها للعب القمار. في مرة سأله:

- كم خسرت اليوم يا نوفل؟

فقال وهو يعد أفراد الحلقة:

- خمسة رجال، ورجل!

يقصد بالرجل الأخير "صفية" أشهر مقامرة بين الرجال، وأدومهم على مقامرته بمسافر الطرقات. قال شكوكو كأنما يلومه على هذه الأريحية:

- الأفاق الذى بداحلك فنان متنكر!

أجابه:

- أو "أراجوز" يهرب من تحت الستار!

فحمل عليه:

- تهرب بُعري القمار من تحت الستار إلى ظهر الأرض يا نوفل؟!

فقال صفة مُتشكية:

- إنه لا يكسبني إلا على ظهر الأرض. مهر به الحقيقي!

ثم توسلت قائلة:

- والنبي يا سى شكوكو، خليه يقامرني ولو مرة واحدة خلف

الستارة!

سألها:

- وإن كسبك أيضا؟

قالت قاصدة عصا "الأراجوز":

- عصاك موجودة يا سى شكوكو!

فصاح نوفل:

- نوفل، أعجز خلق الله عن المواجهة، ولكن الويل لمن يواجهني،

ولمن يرفع على عصاه!

وقهقهه نجيب النجار وحكى لشكوكو مواجهة نوفل أول أمس

للحديد والنار، ثم خروجه بلا قطرة عرق. وصلت إخبارية من الحارة

إلى خلف المخبر تقول:

"نوفل الساعة ينتظر زبونا للبدل المسروقة!"،

ومن شباك في الحارة سمع نوفل من يحذره بنبرات خفية راسية

تقول:

- الحكومة على سلم البيت يا نوفل!

فلم يسعه إلا أن يكون البدل كومة واحدة ويستجيب لوحى

بديته؟ ولا يذكر أحد أن باب شقته قد أغلق ساعة من ليل أو ساعة من نهار؛ لذلك ولجه رجال المباحث كما يلحون باب القسم، وجدوه مُستلقيا على الحصيرة وعيناه مغمضتان تستلهمان حبكة المواجهة وأدق تفصيلها...

علا صوت خلف:

- يا نوفل!

فتتح عينيه على نظرة مهومة ثبتها عليه وهو يقول:

- ريقى ناشف اسقيني يا خلف!

قال ونبرات التلبس تستهين بعطشه ودهائه:

- اسقنى أنت! وقل لى أين بدل المستشار يا نوفل؟

دارت نظراته المطمئنة على الأيدي، وهى تفرغ من الدولاب وصرر ظهره ومرتبة السرير وصحارتى الكنبتين، وما يترامى إلى سمعه من كراكيب المطبخ وكراكيب البسطة المفضية إلى الحمام خارج الشقة، ثم نظر إلى الضابط مناديا:

- اسقنى يا حكومة!

فزجر خلف:

- البديل يا نوفل!

أجابه إجابة المتحدى البرئ:

- الشقة شقتى والزير زيرى اسقوني يا عالم!

سب خلف صاحب الشقة وصاحب الزير وأسمعه زجرة لا مزيد

بعدها:

- البديل يا نوفل!

اعتدل نصفه رافعا ذراعيه وهو يقول:

- قم بى يا خلف!

شَسَعَ خطواته وأماطه من الحصيرة، وتركه يمشى وحده إلى الزير..
رفع الكوز والغطاء وتجرع الماء، وما إن أعاد الغطاء تقهقر وقع بالكوز
إلى حيث استلقى، وكان جميع المخبرين قد فرغوا له وأيديهم خالية من
البدل؛ فوقفوا على رأسه، وحاولوا إماطته ولكنه حذرهم من الوقوف
في مكان واحد على السقف، وجعل يدفع أقدامهم ويصيح:

- يا عالم السقف ممسوك بقدره قادر!

فصرفهم خلف باستجابة من يعلم صدق نوفل ولا يعلم كذبه،
بينما شعر الضابط بخلخلة تحت قدمه ومن موضعها رفع الحصيرة، ثم
رفع بلاطة كبيرة هشة أظهرت فجوتها حجرة بالدور الأرضي؛ فقال
مستنفرا المخبرين:

- البدل أهربها هنا!

قال خلف:

- دى حجرة "مكاوى" عالية الناس!

وخاطب نوفل وشرر نظرتة يتطاير:

- سيادة المستشار طلبك وحدك ولكننى سوف أذهب إليه

بتيوسين!

قال نوفل لشكوكو:

- محامى الببيان طمع في فخامة البدل وعلى رأى نحمده كان
"نصفه فرحان" لما عرف اسم المستشار، وأقسم لى بأنه سيعلق الروب
على ذراعيه ويستترف البدل أمامه باستتراف المرافعات.. ويشارك
الجميع شكوكو في الضحك، حتى يقول نوفل:

- أرسلت البدل لخلق مع مرشد الإخبارية، ولما قلبها بين يديه
وشعر بليلها هتف بنفسه:

"ظلمت مكاوى يا خلف.. البدل كانت في الزير!"

فتماوجت ضحكة شكوكو مع حركة جسمه كأنها "الظغطة"
الراقصة، وقال:

- خلينا نضحك حبة والنبي يا نوفل!

فلا يستجيب قائلاً:

- إنني وارت لهم باب الورطة معتمدا على ذكائهم، ألم أقل

لخلف: اسقني يا خلف؟!

فردد شكوكو عبارته:

- والشقة شقتك والوزير زيرك!

فيم تجذبه مزاول العلف المنضوضة المائلة على سور القاهرة العتيق؟
لا يهبط من المرتفعات، أو يلعب الكرة بمرعاها؛ إلا وهي بوابة
للزمن تبدو مفتوحة ولكن إلى هوة في الزمن تقبض روحه!
قال لعم كامل داخل القبو وهو ينظف حقيبة المدرسة، بينما نبوية
تنظف القميص:

- هل تذكر يوم قلبتم الدنيا علينا؟
يقصد هو وأكرم وضياء. قال متأثراً بذكرى حفيده، وكان يجلس
بطرف المصطبة وبجواره رجلان و"الميسى" محرر الشكاوى:
- رحمه الله جدك، فقد أسكت جذع مينا، وأخبره أن ثلاثكم
نائمون في المزود.

تناول من نبوية القميص، واستوضحه:
- لم يكن جدي على وفاق مع أم وجيدة!
قال:
- رحمه الله، كانت الدنيا في نظره "نعمة مُدبرة"، من لا يُفتن بها لا
تفتنه أعناب الجنة!

وأشار ذراعه ناحية حجرة الإمام وقال:
- وأم وجيدة دنياها "نعمة مُقبلة" وما قبلها فتنة النفس. قالت
لجدك في جنازة أصحاب الطاهر الذين شاهدوا أموات التل:
"من فتنته نفسه لا أعناب الدنيا ولا أعناب الجنة تفتنه".
ويلاحظ الكبير يغلى.. فينبه نبوية إليه وهو يقول:

- رحمه الله، لو لم ترده النسوان بشغف ما أرادهن بشغف! وجلّ
من لا يسهو، فالنعمة المُدبرة فتكت بواصفها، وقد كان على شغف بها،
وهي على شغف بغيره!

فهزق الميسى بالضحك وقال:

- جدك كان غناما يعد نسوانه ولا يعد أغنامه!
واستعرض ذراعه الفضاء خارج القبو وهو يقول:
- أحوالك يربون على العشرين!
فسلط عليه عم كامل نظرة مظلمة كماضى قلمه، وقال:
- إيه يا ميسي، شكوت أغنامه وأنت تأكل لحمها، والساعة تأكل
لحم من جاورته وأنت كلّ شره!
يشير إلى أن الميسي كان يحرق الشكاوى ضد جده بسبب رائحة
الأغنام؛ إذ كان السور جدار لحجرتة وعرائسه نوافذه مفتوحة على
المرعى.

بصعوبة نهض عم كامل، فأسرع إليه محروس. اكتهل ظهره حتى
أوصله إلى المصطبة الأخرى، ومدد للقبولة بينما غادر هو القبو إلى
المزود الذي أنزله هو وأكرم من فوق صف المزاد؛ ليستريح عليه بعد
فراغهما من لعب الكرة.

تمدد داخله وعيناه تروغ كفاف السحب السيارة، ولا يدرى لم
طاف بذهنه "جمال" عم نحمده وحلقات مربطها بحوش المحروقي؟ هل
لأن الجمال بقت والأغنام ذهبت؟ أم لبقاء صداقة عم نحمده بجمده؟ تلك
الصداقة الضاربة في الصحراء منذ سافرا معا لخطبة البدوية من والدها
تاجر الجمال، أم لأن محروسا كان قد اعتاد على مشاهدة جده مائلا
كعرحون النخيل. مثله مثل مرتادي القبو، وينطبع في وعيه، وخياله،
وبصيرته "مشهده" وهو يطحن أقراص أبو صليبة بمربع الزجاج؛ فيصرفه
عم نحمده إلى سنام الجمال يتسمنها. ماذا قال عم كامل؟ "لو لم ترده
النسوان بشغف ما أرادهن بشغف، وجلّ من لا يسهو، فالنعمة المدبرة
فتكت بواصفها، وقد كان على شغف بها، وهى على شغف بغيره!".

واتته وهو بمذود الأغنام عطور الحریم من قماقم القصور، وباطن

الواقع. إلى أين تذهب سحب السماء؟ وأين الحدأ؟ وهو راجع من المدرسة دخل على مرتبط الجمال؛ فوجد بين ظهورها صبيا في مثل سنه. سأل عم نحمده وجدته إلى جواره في غيبوبة أبو صليبية:

- من هذا يا عم نحمده؟

فقال وهو يقيم ظهر جده:

- هذا خالك الأخير!

وفي لحظات الصحو النادرة كان يسمع عم نحمده يُشارك صديقه "الدندنة" بأغنيات لا يذكرها، ولكن الأغنيات الصادرة من مُسجل "أو كي" الوافد الجديد على برج المراقبة، كانت تبعث في نفسه أصداء من تلك الأنغام الممزوجة برغاء الجمال، والمنقوشة على قماقم الحریم.

قام من رقدة المزود قاصد "أو كي" الندرجي وتسجيله الذي لا يفارقه حيثما صار وسهر، أو أعتلى زاوية برج المراقبة يسمع غناء عبد المطلب، ويدخن سجائر الحشيش، ويرصد الدخلاء ورجال المباحث من ثغرتي الجبل:

تقاطع الدراسة، ومدخل شارع الأمام محمد عبده.

صعد محروس المنحدرات الثلاثة، وأوغل في الخلاء المتاخم لأشجار

الكافور حيث تتردد أصداء الغناء من مسجل أو كي:

ودع هواك وأنساه وأنساني عمر اللي فات

ما هيرجع ثاني

كان حلم وراح أنساه وارتاح ودع هواك..

وبعد أيه رايح تتندم ما راح زمانك ويا زماي

ومهما تبكي وتترجاني عمر اللي فات ما

هيرجع ثاني..

هل تجلس سوسن على البيانو الآن؟ لم يستلقي في مربع البرج منذ
أعتلى زاويته "أو كي" أنت أشهر هارب يحمل صخرة المدرسة،
و"أو كي" أشهر عاشق يحمل كفته على يديه كما يقول عم نموده،
ويقصد بالكفن مُسجل غرامه لمحوبة طلقها طلاقاً بائناً. عند كل طلقة
كان يُجالس أم وجيدة على الحجر الصوان ويستحلفها بالذي يحيي
ويميت:

- إن مشيت يوماً في جنازة حماتي؛ فلا تكشفني قبح وجهها على
جلال الموت. لأنه وجه أقبح من أن يموت، أو أن يحيى!
ويناديها:

- يا أم وجيدة، أنا حماتي ربنا ابتلاها بجمال المحبوبة، وابتلى المحبوبة
بقبحها، لا هذه تصدق قبحها ولا تلك تصدق جمالها، وأنا المُصدق
بالجمال والقبح في عذاب مقيم!
وترى أم وجيدة دمعته وهو يُبكت نفسه على توريط أخته،
واصطحبها إلى المحبوبة وأميتها.

سألته حماته ولم يكذب يستريح من صعود السلم، وتبهر أنفاس
عشقه، ويتصبب عرق كرامته:

- ما شغلتك يا ابني؟

ردت عليها أخته مُستعرة باللهجة المتهكمة:

- ألا تعرفين؟!

- أنا أعرف إنه شغال فوق الجبل!

- اشتغل فوق من غلبه!

- ونحن تحت. فليتركنا في حالنا!

- أنا قلت له لا يخرجنا مع احد!

- يا قعيدين يكفيكم شر الحرج!

فنهضت قائلة:

- ويكفيننا شر القاعدين للشر!

أمسك أو كي بمعصم أخته يمنعها من الانصراف؛ فتفصت من قبضته تقول للمرأة:

- أتعاريننا في بيتك وانتم معرة؟

وارتد ذراعها إلى الورا، أي إلى الماضي القريب، وهى تقول:

- أنسيت؟ أخي لم يشتغل "ندرجيا" إلا بسببكم، ألم يطلبها منك وهو "صناعي قد الدنيا"، لَمْ صغرت حتى تصاغر، ولم أصررت على رفضه حتى ضيعته؟!

ونَغَرَ صدرها وفاة أبيهما بالدرن ، فاستدارت بالباب قائلة:

- أنا أخي سليم معافى؟

ومن حيث اختبأت خرجت المحبوبة لتلحق بها، بينما جذب أو كي طرفي الجاكت وقال لحماته:

- أنا عارف إن هدمتي هذه من حرام!

وقال ساحبا من إبطه كيس ورق كان ينوى تركه لها، إذا ما وافقت على الخطبة:

- وهذه الفلوس من حرام.. أمهليني سنة، وسوف أحرق الفلوس والملابس على باب بيتك الآن!

فتوسلت:

- ولم الإحراق يا ابني والغلبة كثيرون؟

- أمهليني!

فحصت الكيس بعينيهما تحذره:

- أو عى يا أو كي! حرام يا أو كي!

كان التمحك في نظرتها فاضحا جشعا كأمله في ابنتها، التي

استوقفته على السلم؛ فعاتبها قائلاً:

- ثمنها غال جداً؟

- ما هذه؟

- شربة الماء!

قالت متجنبة:

- أحتك تسرعت بقيامها، كنت على وشك القيام بواجب

الضيافة ولكنها تسرعت بقيامها!

وهو يطعنها بنظرة الهوى الفاضحة:

- عطشتُ في بيت السقائين!

أجلسته على درجة السلم تقول:

- ماء الدنيا كله ليس بأعلى منك، ولا بأعلى من كرامة أحتك!

فقال:

- ولا الفلوس الحرام بأعلى منك!

لم يمنعها نداء أمها اللحوح عن سقيه، ولم يمنعه ماء شفتيها الزلال

أن يجلس بين بيتيهما المتصقين يراجع نفسه:

قد يستوي طلوع السلم و نزوله، أما الجلوس عليه فلا. وقد

يستوي الإنسان وكيس المال، أما الحلال والحرام فلا. سوف تخسر

قلبك يا أوكي إلى الأبد ما لم يكن قلبا فاضحا جشعا كقبح أمها

وكخضوع المحبوبة لجمالها!

وتأكد لديه أنهما ترابطانه من السطح حيث يجلس صدد بيتيهما،

فنهض ولم يجلس ليدخن سيجارة الحشيش؛ إلا وهو عار حافٍ مُستريح

إلى الحريق وحسرة الاثنتين على كيس الفلوس وملابسه الأنيقة!

أحبته ولكن للجمال غوية كغواية القبح وغواية الهوى!

وهو يُطلقها لأول مرة قال لها:

- عُهر القبح ألعن من عُهر الجمال، وأنا البريء أحمل لعنتيهما.
أنت طالق!

كان لا يمل انتظارها في برج المراقبة وهي لا تمل الغياب عن السطح
المنظور في الأفق القريب من البرج. ويُهدىها الحمام فرخا، ولما تشنّد
أجنحته يجعلاه رسّلا وحديثا في الهوى..

تُحجب عنه فيقتنصها واحدة تلو الأخرى من نافذته الحافسة
بشرفتها، ثم يُرسلها من البرج، وفي سيقانها سيل من الرسائل بعدد ما
أحرقه من سحائر الحشيش:

رضاي في انتظارك أطيّب من رضاي بلقائك!

أحببت في الانتظار اعتيادي على انتظارك!

لقائي بك يأخذني من عاديّ الطيبة!

غيابك عن السطح والشباك والبلكونة والشارع والدنيا؛ ليس إلا
فردوس قلبي ولكنه جحيمي!

قلبي مغيب عني أناديّه، فيقول:

دعني وغيابها. الحب ينقص باللقاء، ويكتمل بالغياب، لك دنياك

ولي دنياي!

قسوتك ولا قسوة قلبي. أقول له:

لا أريد الكمال ؛ فيقول:

اذهب وألقها!

ناديتُ قلبي.. لم يجبني.. فهل قلبك معك؟ أم إنهما؟.

وتصفو له؛ فتكلمه برموز الهوى كما كلمها برسوله المُهداة إليها
وليدة. تقول له:

- إن أطلقت في السطح أنثى "العنبري" فهو اللقاء، إما عند

المستشفى، وإما في عطفة الدويدار.

فيرجح ضنها باللقاء ويسألها:

- وأن لم تستطيعي التزول من البيت هل سأراك في السطح؟

فتضحك قائلاً:

- طبعاً، وسوف أطلق في السماء ذكر "الشقلباظ"!

- وحده؟!

- طبعاً، وستكون أنثاه في يدي ولن أبعثها له حتى يتعلم الجسارة

ويحط إليها وهي في يدي!

وتفعل مراوحة نظرها بين أوكي في البرج وذكر "الشقلباظ" في

السماء؛ فيخاطبه:

"تضحكها من شقلباتك البهلوانية عزائي من الحرمان مادامت

بالسطح".

ويطول سهاده وحديثه لنفسه:

هواها كله مقامرة. ما أشبهكما بمقامرين يجلسان على مائدتين

متجاورتين. أنت وحدك وهي وحدها، ولكن من تقامرا؟ ما أنت يا

أوكي إلا ندرجيا للهوى وليس ندرجيا للسطل كما تصفك حماتك.

ألهذا كنت تجازف وتهبط من البرج صاغراً، ومتخلياً عن ثغرتي

الجليل؛ من أجل دقائق دوامها هجران؟

آه لو أصابت "الطوبة المعطوبة" وكبست الحكومة كبستها. يا

أوكي، ما أنت إلا ندرجي لزورق الهوى ولكن زورقك ليس له

مرسى!

قبل الزوج بأيام سألها:

- متى تُفرجها علينا أمك وتلين؟

فتشت للناظرين على رصيف سينما الحلمية وهي تقول:

- حين أطلق ذكر "الهزاز" من السطح!

ولما أطلقتته كانت فلوسه كلها حرام في حرام!
وشاهده من البرج ببياضه الصابغ يرتفع إلى سماء غير سماء
المهجران، وقبل أيام من انقضاء عدة البينونة الكبرى؛ صوب على ذكر
"العنبري" طلقة رش، فسقط من منشر الشرفة، ثم داواه، وانتظر لعلها
تبعث أثنائه في سماء السطح، غير أنها لم تفعل، فبعثه إليها وفي مخالبه
رسالة بكلمة الطلاق.

لقد كذبت حماته على الحرام كما كذبت على المآذن!
وكلا الكذبتين بغضاء مسترة لأم الشاب؛ لأنه طلاب يد ابنتها
وهو ينقش الذهب والنحاس والفضة والأخشاب والصدف والوجوه
أيضا. كان "أوكي" مثل أبيه جل زبائنه من السائحين، ومنهم تعلم
المحادثة بلغتهم، وقد درج على سماعها والتحدث بها؛ حتى اشتق له
أصحابه اسمه المستجيب الدمث "أكوي" ولكن المرأة أحبطته وكايدت
في إحباطه إلى أن صار عاطلا بالهوى.

فهو إما جالس بين بيتيهما يوقد الحطب في ليالي الشتاء، وإما
جالس في برج المراقبة في ليالي الصيف يدخن سجائر الحشيش، ويتربص
طلعة ابنتها بالسطح المضمون بها ضن السقم، أو المستجدة بطرب عبد
المطلب أينما حل بالتسجيل، ومن أغانيه كان الناس على اطلاع
بأحوال أوكي في الهوى...

وقد أوجزها صديقه "العايق" في أربع أغان:
يا أهل المحبة. شفت حبيبي. الناس المغرمين. ودع هواك.
وكان العايق موهوبا يُحاكى الأصوات ولوازم شعورها، وكانت له
صولات مع "لوزة" العالمه على مسارح الأفراح، ولما بانت المحبوبة من
أوكي غنى له في سهرة سُطل:
- ودع هواك - مرة بأداء عبد المطلب ومرة بأداء أم كلثوم،

وكان يردد له ولغيره:

"كلانا مسكين، أنت هربت من نار البطالة إلى رمضاء الغرام ، وأنا هربت من رمضاء الغرام إلى رمضاء الغرام!"

ونصحه آخر:

"الحب وأنت ندرجي أفضل من الحب وأنت عاطل!" ونصحته جارة لحماته بقولها:

- لا يا عم أوكي، مصيبتك ليست في الحب، ولا في جمال جاري. مصيبتك في ضغينة أمها لأمك!
وهذا ما رجحه عم نحمده فقد قال:

"لهذه الضغينة قصة، ولقصتها عبرة هي النعش لمن لا يعتبر!".

اشتهرت أم أوكي "بالغندورة" وهي على مثال المحبوبة. أنشئ تنسيك عذبات الجمال وأوهامه، وتجذبك إلى الحقيقة الباقية. أي نزعة الجسد وفرحته بما يخرج من أصلابه وأصلاب النوع في ملايين السنين. في ليلة زفافهما لم يطلب أحد من المحبوبة النهوض من الكوشة وإنما نهضت بها تلقائية الغواية؛ لتبارى "الغندورة" الرقص على مسرح الزفة المتصدر ساحة الباطنية...

كان لجسديهما صوت شلال يهدر مجاوبا إيقاع الطبلية مجاوبة الصدى للطبيعة والهدير للهدير.

أنوثة جسدها يهدر بالشوق والبهجة ولا تثريب على العيون الذليلة حيث تثني الجسدان أو تراقصا. أنوثة كهذه تخدمها الشبهات حيناً وبعده ينقلب الخدم أسيادا من الثقلين. وفيما كان أوكي يُفنى حياته كخادم لأنوثة المحبوبة، كان زوج حماته قد أفنى حياته في أنوثة "الغندورة" التي أرملمها الدرن قبل أن يدُف زوجها في التراب؛ ومن ثم كانت العبرة كفن لمن قصده ولم يقصدها وولاهها دبره على وصف عم

نحمدو، وقال:

لقد قصدت العبرة أوكي في جمال محبوبته، وقصدت حماته في
قبحها، فأفناها هو في مصادقة المحبة، وأفنتها هي في مكاذبة الأضغان!

أسمع أو كي محروسا أغاني عبد المطلب، وقد ينتفض من زاوية
البرج؛ ويصفر بأصابعه الموضوعة في فمه، صغيرا من مقطعين حادين
يتلقاهما ندرجي آخر كامن بالناحية المواجهة للجبل. ولا بد أن يتبع
الصغير إشارة باليد، أو تصرّيح بلسان إذا ما كانت ثمة كبسة، أو أمرا
مرييا يُرتب له بإحدى ثغرتي الجبل، وأحيانا يترك أو كي والغناء قاصدا
مربط الجمال بحوش المحروقي. يلقي السلام على البدوية؛ فتطيل النظر
إلى حقيقة المدرسة، وتقول:

- الطاهر لم يهرب من مدرسته يوما!

فيسألها:

- أين كانت مدرسته؟

قالت بلهجة تهدده أو تتعجل انصرافه:

- هي نفس مدرستك التي هرب منها غير عابئ بأمك، ولا
جدتك!

وحدث بصرها في مكان جلوس جده وقالت:

- جدك كان مهيباً!

وتحسرت على المهابة قائلة:

- ولكن العشق كسره وهو في مشيب الحكمة والوقار!

قال باطنه: "أو مشيب عُرْجُون النخيل!"

وجاء عم نحمده. بَسَمَ لخروس واكتهل كتفه يسألها عن حيلة؛
فقالت:

- أم وجيدة أرسلته للعطارين.

شرد عن حديثهما في مداعبة عم نحمده له كلما مر على الدكان

هو وأمه. كان يناديه مسمعا أمه: يا "هاء والقلم!"

يقصد حرف الهاء من كلمة الهروب، وقد يضحك أمه ويناديه من

عرض الطريق: "هاء والقلم وما يهربون!". ولكن أم وجيدة لم تفوت
نداءً قصه عليها إلا وأفحمته قائلة: بل هو "نون القلم" أجلسه عم
نحمده في نفس مكان جده، وسأله:

- ماذا قالت لك البدوية عن حقبة المدرسة؟

فقال مزلزلاً شيخوخة الرجل:

- تحدثت عن مشيب جدي العاشق، وعن حكمته التي أدمنت

أقراص الحكمة!

ترحم عليه مراراً وقال:

- جدك قد سلم منه الناس!

فقال باطنه:

"ولكنه لم يسلم من نفس ولا من العشق!".

والفتت ثلاثتهم إلى خلف المخبر وهو يقتحم ساحة المربط بخطواته

الشاسعة، وتخلل الجمال مكبراً يُرقيها من الحسد، ثم قال لعم نحمده:

- منصور بك قبض على حيلة فوق الجبل!

قال دهشا لعلمه برهبة حيلة من الجبل:

- حيلة يحمل الجبل ولا يصعده يا خلف!

قهقهه كأنه لم يسمع شيئاً وقال:

- وأنا قبضتُ على الحمار متلبساً بغرام حيلة!

وقبل أن يفيق نحمده قال بنظرته الهوائية كغاز سام:

- "الدحروجي" مات في الحجز، وقد أوصاني في ساعة موته

بالذهاب إليك، وهو يحلم الآن بين الأموات بجنازة حارة على يديك!

وحد بصره في محروس مُستدعياً جلوسه بدكان جزارة جده، ولكنه

سأل البدوية:

- ده، أخو الطاهر؟

فقلت تمده بصبر الجمال:

- لا، أخو الجمل ده!

فقهقه خلف، وشسّع خطواته يتخلل الجمال وهو يقول:

- هات معك بطاقة الحمار لكي يضمن حيلة!

تساءل محروس:

- أهو جاد؟!

فقال عم نحمده:

- رحم الله جدك، كان يقول: خلف هزله جد وجدده هزل،

وعذره أنه نزيل مقيم بمصحة السلطة!

ثم تعجب مخاطبا محروسا:

- من صعد بالأرمد الجبل؟!

إنها مصادفة نبات "القنب" التي نفثها دخانها أحد أرباب السطل في واحدة من مواخيرهم الساهرة.

هى منضرة يُلجئهم إليها الشتاء؛ فيغلقون منافذها دون قُمرة بأعلى حائط يتسرب منها الدخان إلى إسطل "الشاهد" بيت أم وجيدة، حيث يبيت حيلة والأرمد، ومن ثم كان الاثنان عرضة لعوارض السطل وصيته، فقد يُسمع للأرمد جيشان نُهيق يرق ويهبط في الرقة حتى ينق نقيق الضفادع، أو يسمع له تهاؤب يجيش كصراخ غراب.

أما حيلة فقد كان سمر السطل ينهض به من غفق النوم، ويخوض في دُوار الدخان ورائحته حتى يعتلى كومة الحشايا، ويطل عليهم من القمر متوسدا باطنها ومستأنفا مسامرة الأمس وأحلامها التي يعتربها يقظات مُباغته يستترفها في "شخطة" مُبعدة ينتهرُ بها المتضاحكين، ولا يميزون منها إلا اسم أم وجيدة، فيفهمون أنه يجذرهم من إيقاظها، وهى بعينها "الشخطة" التي يصفها عم نحمده بقوله:

"حيلة يشخط في بحجرة حمارة".

وإنهم ليتداولون ذكراها الموصوفة؛ إذا "بعنتر" يُلهم نفحة العشب المهضوم في الزبد محدثا بدخانها رافدا يغزى مُطرب الضحك. خاطبهم:

- ما رأيكم لو استعملنا حيلة "ندرجيا" فوق الجبل؟

استملح "سوكه" الاقتراح وتمايل هاتفا:

- ونادي يا حمار على الحكومة!

وكأنهم قد سمعوا موارج حيلة مُنادية على من لا حياة له؛ فاضطرب بهم التضاحك أيما اضطراب، وذكرهم "كفنو" بعناده حين استعصى على نحمده الرجوع بحيلة من القرافة سالكين شُعب المرتفعات المختصر للطريق؛ عقب رجوعهما من مدفن أوقفه نحمده على الأموات، وقد دفنا فيه رجلا وافته المنية في مولد السيدة فاطمة النبوية،

وكان هذا من المتوفين القلائل الذين لم يُحملوا بالكارو؛ فقد صادف موته صعق الأرمد، ووفاءً لذكره لم يُبدل نحمده حيلة حمارة بحمار، حتى تستوفي الذكرى وفاءها.

أيأسهم "كفنو" قائلًا:

- طلوع حيلة الجبل كتروله منه حلم من أحلام الدخان!
فقال عنتر:

- ما ألد أحلام الدخان، وأنا حلمي أن أُطلع حيلة الجبل!

وسحب "سوكه" نفسا قرقرت له الجوزة، ونفته يقول:

- وما ألد بدايته الدخان ونهايته، وعذابه ورحمته!

وكرر مثل الجوزة.. ثم خاطبهم:

- يقولون إن الكون مغلق على نفسه، ولا شئ يفلت من جاذبيته؛

حتى الضحكة وحتى الدمعة، ربما سمعهما سامع بعد ملايين السنين!

فذكره "العايق" وهو يأخذ الجوزة بإصابعه في حرب ستة وخمسين:

- ويقولون الدنيا مثل الحروب بدأت بدخان!

فهتف عنتر:

- ولا محالة ستنتهي بدخان!

ناوله العايق بوصة الجوزة المزينة بالفل قائلًا:

- خلونا في البداية!

أجابه عنتر بتناغم آدم جرحه:

- الأوله في الغرام والحب شبكوني..

حذره سوكه قائلًا:

- دخان الغرام "خضة" وخضته نار!

فقهقه العايق ثم قال:

- النسوان كلهن دخان يتبدد!

تضاحك حيلة فالتفت إليه عنتر وعجيج من الدخان يضطرب
بينهما.. تودده قائلاً:

- الجبل ينتظرك يا حيلة.

فتضاحك وبيع بما لا يفقهون؟
سأله سوكة:

- ألم تحلم بطلوع الجبل يا حيلة؟
ففسر البعبة بالبعبة؟!
سأله العايق:

- هل عاشرتُ امرأة يا حيلة؟
أقسم عنتر متأثراً بحياء حيلة:

- والله، عروسك عندي يا حيلة إن طلعت الجبل.
فوضح من بعبته هذا السؤال:

- من هي؟

قام كفنو منادياً:

- يا قاصدين السطل أين نحمده ليشهد على جواز حيلة؟
غلف "العايق" استنكاره بظاهر التأمين على ندائه وقال:
- أى نعم، أين نحمده لكى يحبسنا؟!
وقهقه مسائلاً كفنو:

- هل ترانا مغادرين الدخان قبل أن تصل نكات نحمده قسم
الدرب الأحمر؟!
وناده:

- يا كفنو، هناك قسم والقسم يتحرى عن نكات نحمده!
ثم باغتهم ضربتان دُقتا بشباك خلف "سوكة" فقال بتناغم يُعجز
الطارق:

- "شباكننا ستايره حديد"

فجاءه الرد مجلجلا من حيث لا يرى صاحبه:

- أنا قادمة إليكم من الباب يا سكسوكة!

عرفوها وردد بعضهم:

- دى "لوزة" العالمه..

اجتازت الحوش وما إن دفعت باب المنضرة تأوهمت قائلة:

- وربنا أنا دخلت خاوية جان!

واسترسلت في ضحكة رخية.. ثم سألتهم:

- الدخان ده كله محبوس على أى ذمة؟

أجابها كفنو:

- على ذمة السطل!

فاعترض عنتر:

- لا ، ده على ذمة حيلة وحماره.

ونادها من تعرف لوعته:

- يا لوزة، أنا حابس دخانى على ذمة الغرام!

فترنموا جميعا تتقدمهم "لوزة":

- "الأوله فى الغرام والحب شبكونى بغمضة عين"

ثم نادته كما نادها:

- يا عايق، أين أنت؟

أجابها:

- لا أين بيننا يا لوزة!

سأله كفنو:

- ولا حتى سرير؟

اعتترض عنتر قائلا:

- أنا بينهما يا قواد!
- فتكسر جسم لوزة وصوتها وهى ترفع ذراعها قائلة:
- هات يدك يا عايق!
- فحذرهما كفنو:
- خذي بالك الدخان هنا حيطانه أربع!
- فأرسلت ضحكاتها تتخالع بتحذيره.. ثم قالت:
- دى حيطان، كلها مائلة وأنت أدرى؟
- تضاحكوا من المساواة الجائرة بينهم؛ حتى تبدد دخان المنصورة، ثم
- علا صوت لوزة جادا يوشى بالرغبة في سماعها قالت:
- صلوا على النبي!
- فاستجابوا لها لتقول:
- أنا فرحى الأحد ألقادم، ويطيب لى أن تشاركوني فرحي؛
- فشملوها بالتهنئة والدعوات، ثم كانت عفوية دموعها، وأخذت يد
- العايق وخرجت به.

لم يُشاهد حيلة قط، ولا أباه دئدش يمتطيان ظهر حميرهما، ومن معاشرتهما لأُم وجيدة والست كوثر، عرفا أن الأعياد "فرحة" الأموات والأطفال؛ لذلك كانت الأرامد تشارك هؤلاء، وهؤلاء فرحة الأعياد، وخلال أيامها تحتكر الأطفال ظهورها، ويأتون من فجاج الحارات والساحات إلى دئدش، ثم إلى حيلة من بعده.

وكانت "مفيدة" تعدُّ على حيلة النسيان؛ إذا ما سَها عن أعيادها؛ فترسل أطفالها صباح العيد إلى إسطنبول الشاهد، ثم يخرجون بالأرمد إلى كنيسة العذراء بحارة الروم أو بحارة زويل، بينما حيلة في غفق اليقظة صامت يتفكر في السجائر، والحلاوة الطحينية، والزجاجات المثلجة..

وأحيانا تزع منه مفيدة بركة الحمار التي خلعها علي ذرية دئدش الشيخ مشحوت في حضرة ابنة عمران عليهما السلام؛ إذ أنه قد انتهى بنسب الأرمد إلى الحمار الذي حمل السيدة العذراء في رحلة قدومها إلى مصر.

قالت له مفيدة حانقة في عيد ظهور السيدة العذراء، وقد تكاسل عن مصاحبة أطفالها إلى كنيسة العذراء بحارة زويل:

- نسيت عيد القيامة كما نسيت عيد الميلاد يا حيلة، فكيف تنسى عيد الأرمد وبه بوركت أرض مصر؟

ودفعت كفها إلى أعلى تقصد السطح وقالت:

- لقد كذب مشحوت على الحمير. أنت لا حق لك في بركة الأرمد!

ولا ترضى عنه إلا وهو يقف بباب الدكان، وحنجرته تتعنع بكلمات منام جديد يرى فيه السيدة العذراء، وقد برك لها جمل "الشاهد" ولكنها ألقت عليه السلام، ومشت حتى ظهرت للناس وهي تشير إلى كلمة الله؛ فيكلمهم مرتلا:

"اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا.."

ظهر حيلة لصق الأرمد بساحة الباطنية؛ وإذا بأرباب السطل يختمر في رؤوسهم المشوشة الثقيلة حلم السطل المسائي إلى واقع يشتاقي لسطل الصباح، على رأى عم نحمده. لمحوه لصق الأرمد فتهوشوا^(١) عليهما مضطربين هائجين كل من موضع اتجاره من الساحة الشبيهة "بغرزة" غير مسقوفة. جدرانها البيوت العتيقة حيثما التصقت، وانفصلت، و تفرع إلى عطفة أو حارة أو شارع؛ فالغرزة ممتدة بعدتها وعتادها. المروجون، والطاولات، والميزان، والجوزة، والأحجار، وجمرات الفحم، والمقاعد، والصبيان، وطواير من المتعاطين تتفرع كفروع النيل. سألوه:

- أين تذهب يا حيلة؟

ميزوا من تتعته اسم أم وجيدة، فخاطبه عنتر:

- وليكن، أنت في حاجة لأم وجيدة والسلام.

طوق "كفنو" كاهليه وبغواية تذكره بالليالي القمرية، التي شاركهم فيها ما لذ وطاب من المأكولات، والفواكه والحلويات والمثلجات والبيرة..، قال له:

- غداؤك اليوم يا حيلة صنوف من الأسماك والسلطات!

سرح في وجههم، واهتز عمقه متمثلا الجبل خلفه جليلا كالضمير يعلو البيوت المتهاكمة. خضخضه^(٢) صياح عنتر كطعنة في مأمته:

(١) تهوشوا: تحركوا نحوهما مضطربين هائجين.

(٢) خضخضه: حركه بعنف.

- الجبل ينتظرك يا حيلة!

فشال برأسه إلى السماء وقال بوضوح لا يفهمه سواهم:

- المطر شقق الجبل!

فنادى "كفنو":

- يا استباحتي، أين الجوزة؟ حيلة لما نطق شق الجبل!

طمأنه "سوكه" قائلا:

- الجبل شرب المطر كله يا حيلة!

برطم مشيرا إلى قوائم الأرمد وطين الأرض، وهو يعنى طين الجبل.

سأله عنتر متكلفا السخبط:

- إن طلع الحمار الجبل تطلع أنت؟

فرعق فيهم شاكما الأرمد، وخاض بعبال جسده المكين شاقا

احتشادهم. لم يفكر أحد مجرد التفكير أن يعوق جيشانه، ولكنهم

ترصدوه بالمكر، وأعدوا له "فرشة" طعام يشتهيها كما تشتهي الكائنات

الماء.

ولمن شاء فليعزر حيلة إن أنساه السمك الطازج الأرمد وشنطة أم

وجيدة وحاجاتها من العطارة والخضروات، ولمن يسأله عن "بروتين"

السمك؟ فليسأل الدود عن الإنسان؟ ولما كانت المرتفعات وأشجار

الكافور تتصدران سفح الساحة بجلاء بحيث لو برز الأرمد من ذروتها

إلى حيلة؛ لراه كما يرى نفسه في المرأة على تعبير العايق.. وقال عنتر:

- يا سلام، لو علقنا شنطة أم وجيدة برقبة الحمار!

فنادى كفنو:

- يا دخان الأمس، إن طلع حيلة الجبل سأطلع أنا ورائك مليون

سنة قبل السطل ومليون سنة بعده!

وتضاحك سوكه وقال:

- أنا أرسلت إلى "أوكي" كلمتين: اسطل حيلة!
وفيما كان حيلة في غفق اللذة يُسامر القطط في مواء المُواكلة؛
أسلموا الأرمد صبي من صبيانهم، طالما سمع نحيقه، ما إن ينادى منادٍ على
حيلة، لذلك اعتلى ذروة الجبل المرهوبة و نادى على حيلة؛ لئُسمعه نحيق
حماره كأقوى ما يكون نحيق الفراق والرغبة.

كان جالسا بصدر الساحة، فسارق بصره الأذرع المصوبة حيث
ذروة النهيق، ثم ظل مشدوها ما بقى من العصارى، وهو أسفل الجبل
يتنمر للجبل وبينه وبين الأرمد المطوق بشنطة أم وجيدة جرف هاوية لا
يخطو حياها خطوة إلا وهو يتقهقر خطوات؛ كمن يستيقظ من غفقه
على بدء الخليقة. يقول عم نحمة:

"حيلة ترهبه الشمس والهواء والمطر والنيل، ولولا الألفة لأرهبه
الشجر. لقد خلته يعتقد الولاية في "الطاهر" مذ حمله رضيعا. حيلة
يخشى الله في البواكير خشية من يرى المخلوقات تخرج من يد بارئها!"
كان عناد الأرمد على شفا الجراف فضيلة تسمى الوفاء، فطاوع
الصبي وهو يجذبه بطوق الشنطة، ويهبط به في الجراف الخشنة المبطنّة
بمخلفات الحضارة وأفرائها، ويجتهد الصبي في أن يكون الهبوط هادئا
طبيعيا لعل حيلة يجيش للعب ويقطع الجبل صعودا، ولكن تنمر حيلة
تقهقر، ولعبه مسامرة في سامر النوم. وينفلت الأرمد عائدا أدراجيه،
حتى سرح الصبي في سبات حيلة وهو يقتعد الأرض، ثم أيقظه مناديا:

- يا عم حيلة، لف وراء الجبل وتعال من طريق القرافة!
فخطر له عناد خوفه وإعراضه عن نحمة إذ يستميله إلى الشعب
المختصر لطريق القرافة، وقد بلغ منه الكد مبلغه في جنازة رجل المولد،
وفي قبض الدفنة. ولكن إرادة السبات نهضة بحيلة مُستجيبا لهتافها، ودار
حول الجبل إلى الطريق الذى تضعضعت دونه إرادته مهما بثه نحمة

وهن صحته خلال فترة الحداد على الأرمد المصعوق.

انظروا حيلة فوق الجبل!

صيحة أطلقها أرباب السطل وصبيانهم وكل من ترقبها بساحة
الباطنية، وقد تناه ضحيجها وهرجها إلى حيلة، إذ يلتحد ببرج المراقبة.
وكافأه الصبي مطلقا سراح الأرمد، وكافأ نفسه متفرغا للتهليل ومخاطبة
الجموع الطامحة إلى ذروة الجبل:

- أنا الذى أطلعت حيلة إلى هنا!

وياستهويه ضحيج الغروره فيرى حيلة مدى سهولة هبوط الجبل، ثم
يريه مدى سهولة الطلوع، بينما خلص حيلة الأرمد من طوق الشنطة،
وأناخ مسندا ظهره إلى حائط البرج وهو يحسب أنه مستقبل القرافة
وحدها فهاله مواجهة جبل المقطم!

راقب "أو كي" عذاب حيلة كما يراقب الغرباء عن الحي. التبليغ
يقطع السبيل عليهم لا يكون إلا والخطر مرجح والريية مُستفحلة، وفي
عذاب حيلة خطر محتمل، كعواصف العشق الثلجية؛ لذلك التزم
"أو كي" الحياض المشوب بتبسم عطوف، وتضاحك ينساب كدخان
سجائره ذوات السطل والصيت ومغنيته عن الجوزة نهائيا. مال على
حيلة من جلسته بزاوية البرج وأنامله ممسكة بإحدى سجائره؛ فشطرت
جبل المقطم بين عيني حيلة. أخذها وأشعل في مكانها أو كي عود ثقاب،
فأطفأه حيلة دون تعمد بدفعة من حنجرته توصى الصبي بإبقاء الأرمد
قريبا، أشعل ثقابا ثانيا، فأطفأه حيلة متعمدا وتضاحك من نفسه العابثة
بأو كي فقال هذا:

- والنبي، ضحككتك حلوة يا حيلة!

وعاتب نفسه، أو عاتب أرباب السطل:

- ما للسطل وهذه الضحكة؟

بسط كفه ليسترد السيجارة فدسها حيلة في جيب الصدر من
الجلباب وبرطم بما أضحكه، ومعناه:

- سأدخلها أنا والأرمد!

اعتدل أو كي وهتف مازجا ضحكه بصراخه:

- هل سيفرق القدر الإنسان والحيوان، كما فرق الإنسان
والإنسان؟!!

ثم أخلد لسيجارته ومراقبة ثغرتي الجبل، فيما راقب حيلة الصبي
وهو يمتطى الأرمد ويقوده إلى أشجار الكافور.

هم بالنهوض ولكنه أخلد للسبات؛ فرأى الشمس تبرز من صخور
المقطم وهزه الأرمد فعرف أنه يمتطيه لأول مرة في حياته. قال له غير
هيا ب:

- إلى الشمس يا أرمد!

فأوغل يقطع الخلاء ومن ورائه القبور، حتى وقب من قرصها؛
فصاح بها حيلة:

- لا تغيبى أبدا!

انخلع قلب "أو كي" من صياحه كأنما قلبه لا يزال يهتف بالمحوبة
المطلقة طلاقا بائنا. عقب طلاقها اتهمته حماته بالشروع في قتلها، وقد
حملت إلى قسم الدرب الأحمر أداة الجريمة، المرسلة إليها في تهديد صريح
بخنقها بقطعة فوقية من بذلة رقص مهداة إلى ابنتها، وفي "كنيف" الحجز
صادفته ضفدعة ضخمة تشبه حماته؛ فتضاحك كقرد يصرخ في وجهها
من سُخرته في الغرام، وما كذب أن شطف الضفدعة، ثم ألبسها بذلة
رقص كاملة من قصاصة كفن، ثم أرسلها إليها كدليل تالٍ لإصراره
على الجريمة.

انتشى "أو كي" بنفسٍ من السيجارة بطول الذكرى والطلاق

والحس والفضيحة. كتمه طارحا ظهره على الزاوية؛ لينفجر الدخان ضاحكا يدغدغ جسده، كما لو كان الضحك "ضفدعة متوحشة تفترسني" بدد صياح حيلة المطلسم خواطره، فبخع نفسه بالضحك متصورا الضفدعة ببذلة الرقص تراقص عم نحمده رقصة الحرام.

بسط ذراعيه للقدر مسترجعا موعظة حماته لابنتها:

"كيف أسلمك لندرجى يُصفر للمساويل ولا يستحي من المآذن حوله!". أنا صفرت لهم وأنت صفقتي وهى رقصت.

صيح يا حيلة، وأسمع حيطان السماء، لو كان لحماتي عُشر جمال ابنتها ما استباحتها وسفحتها. كانت ضفدعة يا حيلة، تشتهى جمال ابنتها اشتواء المساويل للسلط.

صيح يا حيلة، وأسمع مآذن الدنيا وكنائسها كما أسمعنا أنا أم وجيدة: ربنا ابتلاها بجمال المحبوبة، وابتلى المحبوبة بقبحها، لا هذه تصدق قبحها ولا تلك تصدق جمالها، وأنا المصدق بالجمال والقبح في عذاب مقيم.

صيح يا حيلة، وأسمع طائر "الشقلياظ" ذاك المهرج الذي يشبهني.

جهجه صياح حيلة للشمس..

فترأى المخبرون وأوكي. انتفض من زاوية البرج يُصفر صفير الكبسة، وقفز إلى حيث يفر مرددا:

- الحكومة يا حيلة.. الحكومة يا حيلة!

هجم خلف على الجبل، بينما اندفع إلى الساحة وما دونها سائر المخبرين.

أمسك حيلة شنطة أم وجيدة وعجز عن النهوض وهو يردد نص العبارة كأنما يقوى نفسه ويحذرهما من مهلكة:
"الحكومة يا حيلة.. الحكومة يا حيلة..".

بعت خلف غير مصدق أنه أمام حيلة. سأله:

- ما أطلعك هنا يا حيلة؟

لم يكثرث ببرطمته، ومد ذراعه إلى الزاوية آخذاً علبة السجائر المحشوة، وكشخ فرشة أو كي وما عليها من شرائط لعبد المطلب، ثم هبط إلى محيط البرج وأخذ المسجل وقفص الحمام المهدى للمحبة والمرافق لأو كي يومى الجمعة والأحد؛ على أمل الخلاص منه وبيعه لأي قادم من سوق الحمام، ولكنه خلاص من قبيل مغالطات النفس.
أو كما قال:

"اعتدت على الخلاص منها كأني أحبها من جديد!"

أو يقول:

"خلاصي منها إخلاص لها!"

أو يتعزى بما سمع:

"الخلاص من الحب وصول إلى نهايته. حب حتى توصلك النهاية، ولكن لا تساءل عن بر الأمان!"

رجع خلف إلى حيلة، فبرطم مشيراً إلى الصبي القادم من ناحية أشجار الكافور ممتطياً الأرمـد، وقد تخابث منادياً على حيلة؛ لتتوالى الناهقات تحذر خلف، أو تنبهه إلى سبب صعود حيلة الجبل.

حسبه خلف يختصر الطريق إلى القرافة. تجاهل عبال جسده المنوء

بالنهوض، ونادى على الصبي:

- يا ابن سعده، هات الحمار ولا تسلمه حيلة!

برطم فوبخه بتهمة بأثر رجعي:

- الأفيون كان في جيبك يوم طلعة رجب!

ويحد نظرتة على نفس الجيب العمران بسيجارة الحشيش، وزجره:

- الأفيون كان في الجيب ده صح؟

ويهدده نازعا الشنطة من يده:

- على الطلاق لأحبس لك الحمار!

يفتش الشنطة ويسأله:

- دى شنطة ابن الملقطة؟

يقصد أو كي.

يلتقط اسم أم وجيدة من برطمته ويقول مستنكرا:

- شنطة أم وجيدة، كيف؟ وأنا أشم رائحة الحشيش منها!

فينظر حيلة مذعورا إلى علبة سجائر أو كي بيد خلف؛ فيدسها في

جيبه متوعدا أو كي:

- على الطلاق لأحبسه بعلبة سجائره!

يقه حيلة كاسرا رأسه على جيب صدره يشم رائحة الحشيش.

وكان الضابط بالكاد يرى الصبي والحمار فنادا يقول:

- إيه يا خلفا! أنت ستقف ندرجى فوق؟

فظهر على حافة الجبل يقول:

- ده حيلة، يا منصور بك!

فقال:

- وحيلة ده الحمار؟

- لا ، حيلة صاحب الحمار!

- وستشترى منه الحمار يا خلف؟

- لا يا منصور بك، أنا سوف أشتري حيلة من الحمار!

فقهقه حيلة وحده وراء برج المراقبة وتجاهل البك نكتة خلف قائلا:

- وما هذا الذى تحمله؟

- ده حمام حيلة وتسجيل حيلة!

- وأين هو سى زفت؟

- عاجز عن القيام يا منصور بك!

- انزل به!

استدار وقال للصبي:

- اسبقنا بالحمار يا ابن سعده.

حد نظرتة لحيلة يأمره بالنهوض ولكنه لم ينتظر؛ وألقى قفص الحمام شاسعا خطواته صوبه، وعبثا أن يقيمه أو حتى يزحزحه، وما درى إلا والأرمد يهاجمه بشراسة قاضما أسورة الجاكت. أفلت ذراعاه من الفك الحديدي وقد ظن أنه نجا، ولكن الأرمد واصل هجومه مستخدما رأسه ومشفره؛ ليقهقره في الجرف البارزة المتدرجة ويُسقط من يده المسجل فيما تداركه حيلة وعائق رقبة الأرمد حتى ألقى نفسه أسفل الجبل يقهقه، وبسرعة أفاق خلف، وتوعد حيلة قائلا:

- على الطلاق لأحبس لك الحمار!

والتفت للصبي يقول له ولا يمنعه من التضاحك:

- اطلع يا ابن سعده، وهات المسجل والحمام!

تخابث وقال ناظرا للضابط:

- ده حمام أو كي، وتسجيل أو كي!

فانتهاز خلف تضاحك البك قائلا:

- الحمار قبض علي! إنه ولا خلف في زمانه يا منصور بك!

أوسع البك خطاه إلى الساحة وهو يقول:

- هاته ياخلف؛ فتقريظك له يرشحه للاشتغال معنا!

نظرة عم كامل لا تأمره ولا تنهاه، نظرة مخضمة بأهواء اللعب
وحتمية مصيره!

تنصرم الأعوام على مصرع ضياء أسفل أرجوحة المولد، ويأخذ
محروسا إلى المرعى البائد ويقول:

- ضياء حضر من المدرسة وحلب لك ثدي الشاة في كوب الزير.
ضياء انتظرك طويلا على الأحجار فقلت له: إنك لن تأتي! قال لي:
أنك تلعب داخل القطار المقلوب، فحذرته من دُوار اللعب داخل
القطار. فحُض من الأحجار وأعطاني كوب اللبن، ثم تطير الطائرتين
ورفعهما إلى حيث تحب:

"ضياء اللؤلؤ" عسى أن ترى طائرتك وطائرته من نوافذ القطار..
وقد يقطع عم كامل مباريات الكرة في المرعى البائد ويقول له:
- ضياء انتظرك كثيرا، ثم ربط حبل الطائرتين بالزود ونام به، ولما
خرج جدك من فجوة السور قلت له:

- اللعب ضيأوه شديدا!

فطمأني وقال:

- من لعب بالقلم كتب أسرع.

ولكني حذرته:

- اللعب مثل الأرجوحة لا يُبقى على ظهره أحدا!

و يسأل نبوية ابنته سؤاله اليومي:

- أين هو؟

فتجيبه بلا وعى:

- ضياء؟!!

ولما يصمت تقول مُتذكرة محروسا:

- إنه هناك.

تقصد واحدة من مظان الهروب: أشجار الكافور، وبرج المراقبة،
وتل الأموات المنخور، ومُشجر الزيتون، والقطار المقلوب، وزرايب
الخنازير، وترعة المحاورين، والشعب المختصر لها حيث جُحور الثعالب
المندغلة في نباتات البوص..

أو تقول لأبيها:

- إنه هنا؟

وتقصد نومه في المزود متوسدا حقيرة المدرسة.
نظرت لا تأمره ولا تنهاه. نظرة مرجوة كالحرية وكالهروب.
يتعادل في حيادها الخطران:

خطر النجاة، وخطر السقوط!

إلا أن يلمح في عيني عم كامل ساقية الأرجوحة تدور بضياء
حفيدة؛ فتبدى نظرتة مصير اللعب. نظرة معنية بفرحة اللعب و دوامه
ولا يعينها تعب وآثامه.

قال لمعلمه من وراء الطبلية وهو بدكة المطالعات يقرأ رواية
"ثرثرة فوق النيل":

- عم كامل ينظر إلى بنظرة مدرب في غابة اللعب حل اهتمامه
نقاط الضعف وليس المهارة!

فنظر إليه نظرة جملها إعجاب و قال:

- كثيرا ما تكون الهزيمة ضعفا مستغلا، وقلما ما تحقق المهارة
انتصارا كاملا!

وأعاد مقولته في الندوة:

- الخيال لا يُحدره أمل يُنال، ولا يشبطه فوات رجاء. إنه شوق
الحياة الزائد على رغباتها، أو هو إرادتها المكافئة لمصيرها.

أخبره محروس أن عم كامل بلل له التراب إذ يُهيل الردم من منفذ

الممر المتصل بالأبراج، والمفضي إلى تل التراب المنخور، ثم زحف من
الفجوة ومن حيث اختفى سمعه عم كامل ينادى على لا شيء، وخرج
زحفا يقول له:

- رجوع الصدى يدل على إمكانية السير في الممر!
فتجلت في نظرتة غابة اللعب وقال:

- ظلمة اللعب شديدة!

- أنى أعددت الشمع والثقاب وفانوس رمضان.

مشى إلى المصطبة ليتمدد القيلولة.. جلس وقال:

- كل شيء ينقص إلا المصير، وكل شيء هالك إلا وجهه!

عم كامل أسير المصير، وأم وجيدة أسيرة الحضرة.

قالت للشيخ حنفي:

- الخوف مما يقطع علينا الحضرة؟

فسألها:

- وما هو؟

فقالت:

- لقاء النفس!

طوي معلمه الرواية وسأله:

- أعزمت على السير في سراديب الممر؟

- ولن انتهى حتى أخرج إلى تراب التل وأسمع ما تنخر به ريح

الأموات!

- ستجد بيوت العناكب غابة شهباء!

- سوف أبقئها لمن يأتي بعدى!

- احذر نور الخيال!

- سوف أتوحد بمصيره!

- الطاهر لم يعد!
- في يدي فانوس رمضان!
- ولا يدري لِمَ قام معلمه من دكة المطالعات، وقد أبقى الرواية
ومجموعة قصصية بعنوان: "همس الجنون" وأخذ محروسا إلى حيث يشير
ناحية مئذنة "الحسين" وقال:
- هنا ولدا نجيب محفوظ!
- وحرك ذراعه قليلا قائلا:
- وهنا ولد عبد الوهاب!
- ثم رجع به إلى حيث يشير ناحية المغربلين، وقال:
- وهنا ولد الشيخ محمد رفعت خادم القرآن.

وهو غافل عنها، ضبطته أخته يضع في الحقيبة الشمع والثقاب
والفانوس. أتمت ارتداء ملابس المدرسة، ثم دارت في الشقة تغنى لمن شاء
السماع:

"وحوى يا وحوى...."

ولحقت به في حجرة الجدة وطوقت ظهره قائلة:

- هل هاللك!

فخاطب جدته:

- قولي لها تنصرف إلى مدرستها.

قرصت ظهره هامسة:

- أنت طالع أم نازل؟

وأرجحت ذراعها الآخر علوا وسفلا، وقالت بلهجة توشى

بالزهق:

- حتى جدتك لا تعرف الفرق بين طلوعك ونزولك!

- قولي لها تنصرف لشأنها!

فقال الجدة وقد حسبت أنها ضاربة عصفوريتها بحجر واحد:

- لا تنس إعطاء الفانوس لابن بيومي!

فخذلت أخته خيال الجدة قائلة:

- أما الشموع فأعطيها لابنة نبوية!

تقصد ابنة السبعة أعوام في القبو..

ضايقه غفلته وترصدها لأسراره. تنح عنها قائلاً:

- لو سمحت انصرفي لشأنك حتى أقول لجدتك سرا؟

نادته مكيدة:

- يا أخي، أنت أسرارك تسبقك حيثما سرت. أنت تسير كمعتوه

يقضم ياقة ملابسه. معتوه لا يرى أحدا. صدقت أم وجيدة: "من لا

يرى أحدا محط أنظار الجميع!"

وأشاحت في وجهه مستهينة بسر حانه المزمّن وقالت:

- أفق، فأسرارك تسبقك.. تسبقك!

تضاحك قائلاً:

- أنت التي تسبقيني دائماً!

قالت مزهوة بمقدار ما تدارى غمزه:

- أجل أسبقك في كل سنوات المدرسة!

أمن على زهوها قائلاً:

- وسنوات الكتاب!

شحذت الذكرى سخرها قائلة:

- زمان، كنت تنتحب على سلم الكتاب ثم تعود راقصاً بغناء

الطير، والآن أنت ترقص على سلم الهروب ثم تعود منتحبا بلا دموع!

فقالت جدته:

- ولكنه لن يسقط من سلم ارتقاه مختاراً.

انصرفت قائلة:

- أسأليه، ألم يسقط من سلم مئذنة المارداني؟

تشير إلى انزلاقه على درجاته، بعدما رأى سوسن وأمها من شرفة

المئذنة، وهما تسيران إلى المسجد لصلاة الجمعة وكانت أخته معه.

للمرتفعات طريقان.

يسلك أيهما على حسب الطوارئ والمحاذير. طريق برج الظفر إلى يسار البيت حيث وهلة الهروب وميلاده، وطريق حارة القبو الأقرب إلى عيمن البيت، ومن ثم كان ينعطف إليها كما يغمض عينيه لأحلام اليقظة، أو يغمضهما لوهاق النعاس، ووشيش "البابور"، وغوارب الحضارة، ورموز الأساطير، ثم إنهما المعبر إلى بيت أم وجيدة وجلساها الصيفية بعد الفجر. تقيم صلاحها ثم تنبؤ الحجر الصوان كما تنبؤ مدارا لشجرة اليقظين. "بلاء الخير وإطاقة الشفاء"، وهى الجلسات الجارحة للطريقين على حد سواء. فإن أفلت من مرمى بصرها وتلفتها المنبئ فما هو بالمفلت من الكلب "حُنْجُل" ولكنه كان يؤثر المرور عليها؛ لذلك اكتشف طريقا ثالثا خلف مسجد أصلم يبلغه بعد مجالستها قليلا على الحجر الصوان.

اجتاز حارة القبو، ومد بصره إلى تبسمها الندى الحزون. فيه معنى للفجر ومعنى لواجهة السبيل.

كانت الشمس مائلة عنها وأشعتها الساطعة سياج يتشتت فيه هباء التراب كما يتشتت "عفر" الطباشير في ظلال السبورة. كل من كتب بالطباشير، أو مسحه عَفَرَ ظل الشمس المائل من النافذة، إلا أبله زهرة، وهو حديث العهد بالخروج على السبورة، أبصرته من نافذة الطرقة يُضرب في شعاع شاتٍ أذله الصقيع؛ فاقتحمت النافذة وقالت تثبت عزمه وتتحدى الضارب:

- لا تخف من الضربة حتى لا تخيف راحتك!

أو تقول لهم في حصتها:

- استجمع أعصابك كلها في راحتك تفشل الضربة، وتنهار

أعصاب الضارب!

تصرفات الإنسان تجنى على المعاني! إننا لا نسمح لأي شيء أن يستقل. لا الخطأ ولا الصواب، ولا النافع ولا الضار، ولا الولد ولا الوالد. المعاني كلها تتشابه عندنا، حتى الطهر والإثم والكفر والإيمان.. إننا نأخذ من المعاني هواجسها وهلامييتها ونعلقُ بها كأننا "العفرة" في ظلال النور!

كيف صارت حضارة السور غفر وهباء؟!

أجابه من دكة المطالعات:

- وهل يستوي لديك وجود السور وعدمه؟

ويسط ذراعه إلى "قُقم الخيال" ببرج المراقبة ويسأله:

- كيف ميز الخيال "العفرة" من ظل النور، والحضارة من الهباء؟

تلقاه "حُنجُل" باندفاعات العدو، ولا يزال يقفز إلى صدره وظهره ويلتف حوله حتى جلس على الحجر الصوان. رد تحية صباحها، وأخذ نصيبه من السمسسم وعود النعناع، وسمعها تقول:

- ما لها بك؟

حسبها تتحدث عن الناظرة سألها:

- من؟

- التي توصيك بإنارة فانوس الهروب في فصل المدرسة!

أي أخته التي سبقتة إليها. تساءل باطنه:

"لماذا الهروب ولد؟"

سمعها تقول:

- كيف أنقذتم أكرم؟

تشير إلى انقلابه في تراب التل صباح أول أمس. أذهله هتك السر؟

ولا سيما أن الذين نافسوه في الترحلق هو وأكرم من فوق التل، قرناء

لهما من المحجر والزرايب!

- من أخبرك؟

قالت باسمه:

- أموات التل!

قال وهو ييسم مثلها:

- حسبته إحدى اليمامات!

- اليمام ليس مأموراً بإفشاء الأسرار.

لا قبل للخيال بالسبح في مدار شجرة اليقطين "إطاقة الشفاء" إنها

تغمسه في رموزها كما يغمس الرومان مواليدهم في خمر الصراع. قال

بثقة تحملها على تصحيح ظنه:

- أكرم اعترف لأمه، وأمه اشتكت لك الهارب؟

قالت غير مبالية بثقته:

- اسأل أكرم.

قال ضاحكاً:

- ألم تخبرك أموات التل كيف نجح؟

قالت مطمئنة على صدقها:

- ما تراه الأموات غير ما نراه نحن!

والكذب أيضاً لا يكذب في مدار شجرة اليقطين؛ إلا أن يكون

الكذب خيالا ينطق بالصدق كهدهد سليمان عليه السلام. صور لها

انقلاب أكرم لحظة السباق وهو دون الحضيض. مال بجناحه، ولكنه

اعتدل وأمكنه الوقوف والتراب يغطي صدره. أسرعوا بخلع قمصانهم

وإلقائها إليه معقودة الأكمام، ثم صور لها لحظة النجاة؛ فشخصت

كيمامة لازمها الارتياح حتى استوت السفينة على الجودي. نبهها من

شرودها مُسائلًا:

- من أخبرك؟

فسألته:

- من كان بالقبو وأنت وكامل ونبوية تنظفون أكرم من تراب
الذين تقطعت أرحامهم؟!

- كثيرون!

- لا أسألك عن هؤلاء!

أطرق متنهدا، ثم ثقب ألق عينيها الخواص وهو يقول:

- إذن هم الذاهبون؟

وضحك قائلا:

- ولكن الذاهبين لا يتكلمون إلا مع عم كامل!

تضاحكا معا، وبثته شكواها ووجدها قائلة:

- فيم عاودتم الترحلق على تراب الأرحام؟

- مادام التل موجودا سيوجد من يترحلل فوق قمته!

- للزلل عناد تُحبط عنده الرغبة في النجاة!

- النجاة في الزلل!

- والدتك لامت فيك تلميذ العقاد، وتفكر في إنزال طبلية المذاكرة

من السطح!

ثم أخذ بصرها "حُجُل" وسعيه يتشتت خلف "عرسه" ثم غربت

نظرتها في لوعة كالدمع، وذكرى كالوجد؟ بعينيها الضيقتين ألق للموت

تنيره الذكرى البعيدة، وتخبو به الفرحة الحاضرة. سمعها تقول:

- أنت تأخرت على مدرستك!

سألها:

- من أخبرك؟!

فنطقت بحكمتها الماثورة وهى تعنى أن الكدر ليس في إفشاء

أسرارنا لأن إفشاءها ضرب لازب، وإنما في جهلنا بهذه الحقيقة الناصعة،

وهى:

"للأسرار آونة تكدر علينا ما كنا نستمتع به من عماء!".

انطلق إلى جامع أصلم، ثم دار حوله مستقبلاً الحارة البارز في نهايتها جزء السور المقبوض. ارتقى أحجاره المكومة وعاود الانطلاق حتى دخل القبو. مر بين المصطبطين المتخمتين بالزبائن وهم على ميللة العرجون وصحوة الأفيون! استغرب وقوف عم كامل على النصبه وحده وغياب نبوية؟ وضع الحقيبة على كرسي النصبه وأخرج منها الفانوس والشمع والثقاب، ثم سأل عم كامل:

- أين أم ضياء؟

التفت إلى ما أخرجه وغابت نظرتة في رماح غابة العب، وأوزاه. أجابه:

- مدرسة عواطف طلبت حضورها؟

فضحك باطنه: "للأسف مدرستي طلبت حضور "نمسس" في عام الشهادة الأخير!".

حمل عم كامل الحقيبة من كرسي النصبه وجلس مكانها وهو يقول:

- السنين تُنقص العمر وكل شيء ينقص إلا وجهه!

ثبت الشمعة بالفانوس. أغلقه ومد يده يريجه من الحقيبة؛ فقال عم كامل:

- دعها لنبوية تعلقها في مسمار من المسامير..

فاجأت صغار الكلاب محروسا؛ إذ تمرق من الفجوة التي أهال ردمها في يومين. حسبها سفراء المصادفة وتدير الخطر لمن عمل له مجازفا. زحف في الفجوة يتقدمه الفانوس ومن خلفه الجراء. تقدم غير هيب، ولكن راعه أن يشيخ الظلام المعمر؛ ويفنى في عتمة من قتام متغير. سواد بعده سواد يتكاثر به انطواء الممر وامتداده وخطره. هباء الأحجار عالق في شيخوخة الزمن كما نعلق نحن في ظلال النور!

هل للأحجار أرحام قطعت كما قطعت أرحام التل؟ امتداد غائر
كرموز الأساطير مُشوق مخيف، يتهدل من سقفه بيوت العناكب
مستعرضة جوانبه وحجراته، وجل فرائسها من خنافس مدلاة بخيوط
شهباء، منتهاها كفن مغزول مُحكم كغزل المومياوات. تحصن بظل
الفانوس، وهالة لحظة الخطر:

"من لم يخلد معها في بفنائها.."

هاهي أنوف الجراء حثيثة تشمم هباء الماضي وفرائسه، وواهلة
الحاضر الأبدية. حاض في غمار الشيخ الفاني بغريزة الأنوف المقتحمة
المستكشفة. جسورة الغريزة في غفلتها تكتمل جسارتها.

تتبع صغار الكلاب في ضرب عشواء، ثم هبطت سلما يعترضه
باب من قضبان الحديد تسللت منه تباعا وهو خلفها، حتى انتهوا إلى
حلق برج غزلت جوانبه العناكب طباقا مُسدلة على محفل من الفرائس.
لمسها كما يلمس سعيد نغير فصامه، وكما يلمس المنقب غزل
المومياوات.

محفل أموات مغزول مُحكم. اجتازه والجراء إلى جنن ظلام منبثق من
جنن، ثم راعه شُفافةُ الظلام، وتدرجيا تلاشى ضوء الفانوس؛ فلتمس
منفذ الشُفافة المتعافية، فإذا به ركن مزغل عن يساره. أطفأ الشمعة
واضعا الفانوس جانبا، وانتصب في مستطيل المزغل يروزر ببصره
الشمس وطيورها وأشجار الكافور وبرج المراقبة، وانحداره على ركام
الحضارة كصخرة معشوشبة برعب الأسر والهروب. أين الجندي أسره
ومحرره؟ قال له:

- ستجد تاريخ ترحيلي منحوتا بشجرة الكافور هذه!

ونظر مليا إلى الوهدة المنتهية بانتهاء القبة الزرقاء، ثم قال:

- العائد منا سيترك لك المنظار عند مينا البقال.

أخرج جسمه كله من مستطيل المزغل مثبتاً راحته أعلى حزه
وقدميه أسفله، فبدا كمصلب مائل في الهواء، أو طائر أسود صافاً
جناحيه يفتحهم قاعة الأعمدة على مولاه. سأل:

- فيم طالت غيبتك أيها الوزير قراقوش؟
- كنت أستطلع أحوال الأجيال القادمة يا مولاي.
- وهل استطعوا هم أحوالنا أيها الوزير؟
- لقد أتى الجيل يا مولاي الذى يذهب إلى الشمس ولا ينتظر
شروقها!

- إذا لن تكون الشمس شمسا!
- إنهم يا مولاي يرون عبرة الماضي كوكبا معتما!
- فخليق بنا إذا أيها الوزير، أن ننتظر عبرة المستقبل كم انتظرنا
شروق الشمس!

ظل صافا جسمه خارج المزغل يسترجع حوارا، ارتجلوه في الندوة
حين سأل ساءل:

- والطائر قراقوش ماذا سيقول لمولاه إن صادفه في ممر الأبراج؟
- أجاب شاردا:
- سأقول له القاهرة يا مولاي في هذا الزمان لا تحتاج إلى أسوار!
- لا تحتاج إلى أسوار متى عرف العالم كيف ينظر إليها؟
- إنه لا يعرف التعب، ويعرف إثم الهروب!

أشعل الشمعة، واجتاز بالفانوس تقاطعات الحجرات والدهاليز
وأبواب الحديد، وخامره أن يحرق بيوت العناكب قاطبة، ولكنه جفل
أن تمس النيران فرائسها المعلقة في أكفائها حيث يصاب الموت كما تصان
الحياة. هز الخيوط منبها العناكب؛ فأتته مستطلعة.. ناوشها مُستمتعا
بهروبها وفرارها، وبروعة النجاة وشرفها المروم كشراف الأقدام:

"كلاهما صيانة للحرية من ابتذال التهور وذلة الخنوع". لاح له من مزغل التل مشجر الزيتون وبعض شواهد القبور والمظلات.

هنا فقد الطاهر، وهنا جاش حيلة بعاطفة الخيال فعلق صندله وصرة ترب الأرمم أسفل التمساح المحنط بباب الشاهد. تشاغب الجراء بهرير^(١) الجوع. تفقدها حيث قهره، وجدها تجهز على أرز في رغيفي خبز، وقد تناثر في المكان معطف متهرئ، و خدادة و شلت من القش، وأكواب بلاستيكية ومالا حصر له من أعقاب السجائر..

لحقت به الجراء وهو يفيء إلى ركن المز غل تأهباً للخروج إلى التل، وأنه ليحمل الفانوس؛ وإذا بصوت نافر غليظ يأتي من أسافل السور. اعتمد ركبتيه وراحته ناهزا رأسه من المستطيل كأنه كلب يستطلع. أداره على امرأة تفرش تراب القرافة فوق ملائعها، وقد أسندت ظهرها إلى حوض حنفية، بينما تطامن إليها شبح شبه راقد على جنبه.

كانت تعانده في دالة تمنع، أو دالة تهيو وتحفيز بحيث لا يستطيع إلا أن يفعل ويفت عنادها. أغمضت عينيها متلقية براحتها لها نافطاً، ثم جرف الشبح ذيل جلبابها المزركش وتهيأ معاً على اضطراب نزق أخفى اللهب النافط.

لا الكبار ولا الصغار غضوا الطرف عن الكلب "حُنْجُل" بل نهروه وركلوه ونكلوا به؛ فيما كانت أليفته ممسكة به حتى رفق اللذة الأخير؛ لذة الأمومة وأصولها الأولى، وكان عم نحمده يعاتب الكبار في أليفة حُنْجُل قائلاً لهم:

- الوطاء هو الذي يربكم لا الحياء؛ وإلا فغضوا أبصاركم عنها،

(١) هرهر الكلب: كثر عن أنيابه.

ولا تستبيحوا مهد لذكما المباح.. ما بال أمثالكم لا يستحون من صبار
القبو؟ وأنتم ها هنا تعافون الحياء!

نفاق ضعف أم نفاق أنانية؟

هاهو الصبار، فما بال المرأة تتلظى بلهب الشبح النافط؟!

أين الوزير قراقوش؟

بل أين ملك الموت؟

أعرض عنهما مسندا ظهره بحز المزغل وإن بدت من مستطيله
شواهد القبور كأنها رؤوس أموات، تشخص مآقيها إلى العاشقين، وقد
برق بها الشغاف نطفا اهتز به الترب؛ فأنبت أرواحا زایلتها روح أقبلت
نحوه قائلة:

- أنا الطاهر!

- هل رأيت المرأة؟

- ورأيت الشبح!

- كانت تنتظرك!

- بل كانت تنتظر حرية الموت!

- وحريتها؟

- حرية الموت أسمى وأطهر!

- نحن نختار حريتنا!

- وحرية الموت تختارنا!

جعجع الصوت النافر الغليظ بقهقهة جاوبها ضحكة مستهترة
برؤوس الأموات على شواهداها. اعتمد ركبتيه وراحتيه ونهز رأسه من
المزغل فتلاقت الأعين على أمر قد قدر. وكأن عينيها بعد السفاح
أكثر يقظة من ضميريهما. يقظة من غمرة، أو صفوة من عكرة خائره!
وبلهو حة آثمة أقامت المرأة ظهرها من الحوض حاشرة طرفي ملاءها

بين فخذيها، بينما الشبح قد حقنته نظرة التلبس بجرثومة التهتك فصار
قوادا للإثم ، وحقق في نظرة التلبس بافتضاح، ثم عرى فخذ المرأة قائلاً
لمحروس:

- هيا إليها ولن تقول لك لا!

فلكمت زنده وسحبت من أسفلها الذيل المزركش سحبة واحدة،
وقالت وهى ترقب الآخر:

- كيف دخلت هنا؟!

وجدت لمجتها في تحذيره:

- المكان عندك غير آمن إن سلمت من الهوام، فلن تسلم من
أماسخ البشر وهذا أولهم!

وربت صدغ الشبح، فجججج بالقهقهة ولم يتمالك نفسه وجرو
من الجراء يبرز بين ذراعي محروس. هتف بدموع آثمة ضاحكة:
- أتفضحن؟!!

وتملق محروسا وهو يقول:

- والنبي، من معكما أيضاً؟

فقال ضاحكا:

- معنا الوزير قراقوش.

قال الشبح مأخوذا كمن يعرض الاسم على ذاكرته:

- قراقوش ده أبو على بابا والأربعين حرامي؟

- لا، إنه وزير ملك الموت!

وكأنما خامر نظرهما خامر الإثم وتمثلا شواهد القبور رؤوس أموات
تنضح مآقيها بعبرات التبكيت، ولكن الشبح دقق في قميص المدرسة
وقال:

- الهروب إلى هنا من تلميذ فصيح مثل نية حسنة، والنوايا الحسنة

مهلكة لمن كان الهروب غوايته!

آه ما أشبه الكلمة بالكلمة والسهم بالسهم.

"أنت أغواك الهروب فيلى أي مد يأخذك؟"

"وأين الأغصان؟"

"أنا حفظت لحنا كاملا لشادية، وقد أوقعته على البيانو في حجرة

الموسيقى، وغناها الفصل كله إلا أنت!"

"وما هو؟"

"تعالى يلا في غمضة عين لا تقول دقيقه ولا دقيقتين".

نعم للأسرار آونة تُكدرُ علينا ما كنا نستمتع به من عماء. وربما كان تأخره عذرا لأخته؛ إذ تطلع أمهما على أمر الفانوس والثقاب والشمع، ثم قالت لها:

- أظنه دخل إلى فجوة السور التي يشاهد عم كامل جدي يخرج منها!

فصاحت بها:

- التي ماتت تحت أحجارها كريمة؟!

تقصد زوج فهمي دربكة. فقالت تهدئها:

- سوف آخذ حيلة وأذهب إلى عم كامل!

فوكّلت:

- حيلة! يا حيلتي، لكي يأتي لي بجذائه كما أتى لنحمده بصندل

الطاهر!

قالت الجدة من الصالة:

- دعيها تذهب لأحد من أخوالها.

استقبلها عم كامل ضاغطا جفنيه على شُهب مقبلة من الذاكرة، أو

ضاغطا على أرواح حضرت كما وصفته. أجلسها على المصطبة وهو

يقول:

- ضياء ينتظر أخاك في المرعى!

تفحصت القبو باحثة عن نبوية وهي تقول:

- أين أم ضياء؟

قال:

- "شعلة" أخذها إلى الست الناضرة لتكلمها في نصب الأرجوحة

بحوش المدرسة!

و"شعلة" هذا مالك الأرجوحة، وقد صرعه شريكه "البطايطي" في

معركة دامت بدوام الشركة. لاحظت الحقيبة المعلقة بمسمار القبو.
 نهض من المصطبة وصحبها إلى منفذ ممر الأبراج، وقال يطمئنها:
 - الكلاب الصغيرة دخلت به هنا والكلاب هي التي ستعود به!
 فاستهولت ضيق المنفذ قائلة:
 - دخل من هنا؟!
 وفكرت تستعين بسعد ابن نوفل فسألته:
 - أين سعد يا عم كامل؟
 نظر إلى ما ظهر من سفح المرتفعات كأنما يتتبع شبحه وهو يختصر
 الطريق من وإلى القرافة، ثم قال:
 - سعد في المقابر يصل ليل القمار بنهاره!
 صاحت ضجرة:
 - أين نبوية يا عم كامل؟
 وتطوع معوض البنا سابقا للدخول من حجرة دربكة، ولكنه مال
 على جنبه ولم يعتدل؛ فانصرفت الفتاة عنه وهي تقول:
 - أنا سأحضر خالي.
 شيعها كامل بقوله:
 - اطمئني! النائمون في الممر يعرفونه. كلهم خدموا جدك، وكلهم
 حملوه من المزاود نائما.
 وتطاير النبأ بحبوب اللقاح؛ فتجددت في الأحيلة ذكرى الطاهر،
 وجنازة رفاقه، ولكن خروجه من حيث زحف أفسد على خيال الناس
 ربيعهم..
 تقدمته الجراء مارقة من المنفذ وترادفت متهافئة على صفيحة الزير.
 خرج ذراعه بالفانوس مضاء، وأكمل زحفه؛ ليقول له عم كامل:
 - لقد حضر جدك، وفك حبل طائرتك من المزود وأعطاها لأم
 وجيدة!

اندحرت الفرحة بعيني أمه وهو مائل أمامها ملطخا بآثار جريمة كاملة، ولكنه لا يدرى إن كان هو الفاعل أم أنه مجرد شاهد عيان، أو طائر أسود قد أعيته فراسخ الهجرة؛ فانقض على ثدي شاة بالمرعى البائد؟

عاتب جدته قائلاً:

- كنت معها اليوم عليّ!
- أعصابها لم تعد تتحملنا معا
- وماذا سنفعل بقسمها؟
- عليك البر به..

قال حانقا:

- وما شأن السيدة النبوية بالهروب من المدرسة؟!
- وحاكي أمه في لهجتها ونظراتها وتوعد يدها وهو يقول:
- وستنا فاطمة النبوية، إن سولت لك نفسك الهروب أو حتى الاقتراب من السور والأبراج والقبو؛ لأفعلن ما تفعله الأمهات الصالحات. أنت أفسدت نفسك وأفسدتني. لن أدعك تهنأ باستهتارك والعبث بي، أما المدرسة - الحائط المائل - الذى تركز إليه فهدمه أهون عندي من القضاء على تسولك..

كانت جدته سارحة تقارن ملامح المحاكاة ونسختها الأصلية التى شاهدت ثورتها وهى صامته تماما!

قالت الجدة:

- حسبك من الأيام يوم الجمعة والأجازات.
- قال مغالطا نفسه ومتحديا قسمها:
- وماذا لو هربت إلى مسجد السيدة النبوية؟
- وتعرض لشيختي أمه: الشيخة "حورية" ضاربة أمثالها وضمير

وعظها، والشيخة زينب غزال المنبرة باعتقالها!
قال:

- وماذا لو هربت إلى الست أم حورية أو الست زينب؟
وسأل الخيال:

- كيف تفتن باعتقال الشيخة ولا تفتن بحرية الهروب؟
قالت مشفقة:

- تجنب إثارتها من أجل صحتها!
ساوره اندحار الفرحة بعين "نمسس" ما أن رجع إليها من
فراسخ الهروب. وقد اختصر لمعلمه وقائع الهجرة من وراء الطليعة، ثم
قال:

- وماذا بعد الاعتراف بالخطأ إلا حرية الصواب؟
- اعتراف الضمير أم اعتراف الخيال؟
قال شاردا:

- الضمير هو احس من الخوف!
- بل الضمير "هم" تنشغل به النفس الحرة.
وسكت ليتنبه من شروده، ثم قال:
- الضمير يخاف النقص وليس العقاب.
- هل ما أفعله عيب يخاف العقاب أم نقص يخشاه الضمير؟
- ماذا يقول لك ضميرك؟
- ضميري مع أمي، أما حريتي فمعي!

برَ بقسم أمه نافيا نفسه بإرادته، وواظب على الحضور إلى المدرسة حتى أثار حضوره ضجة كضجة الهروب؟

فقد أضح سطحها بديلا عن ذروة المرتفعات. يتطلع منه إلى أشجار الكافور والكتاب وطيور مئذنة أبي حرية وهى تهيج مولية شطرها منارة أجراس كنيسة حارة الروم، ويخفق قلبه في مكان "القبلة" حيث هوى في سقطاتها، ولكن قلب سوسن كان ينكل عن عهد الصعود إليه، كلما أبرماه في الرسم، وحجرة الموسيقى، أو حجرة الدادة نعيمه، أو وهو ينسم رائحة الكافور في وجهها وشعرها وردائها، أو وهى تحذره عند مسجد المارداني قائلة:

- يوميا وأبله الناظرة تعلم بطلوعك السطح!
وكانت الناظرة قد طلبت من أبله زهرة إحضاره إلى حجرتهما،
فغض طرفه عن عينيها الجاحظتين وهى تقول له:
- أنت فرجة لا تسر عدوا ولا حبيبا، وستظل "شايل" حمارك حتى
يتعب الحمار من العناد!
نُحْق باطنه.. قال:

- ومن يدفع ثمن الفرجة الحمار أيضا؟
تضاحكت أبله زهرة ماسحة رأسه بينما تعمقت الناظرة خياله "ذا
الوازع العقلي. صدقه عمل وكذبه أمل.. " كما أوجز لها معلمه حالته
في زيارة موجزة. قالت له:

- أبله زهرة قرأت على ما كتبتة، وأنا معجبة جدا بخیالك ووازعه
العقلي ولكن الخيال بغير زاجر من الضمير فجر كاذب! ثم أجلت
الناظرة تضاحكها؛ حتى أجلس جدته أمام مكتبها وقالت:

- ابنكم "شايل" حماره وأنا "شايلة" الاثنين!.

وتشاطرهما جدته الضحك مصغية إليها:

- أقول له أنت فرجة، فيقول لى: هات ثمنها!
- ثم قالت بجدية المتطيرة بالضحك:
- طلوعه السطح مصيبة علينا كلنا. السطح بلا سور ومن غير المعقول أبقي شرطة التلاميذ على سلم السطح طول اليوم الدراسي!
- وتستنجدها بعينيها قائلة:
- كانت الطامة هروبه من المدرسة، وطامته الآن هروبه إلى سطحها!
- فتوحدت جدته "بتيما" ربة الأرض قائلة:
- اجعله شرطيا على سلم السطح، لعل مسئوليته عن سلامة زملائه تصرفه عنه!
- تعمقتها كما تتعمق خيال حفيدها. أظهرت الفرحة لها قائلة:
- فكرة معقولة ولكني سأجعل له رفيقا، ولا ترجعي إلى البيت اليوم حتى تشتري له شارة الشرطة والكاب!
- ثم أرسلت إلى أبله زهرة وقالت تستشيرها:
- من بالفصل يرافقه على سلم السطح أثناء الفسحة؟
- قالت متحمسة:
- زميلته سوسن!
- فقال بلهجة قاطعة:
- لا، هذه عازفة بيانو وليست غفيرة!
- الوحيد الذى تأمنيه عليه هو أكرم.
- بنفس اللهجة:
- لا، هذا قد هرب معه!
- لو أفهمته خطورة الأمر ربما حرص على سلامته أكثر من غيره.
- أو كان أحرص على رضاه من غيره!

واختارت "نجوى" رائدة الشرطة، ولكن رفقتها لم تكتمل فسحة واحدة؛ حتى ثارت الضجة التي زلزلت المدرسة.؟ فقد أفاج إليه أكرم مرتقيا السلم الحديدى ولكن الفرع وقف به حيث بدا له أفق السطح ضاربا في فضاء بلا أسوار يحيط بجوانبه. حاز وجهه بظهر السطح مناديا عليه بخبره:

- نجوى الآن في حجرة النافذة تخبرها بطلوعك السطح!

قال غير مبال:

- اطلع يا أكرم سأريك بيتنا من هنا!

ضحك بعصبية وقال:

- شكرا، فأنا أعرف مكانهما تماما.

- اطلع يا أخي.

- أنسيت؟

يشير إلى يوم احتل توازنه إذ يناوله فروخ الحدا من قمرة المئذنة.

تباعد عنه محروس إلى أن حاز بقدميه حز السطح، ثم قال صافا ذراعيه:

- كنت في حجرة اليمام أحبو على أربع مطاردا ما أألفته منه، ثم

استترفت لهائي وراءه، وخلتني أسندُ ظهري بقوائم سياج الطرقة

الخشبي، ولكني سقط من بينها على بطن حيلة؛ فروعتي يقظته

كأنه هو الذى سقط في مجاهل السبات. بينما هتفت أم وجيدة

بساجدة: "طفلى سقط يا ساجدة!" ومجرد أن ضمتني

وتنسمت رائحة الكافور؛ طاردت اليمام وهو يهرب منى و

يتطاير من بين القوائم الخشبية موضع سقوطي من ساعتى!

تمتم أكرم:

- قدماي ترتعشان!

جلس على حز السور. تشجع أكرم يناديه:

- خذ بيدي.
- لم يحرك ساكنا.
- ها أنا ارتقيت السطح.
- التفت إليه من مجلسه قائلا:
- أقدم كأنك الخوف ذاته!
- أنت ترعبنى بهذه الكلمة!
- توحد بالخوف ترهد فيه ما لم يجعلك مثله مخيفا!
- لما قلت لى توحد بتراب الأموات انقلبت في جوفه!
- والآن، أنت أكثرنا جرأة على قمته!
- قدماي تعجزان عن الحركة!
- هما خطوتان.
- اختلال توازنك وأنت معلقا خارج المئذنة كان رهيبا!
- هما خطوتان وتخلد خلود الخطر. هلم يا أكرم!
- هم أكرم أن يقول شيئا ولكنه خر في إغماءة ضجت لها المدرسة ضجيج الهروب.

"للمرواح" أيضا وهلة من خطر الهروب، ولكن الهروب فردى أثرته من أثرة التوحد والخطر واللعب.

قد نهرب معا ولا نسمى هارين حتى نتضاد ويكتمل صمودنا.

كان يحيل مرج المرواح واصطخابه وهو جاء فرحته؛ وهلة هروب مشبوبة تجازف الفرع؛ فيزا يل زملاءه من باب المدرسة منتهيا من عطفة سيدي سعد الله ابن الحسن، ومن منفذ بدرب شغلان يرتقى جناح المرتفعات فيما يلي التل المنخور، ثم ينحاز يمينا مقتفيا أثر السور بصحبة كليوس، ولا يحفل بما تقوض منه، وما ردم وزال، وتمثله فتيا قيد من قوة، وحرية من منعة.

وقف حيث تصعد من الجلمود أبراجه ومزاغل النبال والرصد والمراقبة، ويطيل النظر إلى المئذنة الهيفاء الرشيقة كأنما تطوف بها خفافيش ذلك الغور المنخسف بسور يأجوج ومأجوج.

وتأتيه سحب السماء بذكرى ضياء؛ فسرب ناحية القطار المقلوب. جناح ضياء الذي أغناه عن الطيران ولم يغنه عن السقوط من أرجوحة المولد. لم يكن يعدل بالقطار شيئا، لا التسابق من قمة التل المنخور، ولا لعب الكرة، ولا مطاردة الثعالب، ولا تطير الطائرات، ولا وهلة الهروب.

قال له ضياء وهما بعربة القطار:

- كنت أعجب من نوم الطاهر بتجويف الجدار في حجرة اليمام؛ حتى اتخذت من القطار جناحا لي!

رحم الطاهر جدار، وحياء ضياء قطار مقلوب!

وهو الأول في وهلة الحياة، والأول في وهلة الموت، وهو أول من وحدا محروسا بمس سعيد داخل قبو جده، إذ لم يترك سؤلا عن الحرب والأسر إلا وسأله، وكان سعيد يصبر على أسئلة دائه لحبه لعم كامل أو

حب الموت فيها وحديثه الواصب عن الأموات، وموت ضياء انقطع سعيد عن القبو، ولم ينقطع عن سؤال عم كامل عن حفيده وذلك من سطح بيته المواجه للقبو، وأحيانا يحدث ضياء عن الأسرى كأنه موجود يسمعه، ويعيد عليه قصة الطيار الأسير التي حكاهها له جندي بالحارة، ويصر سعيد على إنه شاهد الطيار وهم يضعونه على التبة كهدف مباشر للطائرات المصرية ولكنه نجى والطائرات ماتت!

هو رحم الطاهر وجداره، أو جناح ضياء وقطاره المقلوب، أو هو السعي إلى سعيد حيث يجده بصحبة حيلة في في حوش أم وجيدة، وفي درب الهندود، وفي مربط الجمال، ونطاق المدرسة، أو ينتظر خروجه من حمام الدرب الأحمر ملجأه المستدم، أو وقوفه بعتبته منصة صياحه في السائلة:

"إلى سترة العرى يا مجانين يا حراميه. إلى الماء لا النابلم. إلى المغطس لا الحديد!"

وفجأة يُوجم، وبجذر المتهوس يتحول إلى مجرى الشارع و يلامس أي شيء يصادفه، ثم يرفع يده متأملاً صورة المس، أو يد الانسحاب التي اغتالت رفقاءه العزل، وينكبُّ حافراً في التراب وما يلبث أن يطارد أشباح كل من لمسهم من الجنود والشارع، ثم يرتد إلى عتبة الحمام منصة الصياح:

"السترة، السترة، السترة.."

ويُحذر الجميع من بأس الجراد والحديد، وقد يقطع عليه المشاكسون السبيل إلى الحمام؛ فيشط في هياجه وفرعه إلى أن يصعد إحدى منارقي البوابة، ويقضى هزيع الليل وهو يخاطب القطب متولى والمؤيد شيخ، أو يهتف بالناس أجمعين:

"الحرب لا تنصر قويا ولا ضعيفا هو المجنون يا مجانين يا حراميه."

وقد يلزم حيلة بنافذة البوابة حيث يرقد بلوحي الفنان المصور:
لوحة اليمامة، ولوحة الكارو، وذلك كلما تجددت ذكراه، ويرفع
لسعيد لوحة منارة الموت التي لم تكتمل بموته، والمستلهمة من سأل،
سأله لعم نحمده وكان معه زميله السريالي:

- أكان يحتطب للحرب الكونية الثانية في الخفاء وهي تنتبذ القرافة
اعتصاما بأرواح لا تموت جزافا كما يموت الإنسان؟!
فقال عم نحمده:

- لو قدر لها أن تتزل بقوم هيروشيما ونيكازاكي؛ ربما خرجت
بهم نبأة الأنتباز قبل أن يتزل عليهم الصبي الصغير من الجحيم!
يشير إلى اسم القنبلة الذرية، قال السريالي:

- ربما، ولكن هل كان أولاد العم سام سيضحكون من أسرارهم
العليا المستباحة للضعف الملهم أم كانوا سيغضبون غضبة أخرى؟
قال الفنان:

إن لم يكن وحماها اعتصاما بروح الموت فماذا يكون؟
أجابه زميله:

- لعله نبأة في ضمير العالم تتفصد عن براعم مشثومة تسقى من
رحيق القبور أو تسقى من دماء الحروب!
استحضر عم نحمده رحي الحرب وقال:

- زرناها بستان الشاهد والأوزار تجعجع وكان معنا الطاهر يريد
أن يستكشف الوحم الذي تشيعه عنها البدوية؛ من أهما تميم نفسها
لأكل العقارب، وزواحف القبور أيام الحروب، وإنه ليستكشف الوحم
المستفطع في صداعها وغير الذبول في وجهها وصيامها؛ كنا نحن نتطعم
"بالوحم" ضد طائرات الحرب؛ لذلك لم يخفق لنا قلب ولا جفن
وصفارات الإنذار يتواصل نعيمها كنوة بحر تفوخ أصواتها بوهدة

القرافة. كانت سجائرنّا تنوّهج في ظلمات القبور كمنارة للطائرات!
ولما استأذنت أمّ وجيدة لصلاة العشاء؛ قلت لهم:

- من يصدق أن آلافا من أرواح الموتى الآن قد فارقت أصحابها
لتبليبل في هذه الهامة الصاعدة؟
قال طه مدرّس الجغرافية:

- إنّها كقناة السويس، المتحاربون كلّهم يريدون إخفاءها ولو
مؤقتاً!

وبارزني توفيق موظف البنك قائلاً:
- هي كقناة السويس وأنت كالبحر الميت!
فقال مينا:

- ونحن أسماكهما الصغيرة!
وكصحفي محترف قال عزيز:
- وربما أشاع السياسيون أهمّ ملائكة الحرب!
وبجدية موظف مثقف قال جمعة:

- أجل، لن تخلف هذه الحرب سوى طب السياسة الأسود، وربما
حمل لواءه المنتصرون إن هزم هتلر!

ثم رفعنا رؤوسنا لأزير الطائرات فتوسلت إليهم:
- والنبي، اطفوا الظلام وإلا شافتنا الطائرات!

فتضاحكوا حتى تساءل بدر المسحراقي:
- يا ترى على من تنوح الآن أمّ وجيدة أموات الغرب أمّ أموات
الشرق؟

فالتحد الفنان بنفسه:

"قدر عليك أن تصور ريشتك كمنارة للموت وتطرح ظلالها
متموجة هادرة كأنها نغير بارحته. سيظل صداع وحمها مألوفاً للناس

وإن أرهبتهم غرة نبأته، كما يرهبهم ركوب البحر. الموت بعد غرته
مألوف حتى للغريق نفسه..

وسيطل صيامها فيما تعارفوا عليه إرضاء لأرواح فارقت أصحابها؛
ليعيشوا أمواتا على الدنيا أربعين يوما، وما أن تضع الروح سرها ضمير
الموت؛ تعاهد أم وجيدة الموت على الوفاء والصيام وتبلغ نبأته بغموض
يليق بجلال السر!..

أهدى حيلة سعيدا لوحة "منارة الموت" الغير مكتملة، ولكنه رمى
بها في الجمرات المتقدة بـ"حيطه" الحداد في نوبة بكاء..
وكانت أمه وأخته "هنومة" تحضران طعامه إلى دكان عم نحمده
ريثما يأتي به حيلة من الحمام، أو ميسأة أبو حريية، أو من دكان
"حيطه" حيث يجلس لشرب الحديد وحمته ساعات يتخللها هاتفات
يهتفها بالفنان باكيا:

"ليس للموت منارة، المنارة منارة الرمال!"
ولما يطارده التلاميذ يطارد أشباحهم، ثم يلوذ بعتبة دكان عم
نحمده يشكوهم قائلا:

- كلما روحوا من مدارسهم نادوني باسم عدلية!
قال سائما الشكوى وسائما نصفه العاقل:
- جريك وراءهم هو سبب هوانك!
فيرتبك سعيد ارتباك الرية في سفير الموت، ويتلفت مقارضا نحمده
بنظرة الاستنكار قائلا:

- جري وراءهم هو السبب يا حانوتي!
فيتضحك عم نحمده من "كراهته المعكوسة"، ويستوضحه هواه:
- أنت تحب الحانوتي أم تحب نحمده يا سعيد؟
فقال يؤنبه تأنيب الفاهم لمغزى الكلام:

- أنت غسلتهم بالرمل وغسلت نبوي بالثلج!
يقصد الجنود، ويلقى باللائمة عليه لأنه لم يُحييهم بالثلج كما أحيا
نبوي.

تأوه ضحك عم نحمده من ذكرى نبوي، ثم ارتكز على المكتسب
وتناهض وهو يقول:

- سأصلى الظهر يا سعيد، إن شئت بقيت في الدكان، وإن شئت
أيقظت لنا حيلة من نافذة البوابة مرقده الذي يحيي به ذكرى الفنان بما
يسامره في غفق الميتة الأولى.

واستقبل مسجد طلائع مُحدثاً نحمده:
"رجة الضحك هذه؟ أم رجة العمر الرزيل؟
نحمده لا يقوى على الضحك وأم وجيدة تقوى على الأحزان. يا
شحك يا دنيا، حتى عافية الضحك استردد تيتها غير منقوصة..
الضحك لا يشيب معنا والأحزان شابت. يا غدرك يا ضحك، يا
وفائك يا أحزان، ملامحك من ملامحنا. نفس النضارة، ونفس التغضن،
ونفس العرارة. وهن من وهن!

هل أنكرت الأحزان يا نحمده في المرأة؟ كما ينكرك الضحك
وتنكره؟ لو يهتف سعيد من عتبة الدنيا بهذه الوصفة:
"أيها الضاحكون إلى مغاطس الأحزان!"

وتصرخ امرأة فيقطع سعيد مُسرعا متوجسا من دهليز الحمام إلى
حيث يجد الصراخ يأسا قد وسعت رحمته كل من سمعه؛ فثار له غبار
الأقدام من كل مثار، ثم ثارت الأصوات الناقمة:

- هذا الأتوبيس غول أطلقوه على عيالنا!

- الشارع ده موعود بالدم!

- التلميذة انتهت!

لمسها سعيد لمسة استترفها المس، ورفع كفه متأملاً في صفحته
جثزير الدبابات وأزيز الطائرات، وشق الشارع بطوله وهو يحذر الناس
من صاروخ الحديد ونابلم الجراد، ويتنكب نافذة البوابة، ومن ورائها
يخاطب الفنان المصور:

- منارة الموت جنود رفعوا رؤوسهم لأزيز الانسحاب. الطائرة
ماتت والطيار حي لا يموت إنه جريح في الأسر. وضعوه على تبة
التنكيل؛ فقام كمنارة ولكن الطائرات ماتت وبقي الطيار حياً!
ثم يصعد إلى قنطرة البوابة، ويطل من عرائسها متمثلاً الأتوبيس حية
بسبعة وستين رأساً، ثم يتحول إلى صحن المؤيد يناديه:
- يا مؤيد الحية رابضة ببوابة الرمال!

ويستترفه منظر التلميذة والعجلات الضخام تهرس عظامها؛ فلا
يرح قنطرة البرجين إلا ليلمس صريعاً جديداً، وقد يكون كلباً أو قطعة،
ثم يصعد إلى مرقب المنارة ويهتف برجل معمم تنشق له قبة الرفاعي
ويأتي فوق سجادة خضراء؛ ليخرج الحية من الرمال.
وينادى عليه التلاميذ من صحن مسجد المؤيد؛ فيسألهم من مرقب
المنارة:

- أين الذين أيدوه يا تلاميذ المدارس؟ مجنون من غره التأيد!
وقد يجلدونه في شرفتها يعاتب عم نحمده منادياً:
- يا حانوتي، لما غسلت الجنود بالرمال في ليلة ساجدة؟
يقصد ليلة أم كلثوم من كل شهر، وهى ليلته الأخيرة مع الساهرين
حيث استدعوه للحرب من محيط برج عم كامل..

أي من أفق حجرة اليمام حيث ترنو وتسمع ساجدة، ترنو إلى
الكلوب والراديو المتوسطين محيط البرج فيلوح الموقع بظلاله وعلوه
كطبق طائر في دهماء المرتفعات، ويصل صوت "نومه" إلى مده المقدور

من مواقع النجوم ومواقع القلوب ويسرى في عود ساجدة ولطاف
فتنته؛ فيزيده رواء على رواء.

"رواء صوت من رواء عود. ولعله ظمأً للعشق يرفل في ثوبين من
رواء!" على وصف أستاذ الندوة.

يقصد أن دوام الظمأ للعشق هو معين الرواء في صوت "ثومه"
وعود ساجدة.

تقول أم وجيدة:

- معجزة صوتهما في أننا نستغرب سماعه من غيرها مهما تغنت به
مغنيات العصور.. في صوتهما مزج فريد لمحاسن أصوات الرجال والنساء؟
قال لها الشيخ حنفي يصف عود ساجدة كأنه عودها:
- عود ساجدة "عبق كافور" لا الكفيف ينكره، ولا المبصر يقيم
الدليل عليه.

رنت ساجدة إلى الساهرين وهي تناجي أمها:

- هؤلاء الساهرون عرفوا أين ينتظرون كوكب الشرق في طلعة
الشهور.

كانت تتحدد كفها على السرير النحاسي، وقد أنضبت وساوس
النباة روافد روحها، وأبقتها "هشة كعصف نعناع"، ندت الغنة من
صوتها:

- طاف بي أن سقاطة البرج انخسفت بالساهرين، بينما ريح سحق
الكلوب، وجر ظلاله كاشفا عن جثث جنود كأذيال الريح!
وتوجعت:

- آه، رأسى هاش كعصف النعناع!

ناجتها ساجدة وهي تفيء إليها:

- لطفك يا أماه!

جلست على الكنبه المتصقة بالسرير بحيث تضع راحتها على رأسها. سمعتها تقول ضاحكة:

- نحمده وقف بجوش الشاهد أمس يعينني على وساوسي ويقول:
أنت مثل شجرة الصبار الموت من تحتها مغلوب على أمره!
فقلت له:

- ها أنا أشتهى ماءه وجثث قبوره كما تشيع عني أم الطاهر!
فقال مقسما:

- والله، إن هذا الاشتها لسراب تحسبه دودة القبر جثة!
وانتبه من تضاحكهما على انقطاع صوت ثوميه؛ فاستطلعت
ساجدة موقع الساهرين من شباك المرتفعات، وهو يعج بأشباح
تضطرب.. وشاهدت من يحمل الراديو والكلوب؛ لتتحصر ظلاله
مسرعة. تساءلت الأم:

- ما بالهم؟

- أمر ما يحدث في برج عم كامل؟ ها هي نبوية تلم الأكواب
وحاجات السهر..

- أو كان معهم الجوزة؟

- لم أر الجمرة، وربما وشى دخان سجائرهم الغزير بأنهم قد خلطوا
الحشيش بتبعها..

فه قلب أم وجيدة وقالت:

- إن يحرمهم البيات في القسم من سماع "الست" خير من أن
تنخسف بهم سقاطة البرج!

ولكن الأمر انجلى لهما و"هنومة" أخت سعيد تقول لنبوية بصوت
مستبشر:

- إنهم استدعوا سعيدا للحرب!

فقلت نبوية:

- كانت الحرب تُستدعى لنا، وها نحن نستدعى لها، فهل ستأتينا الغارات ونطفئ الأنوار؟

كأنه المخاض الهش يعصف بورقة النعناع وعودها المديد ذاك الارتواء الظمان.. ندت غنتها تنوح بغمة الواقع وابتهاها المقدور:

- الجنود يا بنية، في أذيال الرياح، والرمال تنسحب انسحاب الطوفان يا هول الانسحاب أيُّها الجنود!

ويسأل التلاميذ سعيداً من صحن مسجد المؤيد:

- أين ساجدة يا سعيد؟

فيتحول جهة حجرة الإمام ويخاطب أم وجيدة بأنه رأى ساجدة في باطن الرمال ترفل في ثوب الحج.. ثم ركبت مع المؤيد الهودج، وكان يودعهما رجل الرفاعي المغمم. استنهض الجمل بعصاه وقال لهما:

- سوف يعقد قرانكما في القبة المذهبة!

فقال المؤيد له:

- إني مدعو لصلاة الجنازة في جامع قيسون.

قشط رجل الرفاعي بعصاه أمواج الرمال؛ فانخفضت وظهر المسجد في قاع صفصاف ومدخله كان النعش يكتنفه طفل وشيخ. تقدم الشيخ يؤم المصلين فرقت قلوبهم للطفل وأبوا إلا أن يصلى بهم صلاة الجنازة. تقهقر الشيخ صامتاً إلى صفوف المشيعين. قالت ساجدة للمؤيد:

- أقم الصلاة!

فانحرف طرفه داخل النعش ولم يصدق الموت وأزميله ينحت وجهها كالليث، وهم أن يكي فتساقطت أسنانه على الصدر النبيل صدر سعد زغلول..

ويهبط سعيد من شرفة المذنة ويطل على صحن المسجد ينادي:

- يا مؤيد، الرمال تتحرك بالهودج وتقصيه عن القبة المذهبة. يا مؤيد، عدلية مشت وراءك في ظلال الكلوب ولكنك سبقتها ثم اختفيت.. نادتك فرجع بها الظلام إلى الظلام، حتى دلها صوت كوكب الشرق على بقعة من الضوء. ولجتها ونظرت إلى تسألني:

- من أين أتيت؟

فسمعت صوتين:

صوتا يتردد من الرمال، وصوتا يتردد في مواقع النجوم..

وينادي التلاميذ سعيدا من أسفل البوابة..

فيصعد إلى مرقد المنارة ويخاطب جبل المقطم:

- يا مقطم، دوى الانفجار وراءك مجهول المأتى والغايات؟ وتبرق في ظلمة كالظلمة؟

ويتكلم عن دخان فاحم يتعرج من نوا فير الرمال وينعقد زاحفا في هيئة خنزير، ثم يتفكك ويبقى وجهه يزحف به الريح إلى أن يلج بقعة الضوء.. وتغمض يمامة ساجدة عيني سعيد، وتثب باسمه للخوف مرفرفة رفيف الرعد؛ فمس ألقه أمواج الرمال واندح كسرمد البرق...

قال "مدبولى" كياس حمام الدرب الأحمر لعن نحمده بعدما أخفق في إنزاله من المنارة:

- سعيد نفر منى نفرته من الناس. ذكرته بالمغطس فزاد نفوره، وطالبني بالصعود إلى المغطس الحق. أي قبة الرفاعي، وأفرعني بهتافه:
"يا قطب، حبيبك فارد سجادته الخضراء".

افتتر السخر من تبسم عم نحمده وهو يقول:

- ضلالات النكسة والأسر هذه هي كشف الجنون المدخر لعقلاء الحروب، والبلية في ألا تطول سهواء الليل بسعيد وهو يتنطط فوق

عرائس القنطرة حتى يبيخعه كشف الجنون!
استهول مدبولي أن يقضى كشف الجنون، أو ضلالات العقول على
فتوة لم يشاهد لها مثيلاً في أجسام الرجال، وقال:

- يخلع سعيد ملابسه والترهل بجسده إن عصرته يُعص، ولكنه
يغطس في الماء برئة حوت، ثم يخرج منه وجسمه مفتول بصفائح
سلحفاء! والله لقد حسبته ملموساً بمارد، لا يبقى بجسده دقائق؛ حتى
يتزف الترهل من جسمه ويتخبب في رخاوة مضطربة!

وكان حيلة يحيش لمخاطبات سعيد كلما زجر الأتوبيس أمام
البوابة، ولم يفوت يوماً إلا ووضع يده على الأتوبيس ويرطم له بهذا
السؤال الذي سمع إجابته مراراً:

- أين هي رؤوس الحية السبع والستين يا سعيد؟
فيحييه متضحكا وناظرا إلى الأرمد الملصق وجهه بظهر حيلة:

- الأرمد يشفها يا حمار!
ورُهِق^(١) سعيد بغرة صراع نشب بين برجين البوابة، وانفض
بسقوط فرخ صقر من مخالب صقر على الكارو، وبجذر الرهق أطل من
القنطرة على حيلة وهو مُعلق له رأسه الضخم، وممسكا بفرخ الصقر
يشجعه على التزول..

ولما واطب على إطعامه دودا يستخرجه من روث الأرمد؛ تجرأ
سعيد ونزول مشاركا التلاميذ الفرجة، ولكن من خلف نافذة البوابة
الشاسعة.

في مرة حمل محروس الفرخ ودخل عيله النافذة، وتردد في لمسه غير
أنه لمسه مذكرا محروسا بيوم البومة، التي حبسه معها بمنور بيته بدرب

(١) رهقه: أي غشيه.

الهنود، إذ كان منور سعيد يُعدُّ مهبطاً لليوم لكثرة ما يغشاه من الفئران، ولقربه من الجبل ومن ثم أشجار الكافور. بابه من أسياخ حديد مواجه لقبو عم كامل، ومن محيط برجه استهدف أكرم "بومة" بطلقة رش فسقطت في المنور يتبعها ريشها المنسول وزمجرة هنومة أخت سعيد. رصدهما من شباك حجرهما قائلة:

- ألم أحذركما من استخدام هذه البندقية هنا؟

فتجاهلا حنقها متوددين:

- والنبى، يا أبله هنومة البومة ستطير!

- آخر مرة!

لكنهما استوعبا خطب تحذيراتها السابقة وسعيد ينتصب على سور السطح معسكرا خطواته في الجهات الأربع، ويغنى للطيور فوقه أغنيته للأرمد:

"خلّ السلاح صاحى"

ثم أوقفته وثبات مُجهضة للبومة؛ فأمر أكرم:

- استعد الهدف يتحرك!

انتهرت هنومة حامل السلاح:

- امش، بهذه "المخروبة" من هنا!

فقفز أكرم بالبندقية من جانب البرج المتهدم ناحية الملعب بينما

طمأئنها محروس قائلاً:

- سعيد نزل من السطح.

انحنت برأسها إلى البومة وألمت بها لحظة، ثم قالت:

- لا ترجع بهذه المشئومة إلى أمك!

طلب منها مفتاح المنور.. تضاحكت وقالت:

- ستك سوف تحارب من أجل إبقائها في البيت!

ثم وهى توشك على الانصراف:

- وربما استصففتها شهراً وأم وجيدة شهراً!

ومن شباك غير الشباك ألقت بالمفتاح، ويبدو أنها تطيرت من
الفرجة والتزول إلى المنور؛ فقالت تحذره:

- اتق شؤم نظرها وعمى مخالبتها يا محروس!

دفع باب المنور فحفز صريره البومة على وثوب تستطيعه، غير أنها
لم تفعل وأسدلت جفניה على دراية بقدرتها وقدرة القنص وقبضت
هلالى أذنيها كأنما تصميمهما عن هدير النجاة.

في وجهها مسحة من طفولة عجوز. وجه وديع وليس بالغريز وإن
تلونت الظلمة في استدارة عينيها، وتموه ريشها تموه القنص ومنقارها
بقوس المخالب.

أصاحت لحركته الهينة الوئيدة نحوها؛ فأيقنت أنه ريح القنص
وأرمشت جفونها تتعجل انقضاضه، وتجاوزت^(١) مغمضة على ميقات
القنص لتسلمه نفسها بسكينة تريدها لفرائسها.. فيما ثبت هو لسعيد،
إذ يأخذ المفتاح من القفل ويغلق به الباب ولبد خلف أسياخ الحديد
واجماء، والخوالج في عينيهِ مشوبة منقسمة على نفسها كلها حادة كلها
جامدة. سأل محروسا من خلف أسياخ الحديد:

- ماذا قلت للعيال؟

يقصد أصحابه بدرّب الهنود حين طاردوا سعيدا بالحجارة،
وبالنداء على عدلية فصاح فيهم مغاضبا:

- أنتم تنتقمون من جنونكم وليس جنون سعيد!

والحق إنه كان يترجم استياء معلمه من الكبار حين انقلب تشاغبهم

(١) تجاوزت: ضيقَت عينيها.

مع سعيد عراكا أهوجا، انقلب بدوره انتقاما أهوجا أقعده أياما في مستشفى الدراسة، ولما زاره كشف له سعيد بالغ إصابته والهمل منها، ثم قال:

-إني دافعت عنهم ولم يدافعوا عني!

يقصد أنه منع غضبه عنهم ولم يمنعوا غضبهم عنه، مع أنه قد أصابهم مثل ما أصابوه، وأقعدهم في المستشفى مثل ما أقعده.. وقد أثار المعلم عبارة سعيد في الندوة وتكلم عن سنوات أسره، وبعضهم وصف انسحابه بأنه انسحاب من يريد القصاص، ولكنه لا يدري ممن يقتص، وبعضهم قال:

- قسوة الجبن عاتية أعنى جبننا. فكل من جبن من عقاب نفسه أسقط العقاب على غيره.. في أمثل وقت لعقاب النفس بذلنا سعيدا قربانا عن أنفسنا ولسان حالنا يقول: لن يهزمنا إلا مجنون أو لن نهزم إلا من جنون فينا، وقد جعل الأسر العدو حاضرا متجسدا في سعيد. مسكين من كان اسمه سعيدا أو كان الجنون اسمه!

فتح سعيد باب المنور وقد انقطع عن حديثه محذقا بالبومة.. تقدم ولمسها، ثم قال:

- لا تأسرها وأسلمها أم وجيدة تداويها!

لم يُشاهد سعيد فك أسرها ومحروس يطلقها من حجرة الإمام إلى أشعة اللؤلؤ. سألته أم وجيدة:

- ما لوها؟

فقال:

- بيضاء!

ثم ضجت الحارة:

"انظروا إنها بومة أم وجيدة البيضاء!"

كما لم يشاهد سعيد أوكي؛ وهو يفك أسر فرخ الصقر؛ بعدما استبدله من حيلة بتسجيل الغرام ، ثم جلس في نفس المكان القدم أسفل بالكونة محبوبته البائنة منه رغم ما تعاقب عليها من محللين؛ وربط إحدى ساقى الصقر بجبل مربوط في معصمه، ورؤُضه على إسقاط كل ما أهدها إليها من الحمام الذي عجز عن بيعه، أو استبقائه عنده، أو حتى التفريط فيه لغيرها؛ فسترده الصقر منهوشا ومترّوف الجراح، ثم صعد إلى برج الهوى وفك سراح الصقر..

وإن جالس حيلة بنافذة البوابة رهقه زججرة الأتوبيس وغرقها؛ فينتفض إلى حيث يطل عليه من القنطرة ويخاطبه بما سمعه من أحلام حيلة. كأن يحلم برؤوس الحية تهاجم الأرمد ونحمده ورجل الرفاعي والقطب متولي، ولما تبتلعهم في ممر البوابة؛ يُخرج حيلة رؤوسها السبع وستين من الرمال ويأكلها، ولكن زعاف سمومها حول جسده الهائل ترب، صره سعيد وعلق صُرتَه بعتبة الشاهد أسفل التماسح المحنط! ويسمعه التلاميذ يخاطب الأتوبيس فيحيونه:

- يا سعيد يا ابن عدلية، حيلة يأكل رؤوس الحية!

واحتروا على الصعود إليه؛ إذ يشير إلى محروس من بين العرائس بالصعود.. ترادفوا خلفه على سلم القنطرة، وظهروا لسعيد فنفر منهم محتفيا في سلم المنارة، ثم ظهر بالشرفة. تملقه تلميذ قائلا:

- والنبي، ركبنا السجادة الخضرة يا عم سعيد!

ويسألونه عما في القبة، فيحتفي ثم يظهر بالشرفة التالية وهم يهتفون بهتاف المرواح:

- يا سعيد يا ابن عدلية، هيا اغطس لنا في القبة!

وفيما كان محروس ينهأهم بقوله:

- حرام عليكم سعيد أسر في الحرب!

كان سعيد يجيبهم متضاحكا:

- الدرب الأحمر كله مجانيين وحرامية!

وأربعهم صوت منهم زعق صاحبه وفر هاربا:

- سعيد نزل لنا!

فلم يسعهم استطلاع الشرفة من زعقة الكذب، وفروا كلهم هارين إلا محروس؛ فقد ثبت كما كان يثبت وسعيد ينفلت إلى دكان جده ويظل صامتا ويحيل نظرتة الحادة الجامدة في الخطاطيف المعلقة بالجدردان كأنما ينفذ إلى ماضيها، ثم لمسه وقال:

- الانجليز استولوا على أغنام جدك في باب الخلق!

وزاغت نظرتة خارج الدكان وقال:

- عدلية نصحته بقفل باب الخلق!

فقال لها:

- أبواب الدنيا لا أقفال لها يا عدلية!

تطلع إليه وهو لا يزال بشرفة المنارة قائلا:

- أوكي فك سراح الصقر!

فارتبك سعيد منكمشا برأسه عن طيور السماء البعيدة، واعتدل

مركزا نظرتة خلف محروس؛ فاستدار لتقول له هنومة:

- زملاؤك روحوا بيوتهم من بدري.

وقالت واضعة على قاعدة المنارة شنطة الغداء، وكيسا به ملابس

وفوطة، ولوفة، وما يلزم لتشطيف أخيها:

- أمك أرسلت أكرم ابن مينا ليحضرك إليها!

وقالت لأخيها:

- انزل لحيلة، إنه خائف يطلع بجركن الماء!

فوجم سعيد والتفت إلى مدى قبة الرفاعي ..

تعجلته أخته:

- حيلة تحت وأنا اتحد حيلي!

لبد مُبلسا غير قادر على أن يفعل أو حتى يلتفت إلى مدى القبة.

فقال محروس لها:

- سعيد يريد أن يغطس في قبة الرفاعي!

لمحت اللوفة متضاحكة وتضاحك سعيد ولكنه استبقى محروسا وهو

يحمل حقيبة المدرسة، وقال ونظرته تنفذ في أمشاج الذكرى:

- عدلية نصحت أمك بعدم الذهاب إلى الشيخة زينب غزال!

فقالت لها: اعتقال الشيخة تأييد من ربنا!

ثم صاح وهو يلتفت بنظرة حادة جامدة إلى صحن جامع المؤيد:

- مجنون من غره التأييد!

قالت هنومة تنكر عليه تحكيم العقل في الجنون:

- المجنون من غره الجنون!

فصاح:

- أين الذين أيده؟

فصاحت به:

- أنت المقيد وليس هو!

فتضاحك سعيد مسائلا محروسا:

- أنت مقيد أم مؤيد؟

خطرت له أمه، وجنازة أبيه الحاشدة ولكن بلا شلالا يحرف

الخلق.. قال وهو يستقبل سلم القنطرة:

- أنا مؤيد بالقيود!

ثم تلقه أكرم بالتهويل وهو يضع "جركن" الماء وسط السلم، وقال:

- حيله خائف يطلع!

ولاحظ نزول سعيد. أسلمه "الجركن"، ثم خرجا وأكرم يقول له:

- الأرمد وحده أسفل البرج!

- وأين حيله؟

- سينطلق حالا من الدكان ليحلب الغداء من بيت البدوية.

واقترح عليه أكرم أن يسيرا بالأرمد من حارة الروم؛ ليفاجئا حيلة به وهو ممدد للإوز كما يتمدد حيلة لذباب الشمس، فرفض الاقتراح قائلا:

- لا، سنسير إلى جوار حيلة كما كنت أسير أيام الكتاب..

ركبا الأرمد ليجدا الرجلين بعتبة الدكان. قال أكرم من خلفه:

- عم نحمده سيناديك الآن "بهاء القلم وما يهربون الهروب".

ولكن عم نحمده داعبه مستغلا أجراس الأرمد المزينة رقبته قائلا:

- كل دى أجراس للمرواح!

وأخذ حيلة منه الحقيبة وهو يشير إلى الأجراس و يتتعتع بما معناه:

"سأعلق له الأجراس بالحقيبة حتى لا يتأخر على أمه!".

رج الضحك عم نحمده فتساند على ساقى الغلامين؛ حتى استطاعا

أن يُحدقا برأفة عينيه المُماثلة لرأفة ملك الموت، حين يطلب من الأرواح

أن تعبر بنا كرب الفراق!

تساءل عم نحمده في نفسه: "لو يشيب الضحك؟"

وربت فخذ "هاء الهروب" وسأله:

- لِمَ سميتي بحارس الأموات؟

ارتبك قائلا:

- لأن الأموات في حاجة دائمة إليك!

نظر إليه مليا وقال:

- أو لأنني في حاجة دائمة إليهم!

قال له أكرم:

- عم كامل أخبرنا أن جدك أحيا بالثلج واحداً ممن علقوا في ممر

البوابة!

فقال ناظراً في سهوم حيلة:

- أي نعم، وكان اسمه نبوي الإخشيدي!

سأله محروس:

- هل كان عبداً؟!

فقال حفيماً به:

- اسأل تلميذ العقاد!

فحفزه الإعجاب في نظرته أن يسأله:

- كم عبداً حكمنا يا عم نحمده؟

قال مستعرضاً حيلة إلى أعلى وقصره إلى أسفل:

- عبد ونصف عبد!

كان حيلة ساهماً في ذكرى نبوى ومنها سهم في ذكرى الأرمدين صريعاً مجد الحديد ومجد الكهرباء؛ فأطرق إلى حوافر الأرمد الثالث الخالية من أخفاف "الكاوتش" التي تقيه شر تيار الكهرباء. نفذ عم نحمده سهومه قائلاً:

- تيار الكهرباء أرحم على الأرمد من خفي حنين. سر يا حيلة

ببركة الرحمن!

ولكنه جاش داخل الدكان يحضر أخفاف "الكاوتش". قفز الاثنان

تباعاً من ظهر الأرمد، ووفقاً يراجعانه:

- نحن نلعب الكرة حفاة في الحارة والشارع.

- لم تكبله؟ حسبه من القيود العريش!

سار حيلة ببركة الأحفاف والشمس تصخد^(١) عبال ظهره وكاهليه
الناتين، وتتفضض أشعتها في شعره الرمادي الغزير. مشى لصق الأرمم
حاملا الحقية تلك الصخرة وفضيلتها الآثمة. فضيلة الهروب، وعقابها
المستعصي على التعب، تماما كحمل الصخرة، فهو عمل سيزيف المقترن
بعمل الأرباب.

ولكن هل خطرت ذروة العقاب لحيلة؟ ولو قدر له ارتقاؤها هل
سيجعله الارتقاء ضميراً أو قدرة أو خيلاً أو استلهاماً لما سيبقى من
فضائلنا وكشفنا، ولما يحفظ للرموز قدسية دوامها، وللأسطورة
وشائجها معنا؟ وهل سيري العابرون سريره كما يراها القدر؟ مشى
فخوراً بالحقية، وكان لفخاره غرورا كغرور الطير وغرور سيزيف.
لم ير أحد سيزيف وهو يحمل الصخرة، ولم يسمعه أحد يشتكى
الارتقاء والانحدار، أو يشتكى حوزة تعب أو حوزة إثم.

فيم كنا نكيه؟

بينما هو في عزلة السرور، يرتقى الأسباب ومراقبي القدرة والجمال.
لقد تعب من أجلنا، ولكننا لن نكون خالدين حتى نتعب مثله.
لقد أشعنا بجمال القدرة، فهل نروم نصيبه من الجمال بالاقتدار
والارتقاء ارتقاء الرموز؟

(١) صخده الحر: صهره.